جروح في شجر النخيل

قصص من واقع العراق

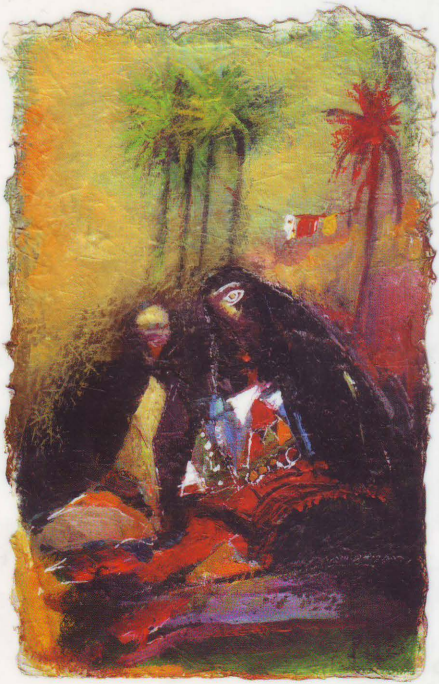

قدّم له أمين معلوف

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

جروح في شجر النخيل

قصص من واقع العراق

قدم له: أمين معلوف

إعداد وإشراف: ندى دومالي

WOUNDS IN THE PALM GROVE

Accounts from Iraq

جميع الحقوق محفوظة
للجنة الدولية للصليب الأحمر

Copyright © **I C R C**
International Committee of the Red Cross
iraq.iqs@icrc.org

First Published in Beirut April 2007
Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.
BEIRUT- LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb . www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953-21-292-9

النصوص الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن وجهة نظر
اللجنة الدولية للصليب الأحمر

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means electronic mechanical photocopying recording or otherwise without prior permission in writing of the publishers

لوحة الغلاف: للفنان العراقي بلاسم محمد
لوحات الداخل: للنحات العراقي محمد غني حكمت
تصميم الغلاف: محمد حمادة
الطبعة الأولى: نيسان/أبريل ٢٠٠٧

المحتويات

المقدمة	**أمين معلوف**	٩
لماذا العراق؟	**كارل ماتلي**	١١
شكر وتقدير	**ندى دوماني**	١٣
صورة لجسد ناقص	**أحمد سعداوي**	١٩
ترنيمة الإله والذهاب إلى أقصى الخراب	**أحمد خلف**	٣٥
أسرى	**إرادة الجبوري**	٥٥
قبلة قبل الموت	**أسماء محمد مصطفى**	٦٩
نحو المجهول	**تيلي أمين**	٨٧
ملثم ومقبرة وحلم كبير	**حسن العاني**	١٠٣
حطام للذكرى	**خضير الحميري**	١١٩

ثلاثة وجوه لامرأة عراقية **سلوى زاكو** ١٤١
ذكريات يوم كئيب في ربيع مهاجر **صباح آرام** ١٦٣
الضغط نحو إنكار الهوية والتمسك بها
كمسك الجمر **طورهان كتانة** ١٧٥
ذاكرة مثل طريق الموت: تكتظ
بالجثث وتشهد للحياة **عماد كاظم حسن** ١٨٧
محنة البقاء في بلد الظلال **لطيفة الدليمي** ٢٠٥
متاهة الجندي: داخل الشاشة...
خارج الشاشة **محمد سهيل أحمد** ٢٢١
وللألم لون وطعم ورائحة **نرمين المفتي** ٢٣٧
وهربت الألوان **هناء حسن غالب** ٢٥٣

المقدمة

لنتوقف لحظة فنستعيد ذكريات العراق. ليس فقط عراق الحضارات القديمة، عراق سومر وحمورابي وجلجامش وبرج بابل وابراهيم الخليل، عراق الجاحظ والمتنبي وأبي نواس وهارون الرشيد وبيت الحكمة وإخوان الصفا. لا، ليس فقط العراق الذي أضاء طفولة البشر وصباهم، بل العراق الأقرب إلينا بكثير، العراق الذي أضاء طفولتنا نحن وصبانا، عراق النهضة والتحديث، عراق الأدباء والملحّنين والرسامين والنحاتين والبنائين. عراق الإنسان والكلمة.

الأهوال كادت تنسينا عراقنا الأحبّ. طُمر حياً أمام أعيننا ولم نكترث. جُلّد ومُزّق وأُهرق دمه. راح ضحية الجميع بلا استثناء. ضحية الآباء والأبناء والأشقاء والأعداء وأعداء الأعداء. طُمر حياً أمام أعيننا وكل منا رمى على الضريح حفنة من تراب وتمتم نصف صلاة، ثم أدار ظهره وأسلم ضميره للنسيان.

وفجأة ترتفع من بين الأنقاض أصوات حيّة. فجأة تصعد من تحت الركام أصوات نبيلة ساخطة هي نبرات الأمل الصابر والبطولة الحقّة والإيمان غير الملطخ.

فبربّكم، دعونا نسكت الإذاعات والشاشات المريعة، دعونا ننسى ما سمعناه اليوم وأمس وقبل أمس. دعونا نترك مشاغلنا لنجلس ساعتين ولحظة مع عراق الحياة، لعلنا ندرك أن شعلة البقاء، ولو خفتت، فإنها لم تنطفىء. لنجلس في خشوع مع كتّاب العراق. هنا الأدب يرتقي، مع كل صفحة، إلى معناه الأعمق والأسمى. هنا الأدب، في كل قصة، يجاور الموت بترفع ويصارع قوى الفناء ولا يكفر لحظة بالحياة. هنا الأدب يعيد إلى الإنسان قدسيته وإلى الإيمان براءته.

نفتح الكتاب، نقرأ، نصمت، ثم نقرأ ونقرأ. نغلق الكتاب، نتأمل طويلاً، ثم نفتحه من جديد، نتصفحه، نقرأ ونقرأ ونقرأ. نبتسم ونبكي، ثم نضمّه إلى صدرنا ونصرخ: عار على زمن يدّعي النور وينشر في الأرض الظلام! عار على زمن يدّعي الإيمان ولا يزرع في القلوب إلا الحقد والكفر! عار على زمن يحوّل المبادىء والقيم إلى أدوات للتسلط والقهر والتدمير!

عار على جيلنا إذا ترك الموت يخمد نبرات الحياة!

أمين معلوف

لماذا العراق؟

من غير المعهود للجنة الدولية للصليب الأحمر أن تموّل كتاباً لا يتطرق مباشرة إلى الأمور المتعلقة بالعمل الإنساني أو باحترام القانون الدولي. لكن في العراق، وربما أكثر مما في أي بلد آخر تعمل فيه اللجنة الدولية، فرضت فكرة الكتاب نفسها نتيجة الصعوبة المتزايدة للالتزام كلياً بمهمة المنظمة على الرغم من سعيها الدؤوب لذلك. لذا، وتعزيزاً لجهودها الرامية إلى لفت انتباه السلطات والأطراف المعنية إلى واجباتها حسب قانون الحرب، ارتأت اللجنة الدولية للصليب الأحمر منح منبر للعراقيين لإسماع صوتهم فوق صخب العنف.

اللجنة الدولية للصليب الأحمر موجودة في العراق منذ عام ١٩٨٠ وشاركت العراقيين في شجونهم الإنسانية هادفة إلى التخفيف من معاناتهم في إطار مهمتها الإنسانية. تعمل اللجنة الدولية على تقديم الحماية والمساعدة لضحايا الحرب

والعنف الداخلي والترويج لاحترام وتطبيق القوانين الإنسانية التي تقيد أساليب العنف المسلح وفقاً لاتفاقيات جنيف.

هذا الكتاب ليس بسرد تاريخي ولا يدّعي الشمولية أو الاكتمال، بل يرمي من خلال مجموعة الشهادات إلى تظهير ما عاناه العراقيون وما يزالون، من جراء حروب متتالية وحصار ونزاعات داخلية واحتلال وتهجير قسري وعنف طائفي.

فلتُسمع أصواتُهم.

كارل ماتلي

رئيس بعثة اللجنة الدولية
للصليب الأحمر ـ بعثة العراق

شكر وتقدير

لسنوات وأنا أعيش مع العراق ومع أهله ومع العديد من العراق ومن أهله ومن العديد الذين غدوا من أعزّ أصدقائي. شاطروني آمالهم ومعاناتهم وأوقات يأسهم وفرحهم. العنف الذي يشهدونه يومياً والذي يجتاح حياتهم ليس من خيارهم. على مدى عقود ولغاية الآن، فقد بعضهم السبيل إلى أحبته الذين قُتلوا أو اختفوا فيما أُقحم بعضهم الآخر في أمور لم يريدوا أساساً أن يكونوا جزءاً منها. واليوم، لا نهاية تلوح في الأفق للكابوس الذي يعيشه معظم العراقيين، غير أنهم ما زالوا متشبثين بحياتهم المبعثرة ليشهدوا وليحلموا بمستقبل أفضل ينعمون فيه بالأمان والسعادة.

إنها مجموعة حكايات لنساء ورجال، لم تُدوّن بهدف إلقاء اللوم أو إصدار أحكام سياسية. فجاءت محصلتها كتاباً مليئاً بالدموع وخاصة بالكرامة الإنسانية. والعراق،

كما يؤكد أمين معلوف ــ الذي فاتحته بشيء من الخجل، لكنه وافق للتوّ وبإنسانيته المعهودة على أن يتحفنا بمقدمة لهذا الكتاب ــ ليس مكاناً للعنف غير المتناهي بل أرضاً ذات تاريخ لا يضاهى وحضارة وثقافة.

مهمة وضع كتاب في العراق اليوم كانت عسيرة. فقد حرصنا على اختيار كتّاب من شتى الخلفيات المهنية والتربوية والمذهبية والجغرافية، وجميعهم ـ حتى لحظة الكتابة ـ ما زالوا مقيمين في بلدهم متمسكين بأمل استعادة شيء من الحياة الاعتيادية. مقابلة كل كاتب على حدة لشرح غرض الكتاب وتسوية الإجراءات العملية كانت شبه مستحيلة. وقد زاد الانقطاع المزمن للتيار الكهربائي من صعوبة الاتصال بالهاتف والفاكس والشبكة الإلكترونية. وهذه الصعوبات لا تكاد تذكر مقارنة بما يكابده العراقيون في يومياتهم. أما الحديث عن الذات، في وقت يتهاوى ما حولك، فهو أمر يتطلب إرادة قوية وقسطاً وافراً من الالتزام.

لذا، أشعر بالامتنان لجميع الذين ساهموا في هذا الكتاب وأحيّي شجاعتهم وصراحتهم وقدرتهم على ضبط عواطفهم المفرطة وموافقتهم على نقل أحداث شخصية مؤلمة. أشكرهم على ثقتهم وأيضاً على وضعهم ضيمهم جانباً. وإذا تعذر عليّ لقاؤهم جميعاً في وقت قريب، نظراً للظروف القائمة في العراق، فأرجو أن يتقبلوا هنا تقديري الصادق.

لم يكن هذا الكتاب ليرى النور لولا دعم العديد، في اللجنة الدولية للصليب الأحمر وخارجها، بدءاً ببيار

غاسمان (رئيس بعثة اللجنة الدولية في العراق في ٢٠٠٣ و٢٠٠٤) الذي أعدّ الفكرة الأولية للمشروع. وأودّ أن أشكر زملائي في العراق وفي المقار الأخرى (تمارا، رولاند، خالد، رافد، شيا، فلاميرز وجان فرانسوا). وأخيراً وليس آخراً، هذا الكتاب يدين لنرمين المفتي التي تناقشت معها على مدى ساعات وأيام والتي ساهمت بطريقة فعالة في إنجازه.

ندى دوماني

مسؤولة الإعلام في اللجنة الدولية
للصليب الأحمر ـ بعثة العراق

صورة لجسد ناقص

أحمد سعداوي

أدفع الكرسي المدولب على حافة الشارع باتجاه البيت والأمطار تزخ بغزارة. كنا نقترب، أنا وعمي المعوق الجالس بجسده المترهل في الكرسي، من منتصف الليل، حين تحول الرذاذ المطري لليلةٍ شتائيةٍ من منتصف الثمانينيات إلى زخات عنيفة. تعودت هذه الرفقة مع عمي إلى حيث يشاء، ولكني تجاهلت في تلك الليلة انزعاجه من قيادتي السيئة لكرسيه المدولب، والألم الذي يمكن أن أسببه في ساقه اليمنى المربوطة بالبلاتين، سعياً مني لاختزال هذا التجوال الليلي بأقصر وقت ممكن.

الذراع اليمنى المبتورة من أصل الكتف والساق اليمنى التي كادت تبتر من أصل الورك لولا عمليات جراحية معقدة، كانا جانبين في جسد منقوص، منحاني مواجهة أولى، من هذه المسافة القريبة، مع واحدة من أقسى نتائج الحرب. هذه الحرب التي لم أكن أفهمها،

بسبب صغر سني، ولكنها كونت في مآلها النهائي صورة طفولتي الكاملة والجزء الأكبر من حياتي اللاحقة.

في هذه الصورة كانت وجبة الجثث اليومية من على شاشة التلفزيون نوعاً من المشاهدة، يشبه في جوهره مشاهدة أية مادة تلفزيونية أخرى. كنا نطالعها، نحن الأطفال، بالتجاور مع أفلام الرسوم المتحركة، دون أن نقع على المفارقة الحادة في هذا التجاور الاعتباطي، ودون أن تعني لنا، بسبب الاعتياد، شيئاً أبعد من كونها صوراً لجثث الإيرانيين الذين قتلهم العراقيون، وتركوا في ساحة المعركة يلتف حولهم الذباب من غير دفن، انتظاراً لكاميرا برنامج (صور من المعركة).

الموت الذي ننتظر أن ينتهي في شاشة التلفزيون، من أجل مشاهدة الرسوم المتحركة ليس إلا، لم يكن يشبه الموت الذي يفجر عاصفة من البكاء والنواح في الزقاق، حين نسمع خبر قدوم «شهيد». ولم نكن مؤهلين، نحن الأطفال، للكشف عن الجوهر المشترك بين الميتات كلها، تلك التي تحدث هناك، ما وراء شاشة التلفزيون، وتلك التي تزحف لتدخل زقاقنا وعلى مبعدة أمتار من أبواب بيوتنا في كثير من الأحيان.

لكننا، غريزياً ربما، كنا نعرف أن الميت هو شخص كان حياً و«تحول» نحو الموت أو دخل فيه. نعرف أن الموت يغير الأشياء وبالتالي لا يعود أحد يشير إلى الميت بدلالة الحي. فرغم وجوده في التابوت بين أهله وأقربائه، يُشار إليه بضمير الغائب ويُعتبر مجرد بقايا لذات غائبة. شخص آخر يدل على الشخص الأصل ولا يعود قادراً على تمثيله كاملاً.

لكن المعوق يبدو شخصاً في منتصف الطريق. شخص دخل قسم منه في عالم الموت وبقي قسمه الآخر، الأكبر، في عالم الأحياء. كثيراً ما تحدث المعوقون عن أعضائهم التي دفنوها بأنفسهم في مكان ما من أرض المعركة أو تخلوا عنها فيما بعد داخل المستشفيات العسكرية. يتحدثون عن أعضائهم وكأنها غدت ذواتاً مستقلة. يقول «ذراعي» وهو يعلم أنها خرجت عن سيطرته وأصبحت مجرد شيء هناك، في الخارج، يفكر بها مثل شيء أثير أو كأنها الجزء الأعز في جسده والذي أجبرته الحرب على التخلي عنه.

إنه شخص ما زال على قيد الحياة، هذا المعوق، لكنه يفكر بذلك الجزء الذي مات منه، وهو يعلم أن علاقته مع الموت كانت أكثر جدية من أية علاقة ينجزها آخرون، المكتملو الأجساد. فما زال يحتفظ بتذكار قاس وظاهر للعيان من تجربة مواجهته، ولن ينقضي بسهولة ألم هذه المواجهة، التي خلفت بين فكي الموت جزءاً من الجسد ومن الروح ربما.

كل هذه التداعيات خلّفها ذلك الاقتراب الحميم من جسد ظل يعاني طويلاً من أثر المواجهة الناقصة مع الموت، تلك التي حدثت لعمي (علي عباس سعد) في واحد من تقاطعات طرق الحرب، والتي قذفته وقذفت حياته اللاحقة إلى طريق لم يكن يخطط له قط.

* * *

الإثارة الدرامية للحكاية تمهيداً لاستعادة هذا العضو المفقود في نهاية المطاف، كما في المسلسل الكارتوني (خماسي) حيث يتم تركيب ذراعين صناعيتين للبطل الرئيس في المسلسل، بعد فقده لهما في معركة مع أحد الوحوش. وهاتان الذراعان تتمتعان بخاصية الاندماج التدريجي مع الجسد، حتى ليغدوا في النهاية لا يختلفان عن الذراعين المفقودتين بشيء.

ذراعا هذا البطل في المسلسل الكارتوني ــ الذي عرضه التلفزيون العراقي لأول مرة عام ١٩٨٨ ــ لهما تجسد أكثر درامية في الواقع. فحلم استعادة العضو المفقود يظل ملتصقاً بذهن المعوق دون أي إمكانية عقلانية لإزالته، إزالة الحلم أو الوهم، تحت وطأة الصورة الذهنية والحسية للمعوق عن نفسه «الصحيحة» والتي رافقته الشطر الأكبر من حياته. مجموعة من الصور الفوتوغرافية في الخزانة مثلاً، أو معلقة على الحائط، مجرد سهو بسيط على المائدة لتناول كوب بتلك اليد والذراع المفقودة، إشارة عصبية خاطئة وغبية من الدماغ تأمر اليد المفقودة كي تتناول المنشفة في الحمام.

الجزء الكبير من هذه الخيالات تأكد لدي من خلال الحوار المباشر وغير المقصود مع العديد من المعوقين، وتأملت انعكاساتها على السلوك عن قرب مع عمي علي عباس، وعمي الآخر عبدالله عباس، الذي فقد قدمه اليسرى بانفجار لغم أثناء الحرب أيضاً.

كان (علي) غير قادر، كما بدا لي، على نسيان وسامته وحسن طلعته. لديه صور كثيرة ملتقطة بالكاميرا الفورية يجلس فيها مع أصدقاء له على طاولة شرب في حانة من حانات شارع أبي نؤاس، وذراعه التي فقدت فيما بعد تبين بيضاء ممتلئة في الصورة،

وهي تخرج من الردن القصير للقميص. صورة لي بالأبيض والأسود وأنا طفل صغير لم أبلغ العام، بعد خروجي من المستشفى، وعلى يمين الصورة تبين ذراع (علي) الخارجة من ردن القميص الضيق ذي الياقة الكبيرة العالية والذي كان جزءاً من موضة (التشارلس) السائدة في السبعينيات.

كانت الحرب التي أتت بعد ذلك بقوة كاسحة، مجرد خطأ بالغ بالنسبة لشاب مثل علي لم يبلغ العشرين من عمره، معتد بوسامته، ويعيش بتطلع بدايات حياة مليئة بوعود المتعة والإثارة، خارج ذلك السقف المحتدم للصراع السياسي وقتها، والذي كان يدور داخل حياة الشباب وبهم. لم يكن علي جزءاً من أي شيء. لم تجذبه حرارة النشاط السياسي، لا لأنه يتخذ موقفاً واضحاً تجاه ذلك، بل لأنه شخص بسيط ولا يمتلك حتى تلك الثقافة المحدودة التي تؤهل الشباب عادة للانخراط في العمل السياسي بحماسة. لم يكن يملك شيئاً غير وسامته والوعود التي يلقيها الشباب والصحة على هذه الوسامة. لذلك بدا فقدانه لذراعه وعطب ساقه الشديد، الذي جعله جليس الكرسي المدولب لسنوات طويلة، بدا هذا الفقدان غير المتوقع لا أقل من نهاية ثقيلة وصعبة التصديق لكل شيء بالنسبة له.

* * *

في صيف عام ١٩٨٨ وبعد انتهاء الحرب العراقية ـ الإيرانية بأقل من شهر، تم سوقي إلى معسكر لتدريب الطلبة. وفي هذه الأيام أيضاً انتقل عمي علي مع زوجته للسكن معنا في غرفة داخل بيتنا المؤجر. كنت أحمل راديو ترانزستور صغيراً في حقيبتي أثناء

التحاقي في معسكر النهروان، وأسمع على موجة الـ«إف. أم» بقية حلقات المسلسل الكارتوني (خماسي)، الذي بدأ التلفزيون العراقي بثه في صباحات العطلة الصيفية. كنت ضئيل الجسم وصغيراً ولم أجد بسطالاً على مقاس قدمي في مخازن معسكر التدريب. وكنت أعتقد أنني ما زالت طفلاً، لأني كنت أقارب البكاء لعدم قدرتي على متابعة المسلسل الكارتوني. لقد سمعت أكثر حلقات هذا المسلسل من خلال الراديو، وبقيت حتى نهاية فترة التدريب الشاقة أعاني تمزقاً نفسياً، بين صورتي التي يعكسها اهتمامي بالرسوم المتحركة وصورتي وأنا أتدرب على السلاح وأركض في عراء ساحة التدريب في السادسة صباحاً، وأسمع التعليقات الفاضحة لضباط الصف ومعلمي التدريب.

كان الشهران اللذان قضيتهما في هذا المعسكر كابوساً ظل خلال السنوات يلاحقني، وعرفت فيهما ماذا يعني أن تكون جندياً، وما هي الحياة التي تنتظرني حين أساق ذات يوم إلى جيش حقيقي وأدخل معركة وحرباً حقيقيتين.

كانت فرصة غير محبذة أيضاً للتعرف بشكل أقرب من مشاهدة (صور من المعركة) على شاشة التلفزيون، على ما كان يعانيه الجنود خلال الثمانينيات وعلى رائحة الحياة العسكرية والحرب في أقل تقدير.

فهمت أن الاستثنائي والشاذ عن القطيع لا يمكن أن يحيا في الجيش أو أن معاناته تتضاعف. هكذا كانت الحال مع عدنان، الجندي والطالب في الصف الثاني متوسط، ذي السمنة المفرطة، حيث تحول إلى مشجب لتعليقات الضباط وضباط الصف

وسخريتهم. وسقط في نهار مغمى عليه، بسبب تجديد عقوبة الركض له لأكثر من مرة، لأنه يصل دائماً في نهاية سرب الراكضين خلف الشواخص الإسمنتية داخل ساحة العرضات. سقط ولم يفلح في ايقاظه ذلك الماء الذي سكب على وجهه فاختلط بالتراب مكوناً عجينة طينية حمراء لوثت شعره وملابسه وتم سحله من قدميه حتى قاعات المنام، مجللاً بضحك العرفاء وبعض الجنود/ الطلبة.

كان عدنان سميناً بشكل غير طبيعي، لذا كان جسده «ناقصاً»! ويعوزه ضمن مقاسات الجسد الكامل، وأن يتخلص من سمنته، كي يغدو جندياً مؤهلاً وصالحاً للاستعمال!

كنت نحيفاً بشكل مفرط، وضئيل الجسد، وأعاني من فقر الدم وانخفاض الضغط المزمن، لذا كنت ذا جسد ناقص أيضاً، وأصل، مثل عدنان، في نهاية سرب الراكضين، ويتم تجديد عقوبتي لأكثر من مرة. ولم يأتِ الإغماء المفاجئ ليعفيني من هذا التعذيب كما حصل مع عدنان، وخفت تمثيل ذلك، لذا كنت أعاود الركض صاغراً، من دون أن تتسارع قدماي المتشنجة بخطوات أكثر. اكتشفت أن جسدي يتمرد على أوامري، وأنه لا يستطيع إعطاء شيء أكثر مما لديه. ومع تزايد إدراكي لهذه الحقيقة بدا أن معاناتي قد انتهت. استجبت لجسدي، وآمنت بمحدداته، فما دامت الأجساد الرياضية القوية لزملائي الآخرين تسبقني بأشواط، فمن العبث الضغط ومحاولة مجاراتهم. هكذا كنت أخرج للعرضات صباحاً وكلي يقين بأني سأركض خلال هذا اليوم أضعاف المسافة التي يركضها الجنود الآخرون، وخططت للركض بسرعة أقل من المعتاد كي أحافظ على طاقتي،

واتسعت المسافة بسبب ذلك بيني وبين سرب الراكضين بشكل كبير، وتزايد غضب العرفاء على جسدي، لكن ذلك لم يعد مشكلة كبيرة، ما دام هؤلاء العرفاء غير قادرين على دفعي، مهما فعلوا، على الركض بسرعة أكبر.

تخليت مذذاك عن صورة الجسد الكامل، وتصالحت مع ضعفي البدني ونقصي، وتعاظمت المسافة بيني وبين أبطال الرسوم المتحركة. انقضت الطفولة بشكل غير متوقع، وواجهت النفق المعتم لبدايات البلوغ، والتحول القسري إلى «رجل» في زمن لا يشبع من الرجال.

* * *

الشيء الأساسي في تجربة معسكر النهروان لتدريب الطلبة ظل يتكرر مع فترات خدمتي المتعددة في الجيش العراقي. ظل جسدي يتأخر دائماً عن أجساد الآخرين، ظل جسداً غير مقنع وغير مؤهل لأن يكون جسد جندي، ولم أجد بتاتاً، مع مطلع أي خدمة جديدة، أي بسطال على مقاس قدمي. واعتادت أصابع هذه القدم اللعب بحرية داخل الفضاء المجوف لمقدمة البسطال، وانتبهت لاحقاً إلى أن هذه القدم لم تعد تطيق الانحصار في حذاء على مقاسها. لكن هذا الاكتشاف في سياق تحسس جسد غير قياسي أو أنموذجي، يبدو ضئيل القيمة أمام اكتشافات الآخرين، أو صدمة المواجهة مع تغير فجائي في الجسد.

والمشكلة العميقة لا تتعلق عادة بهذا التغير الفجائي في معمار الجسد، بل بطبيعة التعامل مع صاحب الجسد الناقص، وفضاء

الاستجابة الاجتماعية تجاه أجساد رجال غير قياسية. هذه الاستجابة التي تعتاش على ثقافة ذات أصول ريفية، تقدس الجسد الكامل والمحتدم وتعبد الخشونة والعنف في الأداء الجسدي.

إن صاحب الجسد المعوق أو الضعيف يطالب بدوافع واعية أو غير واعية الآخرين بألا يذكّروه بنقصه، وأن يتم التعامل معه دون استثناءات أو تمييز حتى وإن كان من باب العناية الخاصة أحياناً. وهذا ما يبدو أن المجتمع غير مؤهل لإدراكه والتعامل وفق محدداته إلا في حدود ضيقة. وصاحب الجسد المعوق يندفع بقوة لأداء مهامه السابقة بحماسة زائدة لكي يثبت أمام نفسه أولاً بأنه قادر على عيش نمط حياته المعتاد من دون الاستعانة بهذا العضو المفقود. ولا يدرك الآخرون دائماً هذه الحقيقة ويطالبون صاحب الجسد المعوق بأن يقلل من نشاطه، كي يجنبوه كما يتصورون متاعب مواجهة الحياة بجسد ناقص.

تتجسد في ذهني الآن صورة تلك المساءات الطويلة، في مقهى شعبي في مدينة الثورة (أكبر الأحياء الشعبية في بغداد يُعرف اليوم بمدينة الصدر)، حيث أغالب الإغفاء على تخت في طرف المقهى، منتظراً عمي علي حتى ينهي لعبه للدومينو مع أصدقائه، كي أقوده إلى المنزل. كنت شبه مسخر لخدمته، وكان يندفع بإصرار شديد على التجوال في كل الأماكن التي كان يقصدها قبل الإعاقة ويجهد نفسه للعب الدومينو لساعات طويلة بيد واحدة. وقد يجازف في بعض الأحيان للعب القمار وخسارة نقود كثيرة، استجابة لإغراء اللعب وإغراء التوحد مع صورة حياته المعتادة التي غدت فيها الإعاقة مجرد جملة اعتراضية ثقيلة، يتم تجاهلها في هذه الأوقات. لم أكن مؤهلاً للتعامل بعمق وتفهم مع هذه

الأشياء. كنت أذاكر على تخت المقهى وسط صخب الجالسين وأستعد لامتحان درس الأحياء في صباح اليوم التالي، منتظراً بصبر نافد أن يشبع عمي من العالم الخارجي، ويتركني كي أقوده إلى المنزل وأسلمه إلى يدي زوجته، لأتفرغ بعدها لشؤوني.

بعد سنوات من الانتكاس النفسي استطاع علي استعادة توازنه الحياتي، ودخل إلى ميدان العمل الحر، خصوصاً مع استعادته في عقد التسعينيات لقدرته على السير بقدمين وعكاز، ثم تخليه فيما بعد عن العكاز أيضاً. ما زلت أحتفظ بصورة مذهلة عن زيارتي له في محل عمله داخل سوق مريدي الشهير وسط مدينة الثورة حين شاهدته يعدُّ ويحسب لفة كبيرة من النقود بأصابع يده اليسرى وبسرعة فائقة. بدا لي حينها، على الأقل من صورته الخارجية، وقد تخلص نهائياً من آثار فقدانه لذراعه، وكنت سأصدق عدم حاجته لهذه الذراع المفقودة واستغناءه عنها، حتى لو عرضت عليه قوة سحرية ما إمكانية استعادتها.

* * *

تجربتي مع التخاذل أمام صورة الجسد الأنموذج والجسد الكامل غدت جزءاً من مادة اختباراتي الروائية فيما بعد. وغدا النظر إلى جسد سريع العطب، يتقبل المرض بسرعة نافذة للإطلالة على الخبرة الروحية لكثير من الأجساد الناقصة، ومنها تلك التي تعرضت لتجربة البتر والتقطيع أثناء الحرب. وهذا ما أدى بي للوقوف على حقيقة أنطولوجية أولية، وهي انعدام الجسد الأنموذج أصلاً. فكل الأجساد التي تتحرك في فضاء الواقع تتموضع في انحرافات متفاوتة في المستوى عن الجسد الأنموذج والجسد الكامل.

ونطل جميعاً، بدرجة أو بأخرى، من ثقوب هذا الجسد وعاهاته على العالم الخارجي. الإيمان بغياب الجسد الأنموذج، هو الذي يؤهلنا لإدراك أن عطبنا الجزئي هو المساهم الأكبر في خصوصية النظرة تجاه الأشياء والعالم، وهو ما يدفعنا للتقبل ثم التجاوز لحقيقة النقص والانثلام، باعتباره وضعاً بشرياً أساسياً.

إن التكيف مع العاهات يستدعي السخرية في بعض الأحيان، سخرية المعوق وذي الجسد الناقص من نفسه، لكي يتجاوز مع الآخرين «محرمات» الإشارة إلى إعاقته، ولكي يغدو مثل الجميع — مثل هذا الرجل صاحب الأنف الكبير، وذلك الرجل صاحب الفم الخالي من الأسنان، وذلك الأصلع وذلك المتأتئ، وكل البشر المتجوهرين حول عاهاتهم الجسدية والنفسية، صغيرها وكبيرها، ما دام هذا التجوهر حول الثغر هو واحد من أكثر الأوضاع أصالة لدى الكائن.

* * *

وما دام وعي الإنسان ينظر إلى العاهة على أنها مفروضة من الخارج دائماً، من القدر أو الصدفة أو الحظ السيئ، وما دام هذا الوعي ينظر دائماً إلى أنه مؤهل لملء جسد كامل، فإن الإعاقة المفروضة على الجسد الإنساني لا حدود لها تقريباً. نبتدئ بإعاقة الحرب، التي تفصل جزءاً من الجسد بشكل نهائي، وننتهي عند الإعاقات المؤقتة أو غير المرئية لهذا الجسد.

أتحرك هذه الأيام مضطراً في شوارع بغداد، لملاحقة عمل أو شأن لا فكاك منه، وأرى أنني لم أكره في حياتي هذا التجوال المفتوح

على احتمالات متعددة مثلما أفعل الآن. لم أكره هذه الشوارع ومرأى الناس المحبوئين خلف نواياهم المجهولة تجاهي مثلما أفعل الآن. أنظر إلى حركة الشارع بسياراته وبشره، وبأفقه المترب على الدوام، والذي تختمر فيه بدايات غير مرئية لعصف غيمة من الدخان والأتربة والشظايا لسيارة مفخخة قادمة. أنظر إلى الدشاديش وأغطية الرأس الملونة، إلى النساء الحذرات وهن يعبرن الرصيف على عجل، أنظر إلى البائعين في الأكشاك المصنوعة من الصفيح، وإلى واجهات المحال الزجاجية، أنظر إلى كل ذلك وأتحسس هشاشة هذا العالم، الذي يفترض أن يكون أقوى من الفرد. يحمي الفرد، أو يخيفه، لا فرق. أتحسس هشاشته، هذا العالم، أمام عمل فردي يقوم به شخص واحد. تماماً كما يحدث داخل ساحة معركة، حين يضغط شخص على زر فيطلق صاروخاً يقتل عدداً كبيراً من الناس.

ما حدود إمكانية الافتراض بأن الخوف يعوق الحياة ويعوق الجسد؟ بالإمكان التحقق من ذلك بالتجوال في شوارع بغداد.

ها هنا تستطيع أن تلمس حقيقة مرهفة وشبحية: أنت أكثر هشاشة من فراشة، ولا تستطيع روحك إنقاذ جسدك حين تريد.

الروح ها هنا تتبع نداءات الجسد، لا الشهوانية منها، بل تلك المرتبطة ببقاء الكائن، تلك الغرائز الغائرة في العمق السحيق لوجود الإنسان والتي تدفعه للبقاء قبل أي شيء آخر.

مجرد البقاء، بقاء الجسد فقط ــ لا أحد يفكر بالروح في الغالب!ــ هو انتصار، وأيما انتصار، في معركة مفتوحة على

الجهات كلها، وفي الأوقات كلها أيضاً. هذه التي تسمى حياةً عراقية.

الاختباء أو الهرب أو محاولة إيهام الذات أن نيران المسلحين والسيارات المفخخة تصيب الآخرين دائماً، هؤلاء الذين نراهم على شاشة التلفزيون كل مساء، مقطعي الأشلاء وملوثين بدمائهم أو بدماء آخرين تمزقوا بجوارهم. إنه الموت الذي نراه «هناك» دائماً، وما زال مستمراً منذ أكثر من ثلاثة عقود، منذ أن استيقظ أبناء جيلي على هذه الحياة ولم يعرفوا غيرها. إنه موت الآخرين، هذا ما نتشبث به، في حالة متدنية من التعاطف الإنساني، حين يصبح تلمس الجسد ــ جسدي أنا ــ والتأكد من سلامته، هو الشاغل الأساس قبل أي شيء آخر.

بطاقة شخصية

* من مواليد بغداد عام ١٩٧٣.
* بدأ النشر في عقد التسعينيات ويعمل صحافياً في وسائل إعلام عراقية متعددة.
* من مؤلفاته: «الوثن الغازي» شعر (١٩٩٧)، «نجاة زائدة» شعر (١٩٩٩)، «عيد الأغنيات السيئة» شعر (٢٠٠١)، «رأسي» رسوم كاريكاتورية نشرت في مجلة أخبار الأدب المصرية (٢٠٠١)، «صورتي وأنا أحلم» شعر (٢٠٠٢)، «البلد الجميل» رواية (٢٠٠٤).
* فاز بالجائزة الأولى لمسابقة الرواية العربية في دبي عام ٢٠٠٥ عن روايته «البلد الجميل».

ترنيمة الإله والذهاب إلى أقصى الخراب

أحمد خلف

سومر.. يا أعظم بلدان العالم
أيها المغمور بالنور الدائم والشرائع المطاعة..
أقدارك عظيمة لا تتبدل
وقلبك واسع عميق، لا يسبر له غور.
«ترنيمة الإله أنكي المهيمن على تنظيم العالم وتسيير سبل الحياة الرغيدة».

في محاولة مبكرة مني لتقليد كاتب سومري يجلس محنياً رأسه على كتابه في لوح الطين وقبل التجرؤ على «سرقتها» من المتحف الوطني بتاريخ ٢٠٠٣/٤/١٢، حيث شوهد أحد اللصوص المنظمين والعارفين بفك ألغاز الحروف السومرية، لا أدري لماذا خيل إليّ ساعتها، أن اللصوص تمكنوا من سرقة محاولتي تلك، والتي ترجع إلى عام ١٩٦٧، تاريخ أول زيارة لي إلى المتحف الوطني.

لم تشغلني التماثيل الكبيرة العملاقة، التي اتسمت بجلال مجد السومريين، أنصاف الآلهة أو الأشوريين العتاة في صراعهم العنيف ضد الطبيعة القاسية في بلاد وادي الرافدين. بل هيمنت على روحي «الفتية» ألواح وقطع الآثار الدالة ببرهان ساطع على أن القوم كانوا يحسنون القراءة والكتابة وأنهم قطعوا شوطاً بعيد المدى في الحضارة المدنية. ولا أدري كيف ترسخت في ذهني فكرة ارتباط المدينة والتطور والكتابة وآفاقها، فلا مجال للرجل المتعلم أن يكون لصاً أو قاتلاً أو جاحداً للحق والخير والجمال. وما داموا كذلك فلا بدّ أن لهم عادات وتقاليد وطقوساً تخصهم وحدهم. أكانوا حقاً يشعلون النار لكي يطهوا طعامهم، كما يفعل أحفادهم هذه الأيام، التي استبدلوا فيها مهمة النار من طهي الطعام إلى حرق الكتب وإشعال كل ما تقع عليه أيديهم من آثار حضارة ومدنية كما فعل الغوغاء بمدينة السلام حيث تم حرق عشرات الدساتير والمواثيق ورسائل الحب؟ كلها أحرقت وتناثرت مع الريح وهي تنوس في الفضاء المهجور...

كنت أصغي وأنا داخل قاعة المتحف إلى ذلك الوقع، رشيق الخطى لصوت الماضي السحيق بما احتواه من حقب وفترات. أسمع وقعاً متناغماً في استكمال لحلقات التاريخ. إنهم قادمون لأخذ مواقعهم في الحاضر كما كانوا يفعلون في الماضي. والغريب أني شاهدت من بينهم من يبتسم لي لعله كان مسروراً لذلك الهدوء الذي كان ينعم به داخل قاعة المتحف. انكفأت، كما الكاتب السومري الذي عثرت عليه عيناي في القاعة العليا من المتحف منحنياً على مربع الطين يتعلم كتابة الخط المسماري. لا أدري مَن كان هذا الكاتب، أتراه أحد كهنة لجش أم سومر، أم تراه من كهنة الأكديين أو الآشوريين لم أتعرف إليه في انحناءاته؟ وضعت أمامي ورقة بيضاء

وقد انبثق على صفحاتها أول حرف من حروف الأبجدية العربية، التي يقال إنها سليلة الكتابة المسمارية. إن عقلي في عام ١٩٦٧ كان دفاقاً بالصور والخيالات الجامحة، ولا أحد يعلم أية خطوة قادمة ستصدر عن هذه الخيالات. عندئذ، سلّمت القلم إلى المخيلة الزاخرة بالحروف والصور وهذا ما حملته الذاكرة:

إذا كنت حقاً منتقماً لك،
لأوثق قيامة وأمنحك الحياة،
فأدعو الجميع للاجتماع وأعلن عن أقداري المتفوقة...

حين أنجزت ما كتبت من كلمات، لم أكن أعرف أين أضع هذه القطعة العزيزة على نفسي. كنت حريصاً على حفظها في مكان أمين وتساءلت أين يمكن المرء ان يحفظ أشياءه الثمينة إن لم تكن في المتاحف العامرة بأصناف اللقى والكنوز. وليس مثل المتاحف مكان يستطيع المرء فيه ادخار الأمانات.

في الليل، تلصصت على مبنى المتحف الوطني ودخلته دون علم الحارس الليلي الذي كان يغط في نوم عميق، لأن ما من أحد يغامر من أجل سرقة ألواح الطين، حتى لو احتوى المبنى المهيب أصنافاً من الحلي والمصوغات النادرة. فاللصوص عادة لا تشغلهم عناصر المعرفة، بل هم حريصون على الفوز بالغنائم التي توفر لهم رخاءهم وسعادتهم اليومية.

تلك الليلة الهادئة من عام ١٩٦٧، امتدت يدي إلى الصندوق الزجاجي المستطيل الشكل، انتزعت الورقة من ثيابي وألقيتها مرتبكاً داخل الصندوق وعدت أدراجي إلى البيت راجلاً، ومبتهجاً بما

استطعت إنجازه: إنني الآن شريك الكاتب السومري ولي حصة في المتحف الوطني. إنني أعلم تماماً أين تقع تلك القطعة النفيسة من تاريخي. تلك هي ترجمتي الوحيدة لغضب مردوخ كبير الآلهة وتوعّده بالانتقام من المتطاولين على نواميسه المشرعة. لم يتجاسر على العبث بملكيتي طوال السنوات الماضية، إلا نفر من الجناة، الذين سارعوا لسرقتها. ها أنا أطالبهم بإعادة ما سرقوه، وعلى رأس قائمة المسروقات تلك القطعة الثمينة من حياتي والتي حرصت على كتابتها كجزء من تاريخي الشخصي الذي لن أساوم عليه، أو يهدأ لي بال ما دام اللصوص قد نفذوا جريمتهم بسرقة محتويات المتحف الوطني ومعها أخذوا تلك القطعة العزيزة من حياتي. وإذا كان لا بد من إسماع صوتي للعالم، فإنني سأكتب وثيقة الاتهام ضد كل من تجرأ وتجاسر وسرق في ظلام الليل أسانيد البلاد التي أصبحت حزينة بسبب ما آلت إليه الأمور من خراب ودمار وفلتان. فالآلهة التي انتزعتهم أيدي اللصوص من مواقعهم في المتحف الوطني بتاريخ ٢٠٠٣/٤/١٢، أسياد وبناة حضارة يفترشون الأرض ويديرون شؤونها بالحكمة. إنهم يضمون صوتهم إلى صوتي بكل تأكيد. فأنا المالك الوحيد لكل المسروقات. إني أقرأ الوثيقة وأتألم على ما جرى، لكن صوتي لن يكف عن صيحته.

الوثيقة

مساء أمس وصباح اليوم ١٣/١٢ نيسان/أبريل وعلى التوالي، تناقلت وكالات الأنباء خبراً تحليلياً مفاده: إن عمليات السلب والنهب التي بلغت ذروتها في يومي ١١/١٠ نيسان سوف تستمر إلى ما لا يعلمه أحد حتى تنتهي. وهي عمليات منظمة وذات أهداف أصبحت

واضحة للجميع إذ امتدت هذه العمليات من المباني الحكومية حتى المستشفيات إلى المكتبة الوطنية والمتحف الوطني للآثار.

وتطاولت أيدي اللصوص إلى المتحف الوطني والذي يضم عدداً من التحف والآثار واللقى إضافة إلى التماثيل والمنحوتات والرسوم التي يعود معظمها إلى العهود الغابرة من سومرية وبابلية وآشورية وغيرها. وقد اختص المتحف بالخريطة الأثرية، السلالات والأقوام المنقرضة التي سكنت وادي بلاد الرافدين. وقد تعرض المتحف الوطني إلى عمليات سرقة سابقة، شأن حال كل رمز من رموز الهوية العراقية ذات الخصوصية الدالة على عراقة الحضارة في هذه البلاد. الرموز التي تحكي حقيقة الصراع بين تلك الأقوام المستوطنة هذه البقعة الخيرة من العالم وأقوام أخرى جاءت غازية لأراضيها. كما تروي لنا قصص البطولة النادرة للإنسان القديم، ومواجهته لقوى الطبيعة البدائية التي كانت تتسم بالقسوة والجبروت وليست ملحمة كلكامش عن ذاكرتنا ببعيدة.

خبر في جريدة

قرأت في جريدة «الأيام» البحرينية أن عشرين شاحنة توقفت أمام المتحف الوطني العراقي، وأن أكثر من ٢٢٠ قطعة أثرية نادرة قد سرقت وأن شبكات التلفزة قد صورت عمليات السلب والنهب، لكنها لم تصور عمليات سرقة المتحف الوطني العراقي لأن هناك من يحرس اللصوص.

صوت من خارج الوثيقة

إني أرفع يدي احتجاجاً على ما فعله اللصوص من سرقة شملت

محاولتي المبكرة في تقليد ومنافسة الكاتب السومري والتي تعود إلى عام ١٩٦٧ وأتوجه إلى الهيئات الدولية المعنية بإعادة تراث كل شعب من الشعوب المنهوبة إلى أراضيها ليستقر في متاحفها كجزء من إرثها الحضاري. إني أناشد الهيئات الدولية وأدعوها إلى أن ترفع صوتها معي عالياً ضد الهمجية وعمليات سطو تراثي الوطني والشخصي المتمثل بالإرث الحضاري.

ها أنا أعود ثانية للاحتجاج ولا يهدأ خاطري ما لم تر عيناي ما تمت سرقته في الليل يعود إلي في وضح النهار، وأحذر اللصوص مرة أخرى من إهمال محاولتي المبكرة التي يتصدرها تاريخي الشخصي بالذات. فهي وثيقة خاصة بي وتعنيني تماماً وإليها أستند في الدفاع عن أحقيتي في الحياة وجدارتي بهذه الأحقية. وإنني لست وحدي في احتجاجي على عمليات السطو المنظم. فقد بدأت صيحات المطالبة بإعادة إرثي إلى موقعه من جانب أحرار العالم المتمدن الذين يعرفون تماماً قيمة اللقى الأثرية وارتباطها بتاريخ الإنسان وجنسه وسلالته. الكل معي من باريس إلى نيويورك ومن موسكو حتى لندن، الجميع يصطف إلى جانبي بكل شجاعة.

صوت من داخل الوثيقة

إن المتحف الوطني هو الدليل القطعي والمتفرد الذي يرسم لنا خطوطاً بيانية بشأن الذاكرة العراقية، حيث تبدأ هذه الذاكرة المترعة بالخيال النادر، بقصص الإنسان نصف الإله، وبتراتيل المعابد وحياة الكهنة وتفانيهم في طمأنة الرعية إلى سير القوانين في الوجه الصحيح، وكذلك الأساطير التي ترجمت إلى حكايات حيوية. يكتشف المرء من خلالها ويتعلم أن كل شيء ممكن إذا شاء العمل

على بناء مستقبله وكيفية الحفر على الحجر ليرسم ويكتب قصة مقارعة الإنسان العراقي القديم لمصيره وقوى الطبيعة الغامضة عليه. مصيره الذي بناه عبر اكتشافه للأدوات والآلات، وخاصة العجلة، أعظم اختراع يخص البشرية. فهي الهدية الصارخة عن جدارة، هدية الإنسان العراقي لعموم البشرية التي تتطلع نحو المجد والخير والجمال.

شاهد يؤكد

«منذ اختراع الكتابة قبل نحو ٥٠٠٠ سنة كانت بلاد الرافدين قد وفرت لذاتها، لا أداة عجيبة للذاكرة الكلامية وللدقة والتحليل فحسب ــ محدثة بذلك ثورة في نموذج الثقافة ذاته ــ بل كذلك طبقة من «المثقفين» المختصين في مهنة الكتابة والقراءة الصعبة في طريقة رؤية الأشياء والتعامل الفكري الذي كانت تؤدي إليه. فهؤلاء «المثقفون» المجتمعون في مدارس وأكاديميات حول القصور الملكية أو المعابد شرعوا في وقت مبكر يهتمون بعدد من الظواهر ويدرسونها ويضعون عنها عروضاً لا نستطيع تسميتها إلا بـ«العلمية». ثم شرعوا يستنسخونها ويدرسونها دون هوادة ويعيدون النظر فيها ويضيفون إليها وينشرونها حتى النهاية، أي قبيل عهدنا الميلادي».

الشاهد: جان بوتيرو ــ بلاد الرافدين

شاهد آخر

إن عشرات الشهود وعدداً كبيراً من المراسلين العاملين أكدوا في الأنباء التي أرسلوها إلى محطاتهم وقنواتهم أن عدداً كبيراً من الجنود كانوا يغضون النظر عن محاولات التخريب والتشويه

والسرقة. لكن عندما بدأت الضجة تتنامى دولياً من أجل حماية الصروح الثقافية العراقية والحفاظ عليها، وعندما بدأ العالم يندد بعمليات السطو، اضطر المسؤولون الأميركيون إلى القول الصريح «إن قوات التحالف لا تستطيع السيطرة على هذه الفوضى، لأن الجنود لن يتحولوا إلى شرطة قامعة، وإن هذه العمليات يمكن أن تحدث حتى في الولايات المتحدة، إذا ما تخلت الحكومة أو أسقطت عنوة، فالأمر يصبح بيد الغوغاء».

آخر المحاولات

حين عرفت بسرقة المتحف الوطني، لازمني شعور بالإحباط لأنني تذكرت محاولتي المبكرة في تقليد الكاتب السومري. وأدركت أن لا مكان آمناً في هذا العالم لا يمكن اختراق حرمته حتى لو كان متحفاً، وأن قناعتي السابقة التي عولت على هيبة المتاحف والجامعات واتفاق الجميع على قدسيتها لم تكن إلا تصوراً رومانسياً لا اعتبار له وسط حدة السطو على كل شي وأي شيء. لم أتخلص من كآبتي، لكن قادتني قدماي نحو المتحف الوطني، دون وعي مني لتفقد محتوياته، وما أخذ منه تحت جنح الظلام وما ترك أو أهمل عن قصد، علماً أن ثمة منحوتات ولقى تم الاستيلاء عليها قبل غيرها. لم يأت اللصوص إلا من أجل تلك الآثار بالذات.

في المتاحف التي كنت أزورها، كان صوتي الذي يلهج بالكلمات يغيب ويختفي النطق منه لأن الدهشة والذهول يعترياننني حال دخولها. ويظل السؤال المحير يلفني: هل صحيح أن ما أراه كان في يوم ما حقيقة شكلت تاريخ البلاد؟ أقول أتحرك دون وعي مني

لأني تقدمت كإنسان آلي موجّه نحو هدف محدد هو البوابة العتيدة لمبنى المتحف. لم أستطع دخوله وتفقد القطعة الصغيرة التي تركتها وديعة شخصية في المتحف، لأن الجنود المدججين بأحدث الأسلحة كانوا يحرسونه بعناية فائقة بعد أن أنجز اللصوص فعلتهم الشائنة.

رماد الكتاب

إن أبشع ما تم تدميره عبر السرقة المنظمة هو المتحف الوطني للآثار والمكتبة الوطنية، التي تعدّ إحدى أهم المكتبات البارزة في شأن المخطوطات العربية النادرة والمراجع ذات القيمة العالية. والمكتبة الوطنية أحد المعالم الثقافية والفكرية الأساسية في العراق، إذ هي رافد كبير يعتمد عليه المثقفون العراقيون حيث يجد طلبة الدراسات العليا ضالتهم بين أروقتها المتعددة ورفوفها الكثيرة. وقد يتساءل المرء حين يكون معنياً بالكتب: كيف يجرؤ إنسان يمتلك مقومات العقل السليم على إشعال النيران لتلتهم مكتبة دون أن يصاب بالجنون أو العته؟ كيف يجرؤ على العبث في المكتبة العامة، بحيث يحيلها من النظام الدقيق الذي اعتمده المشرفون عليها، إلى مجرد فوضى من خلال السرقة العشوائية التي لا تعتمد إلا على تخمين قيمة ما يسرقه اللصوص والذين تطاولت أيديهم إلى المتحف الوطني؟

كانت أول زيارة لي إلى المكتبة الوطنية في مطلع السبعينيات من القرن العشرين. لم يكن الهدف من الزيارة البحث عن كتاب أو رواية حاصرني عنوانها أو محتواها. كلا. كانت الغاية اللقاء بامرأة، قالت إنها تريد رؤيتي لأنها تحتفظ لي بهدية سوف ترضيني

وتدخل السرور إلى نفسي. بادئ الأمر، كنا مرتبكين لأننا لا نعرف كيف ندير الكلام، وكانت هديتها رواية «امرأة في الثلاثين» لستيفان زفايج. فقلت لها: هناك أكثر من رواية بهذا العنوان، وإن بلزاك سبق زفايج في كتابة رواية «امرأة في الثلاثين» وهذه المرحلة من عمر الإنسان هي من المراحل المؤثرة والمثيرة لأن المرء يبدأ بعدها عده العكسي.

انتفضت السيدة غاضبة مني مستنكرة حديثي عن سن الثلاثين، ناسباً إليها الوصول «خفيةً» إلى هذه المرحلة. وأكدت لي جازمة أنها بسبب معرفتها تعلقي بقراءة الروايات، أرادت لي الاستمتاع برواية تتحدث عن حياة امرأة في الثلاثين. ساعتها انفجرت بضحكة مدوية وحاولت في لحظة خاطفة تغيير مجرى الحديث. أكدتُ لها بدوري أن ما أعنيه ليس امرأة محددة بل عموم النساء والرجال أيضا. ولما رأيت كيف استكانت أساريرها، واصلت الكلام بصوت أكثر هدوءاً واطمئناناً وأنني سأعتبر هديتها أجمل ما تلقيت في حياتي من هدايا، خصوصاً أن المؤلف هو زفايج الذي أكنّ له احتراماً خاصاً، لا سيما أن له كتاباً آخر أكثر أهمية. ورأيت نظرة صاحبتي المغمضة وإصغاءها المطمئن الواضح لي وللكلمات التي تسمعها مني حقيقة لا غبار عليها. الكتاب يدعى «بناة العالم». فأكدت لي السيدة أن «بناة العالم» موجود في المكتبة أيضاً. وما هي إلا دقائق حتى أصبح «بناة العالم» بين يدي.

لقد أغرتني السيدة باستعارته من المكتبة الوطنية، التي قالت عنها متباهية: «تستطيع أن تسأل عن أي كتاب يخطر في بالك الآن وسيكون أمامك!». ولما هززت رأسي إذعاناً لها، قالت إن المكتبة الوطنية تحتوي على عشرات الآلاف من الكتب والمجلدات الثمينة

ومخطوطات لا مثيل لها. غير أنني اكتفيت بستيفان زفايج وإن خامرتني الرغبة في الفوز بكتاب آخر. إلا أنني أرجأت ذلك إلى لقاء جديد مع السيدة التي تعمل في المكتبة الوطنية صباحاً، وتحب قراءة الروايات التي تتحدث عن نساء بلغن من العمر ثلاثين عاماً، وهو العمر الذي يقلق المرأة أكثر مما لو بلغت الخمسين منه.

حتى ذلك اليوم، والمكتبة الوطنية لها صورة محببة إلى نفسي ونكهة خاصة رغم أن اللقاء ظل يتيماً ولم يسعفني الحظ بلقاء آخر. غير أنني ما زلت أحتفظ بكتابين من ستيفان زفايج. وها أنا أناشد السيدة المهذبة التي أعارتني الكتابين وأدخلت السرور إلى نفسي إذا ما قرأت هذه السطور أن تشير إلي بلقاء آخر ليس في المكتبة الوطنية، إذ إنها لم تعد تصلح كمكان للقاء، بل يعمها الصمت والخراب. فقد احترقت الكتب في أروقتها ورفوفها العديدة، وملأ الغبار والدخان جدرانها وزواياها وتناثرت آلاف الأوراق شمالاً ويميناً، ونُهبت آلاف المجلدات النادرة وغابت تلك الزاوية التي كانت مستقراً لمنضدتها، تعير الكتب لطالبيها وهي راضية وسعيدة من عملها الفريد. كانت تقول لي: «إن عملي هو ببساطة نشر المعرفة بين الناس». أصبحت جدران هذه الزاوية مليئة بالدخان وآثار الحريق وسُرقت المنضدة الجميلة المصنوعة من خشب البلوط وضح النهار، ولم أعد أعرف أين أصبحت السيدة حتى هذه اللحظة. وها أنا أعترف بأنني مدين لها بكتابين لمؤلف عزيز إلى نفسي، مستعد للتخلي عنهما حالماً تظهر السيدة من جديد.

إنني الآن أقف في الشارع المواجه لمبنى المكتبة وأنظر بإنعام، لا لآثار الحريق وبقايا الفوضى والخراب، بل أحاول جاهداً تحديد زاوية جلوس السيدة الكريمة، التي استضافتني ساعة من الوقت.

ولم تستطع كل أحداث الزمن أو العالم محو ذلك اللقاء الجميل. وأعترف لها الآن، بأنني حين كانت تتحدث، لم أكن مشغولاً برفوف الكتب المرصوفة جنب بعضها بل كنت أتنعم بجمال السيدة، وهو جمال هادئ يميل إليه أغلب الرجال الذين يقدرون قيمة الجمال ويعطونه اعتباره اللائق. والحق أقول أن السيدة، هي الأخرى، كانت تدرك أني أعرف بأنها تستمتع بنظراتي غير المترددة.

أقصى الخراب

هذا اليوم الخميس٢٠٠٣/٤/١٧، زارني أول صديق منذ بداية الحرب، حيث لا مواصلات ولا اتصالات ولا كهرباء. الشاعر محمد درويش علي جاء يحث الخطى صباحاً وقد انقطعنا عن الاتصال. كانت قدماه قد أعانتاه على المجيء من جانب الرصافة إلى أطراف الكرخ. انطلقنا معاً في رحلة سميناها «الذهاب إلى أقصى الخراب» نتفقد خلالها ما تهدم من بغداد، وما أجهز عليه الغوغاء بالحرائق بعد السلب والنهب.

خلال ذلك، نقل لي الصديق محمد درويش علي أن هجوماً بالأسلحة قد حصل على عدد من المصارف الحكومية ومن بينها البنك المركزي العراقي. وعند الوصول إلى مبنى المكتبة الوطنية والحريق الذي طاولها من الجهتين، ألجم المشهد أفواهنا وعقد ألسنتنا لما عكسه من بشاعة تثير الجزع ومقدرة الفاعل على عدم احترام أبسط النواميس. شاهدت عمالاً يتسلقون المبنى في محاولة للترميم. حسبتهم عمالاً ولا أدري إن كانوا كذلك فعلاً أم أنهم لصوص جاءوا ليستكملوا ما حصل للمبنى من فوضى ودمار ظاهر

للعيان. أمام مشهد المكتبة المروع هذا، وقف حشد من الناس على الناصية، وقال أحدهم: «إن حرق المكتبة يشبه سرقة المتحف الوطني للآثار العراقية».

إنني أكتب هذه الصفحات والساعة تشير إلى الرابعة من صباح يوم الجمعة ٢٠٠٣/٤/١٨، على ضوء الفانوس النفطي الذي قد لا يكفي زيته لساعة أخرى. فقد مضت أكثر من ثلاثة أسابيع على انقطاع التيار الكهربائي، والوعود بعودته مستمرة وقائمة على قدم وساق، ففي كل ليلة مظلمة تمر، يقال لنا فيها كلام جميل عن عودة المياه والتيار الكهربائي إلى بغداد، ولكن دون جدوى. وعلى المرء أن يتخيل مدينة كبغداد مترامية الأطراف، نصفها يحترق بفعل النيران المستمرة التي تغشيها طبقة من الدخان الجائر، الذي سمم في طريقه كل ما هو نقي.. أما نصفها الآخر والذي أنقذته الأقدار من أيدي العابثين، فإنه يغط في ظلام كثيف.

الصمت والظلام، هما حصة بغداد هذه الأيام وزادها في الليالي المترعة بالأسى. ويخيل إليّ الآن، لشدة تعلقي بهذه المدينة العملاقة، الحميمة، التي لم أستطع مفارقتها في كل محنها التي صنعها الجبابرة لها والطغاة والبغاة وكل أولاد الزنى، أن من حق كتاب العالم وأدبائه التحدث عن مدنهم. لقد تعرفت إلى عدد من مدن العالم من خلال روائييها وكتبهم التي كانت سعادتنا لا تقدر ونحن نقتنيها لنؤسس منها في بيوتنا مكتباتنا الخاصة.

والكتابة عن المدن مهمة أكانت عملاً إبداعياً أم متابعة سيرة ذاتية هي في المحصلة الأخيرة، لحظة من لحظات الوجد، يهب الكاتب فيها قلبه مرة واحدة إلى موضوعه. وبغداد التي نحبها جميعاً،

ظلت الموضوع الأثير لدي، ومعظم ما كتبت كان محاولة متواضعة للاقتراب من قلبها الكبير لا تقديم وصف خارجي لمعاناتها وما لحق بها من أضرار. هذا الوصف الخارجي للأحداث يمكن أن يتكفله أي مؤرخ نبيه أفضل من أي روائي بارع أو قاص ماهر يشغله العذاب الإنساني الذي ترزح تحت وطأته قلوب عشاق المدن التاريخية.

أليست بغداد جديرة باحترام من تطأ قدماه أرضها وأن يكبح نزواته وحقده؟ لماذا كلما مررت بمبنى محترق تذكرت الشعراء الأفذاذ الذين عاشوا بها والكتاب الماهرين الذين ختموا حياتهم في ربوعها؟ لماذا أتذكر هؤلاء ــ لعل الجاحظ يبرز في المقدمة ــ دون سواهم؟ هل يرتبط الإبداع والثقافة والفن ببغداد وحدها؟ أم أنها الحاضرة العربية الوحيدة التي تمتلك مع القاهرة ودمشق امتيازها التاريخي العتيد، في بناء الحضارة والتمدن، وكل ما هو متوحش ولا إنساني غريب عنها؟

عادة حرق الكتب

كثيراً ما أسجل ملاحظاتي وانطباعاتي في دفتر صغير الحجم كثير الأوراق، عن أشياء محددة، اعتقاداً أنني سأستفيد منها ذات يوم. لكنني، والحق يقال، لم أرجع إلى دفتري هذا إلا في مرات قليلة ونادرة مما تأكد لي أنها مجرد ملاحظات لا جدوى منها. غير أنني ندمت بشدة على تبديد وقتي في كتابة ملاحظات وانطباعات بلغت في تعدادها أكثر من سبعة دفاتر وآخرها حمل سيلاً من اليوميات التي تصلح مجالاً مناسباً لتعلم كتابة القصص أو اختبار الحكم والعبارات الطنانة.

وخلال السطور التي شرعت في كتابتها عن عادة حرق الكتب، تذكرت عدداً من الإشارات التي نقلتها من كتاب تَرك انطباعاً عميقاً في نفسي، وهو رواية بعنوان «اسم الوردة» تعرض إلى حرق الكتب عمداً وإلى تصدي المعرفة لخصومها. وقد ذكرت في مطلع كتابتي عن حرق المكتبة الوطنية في بغداد، أن خصوم المعرفة غالباً ما يكونون من الجهلة والأميين. وهذا خطأ جسيم ينبغي تصحيحه. فالمعرفة تملك خصوماً من داخلها، أي من الذين يعرفون قيمة الكتب والمكتبات. وأنني من أجل كتابة مقال أدين به نفراً من الضالين والضالعين بإتلاف الكتب، اقتصرت في اتهامي ذاك على الأميين والجهلة وشملت بعض القادة وأولاد الزنى من الذين يكرهون الكتب ويمقتون المعرفة، وتجاوزت في أمري حد التورط في التحايل والمبالغة في أني ذهبت إلى لقاء سيدة أعطتني كتابين لستيفان زفايج.

كنت قارئاً مواظباً على زيارة المكتبة الوطنية سواء كان ثمة سيدة تنتظرني أم أني اختلقت الحكاية بغية جذب القراء ودفعهم نحو مواصلة مقالي هذا. فإني كالذي ضُبط متلبساً في جرم لا يدري كيف التخلص منه. فقد تورطت في اللعبة وذهبت فيها حتى مناطق الخطر.

على أي حال، سواء أكان ثمة امرأة في انتظاري في زيارتي الأولى أم أني أحاول التملص من هذه الحكاية الآن، خشية غضب العائلة عليّ، فقد غدوت منذ ذلك اليوم الذي حملت فيه الكتابين زائراً دائماً للمكتبة الوطنية. أذكر أنني قرأت رواية «الغثيان» لجان بول سارتر في قاعتها كاملة. ولم أتخلص من إعجابي بشخصية العصامي الذي وقف ذات يوم أمام صف الكتب في المكتبة الوطنية

في باريس متأملاً ومتحدياً رفوفها العديدة، وأطلق عبارته المعروفة «بيني وبينك أيها العلم الإنساني». وإن شغف العصامي في رواية «الغثيان»، أثار حفيظتي يومها، وقررت على غراره تحدي العلم الإنساني في قراءة كل شيء تقع عليه عيناني أو تطاله يدي. لكنني خسرت المعركة لأن ما قرأته من كتب لا يعادل قطرة ماء في بحر متلاطم الأمواج، وإن أمثالي يعلنون انتحارهم في تحديهم للمعرفة. وهكذا هو الأمر عادة مع حرق الكتب، كما الحال في رواية «اسم الوردة». فاحتراق مكتبه الدير كان من داخلها، إذ أشعلها الراهب العجوز والمسؤول عن تنظيم الكتب وإدارتها وترتيب مفرداتها، من أجل القضاء على المعرفة، التي كان الراهب يخشى وصول البشر العاديين إلى سرها ومتسعها. غير أنه لم يكن يعرف أن الكتب حتى في حالة احتراقها لا بد لها أن تترك في التاريخ ذكرى الاشتعال الدرامي الذي يخلد إلى الأبد، أي أنها لا يمكن نفيها نفياً إطلاقاً.

فالاحتراق عادة يؤسس له ذاكرة خاصة في عقول البشر. لكن الذي وضعت يدي عليه أمر يختلف عن ذلك. فقد وجدت المعرفة ولأول مرة تحسن الدفاع عن نفسها، لا من خلال احتراقها بل لأنها شكلت معضلة تقض مضاجع خصومها، أياً كانت جنسياتهم أو هوياتهم. فالمكتبة هنا تبقى رمزاً ساطعاً، رغم الاحتراق، في أنها رمز إدانة وتحدٍّ لمن يتجاسر على إتلاف الكتب وحرقها. ولا أستبعد أن تكون لدى الفاعل، وهو يرى النيران تشب في المجلدات المذهبة والأغلفة الأنيقة، متعة قصوى، في الوقت الذي اعتقدت فيه وما زلت، أن حرق المكتبات إنما هو فعل مشين لا يرتكبه إلا الجناة وحدهم.

بطاقة شخصية

* من مواليد الديوانية عام ١٩٤٣.
* خريج كلية التربية ـ قسم التاريخ.
* أصدر ١٧ كتاباً بما فيها مجموعات قصصية وروايات ودراسات.
* من بين مؤلفاته: «نرهة في شوارع مهجورة» في عام ١٩٧٤، «منزل العرائس» في ١٩٧٨، «الخراب الجميل» في ١٩٨٠، «موت الأب» ٢٠٠١، «حامل الهوى» في ٢٠٠٥.
* نال كتابه «خريف البلدة» جائزة أفضل كتاب في العراق لعام ١٩٩٥.
* شغل منصب سكرتير تحرير مجلة «الأقلام الثقافية» من عام ١٩٩٨ إلى ٢٠٠٥.
* متفرغ حالياً للكتابة في بغداد.

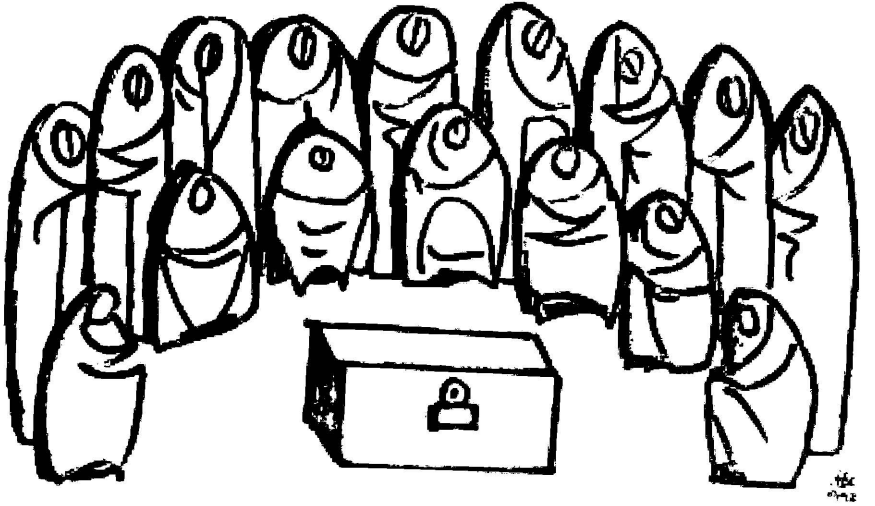

أسرى

ارادة الجبوري

بين ليلة وضحاها، تحولت تلك البناية الكونكريتية الكالحة النابعة من أرض موشاة بالملح، إلى مكان يعج بالحياة. تجمهر الناس ووجد الباعة طريقهم إلى المكان وانبثقت على عجل عربات بدائية تقدم الطعام والشاي والفواكه.

من مراكز المدن تشكلت الخطوط والمسارات لنقل الناس من المكان وإليه.

كانت «أسرى» الكلمة المفتاح للذين لا يعرفون المكان أو الطريق إليه.

بالنسبة لرباب، كانت تلك الكلمة مفتاح صندوق حرصت على عدم فتحه سنين عديدة. وفي ليالي وحدتها، وفي نهارات غياب

أخيها إبراهيم عن البيت ومساءات انشغالاته بعوالمه، كانت تحوم حول الصندوق والمفتاح بحوزتها. تنتظر الفرصة وربما الشجاعة لإدخاله في القفل. وفي المرات القليلة التي شرعت بتنفيذ هذا، كانت اليد تتراجع ما إن تجد نتوءات المفتاح مكانها، فتؤجل ذاك إلى يوم آخر وليلة أخرى محاولاتها النادرة تلك لم تكن تتجاوز بتاتاً حدود المفتاح وأسنانه. كانت تخشى اللحظة التي لا تعرف فيها ما الذي ينبغي لها فعله إذا كشف الصندوق عما بداخله.

كان وجود إبراهيم في حياتها وانشغالها به وعوالم تلميذاتها في المدرسة الابتدائية التي تعمل فيها.. كل ذلك كان يحول دونها وتلك اللحظة. غير أنها، وفي اليوم الذي سمعت فيه تلك الكلمة، ارتجفت يدها الممسكة بالمفتاح وارتجف قلبها. وعندما تكررت الكلمة على مسامعها وهي في طريقها إلى بيتها، أدركت أن عليها أن تتخذ قرارها الآن لا في يوم آخر. توقفت قليلاً كي لا تفلت أمنيتها، حلمها الذي تحصّنت به طوال سنوات ضد الموت واليأس المحيط بها. قررت الإبقاء على صراخها في تلك الليلة: أن الذي في الصندوق المحكم بمسامير ليس زوجها وأن أخطاء تحدث وأن موعد إجازة زوجها الدورية يوم غد ومن ثم لا يمكن أن يأتيها بصندوق... ظلت تردد بآلية وهي تحتضن الصندوق «يجب فتح التابوت الآن» لكنها لم تبذل جهداً لفتحه.

كان عليها أن تقرر على الحال لا بعد دقائق: فتح الصندوق مع كل ما يحمله الأمر من مجازفة بحلم طال انتظاره أو التوجه إلى البيت والاقتيات على الأماني والأحلام.

أغمضت عينيها. دق قلبها بقوة واتجهت إلى المكان الذي تصطف

فيه السيارات الذاهبة إلى حيث تسكن. كانت تسير مطأطئة الرأس، بتعب وبلا تركيز. سلمت قيادها إلى جسدها بينما كانت روحها تتقافز مثل طفلة لحوح جزعت من وعود أمها غير المنتهية في إخراجها من أسوار المنزل.

أوقفها صوت ضعيف متهرئ، فرفعت رأسها. شاهدت سيدة عجوزاً يقودها طفل في حوالى التاسعة من العمر.كانت محدودبة الظهر، ترى طريقها بصعوبة. وكان الصبي يرتدي ملابس رثة خفيفة لا تتناسب وبرودة الشتاء القارص. كان يقودها مستسلماً لقبضة كفها النحيل وهو يحاول مسايرتها في خطوها البطيء.

بصوتها الخفيض أوقفت رباب، التي لم تع لأول وهلة، أن السيدة تتحدث إليها. كان قد مر في ذهنها للحظة أن العجوز تستجدي منها نقوداً مستخدمة الطفل للتسول.

شعرت بالخجل عندما أدركت أنها تسألها عن مكان سيارات الأسرى.

«اها... تريدين سيارات الأسرى؟»، رددت محاولة إخفاء خجلها.

هزت العجوز برأسها مبتلعة كلمة «نعم» مع دموع لاحت في عينيها.

كان الصبي يبدد انتظاره بإخراج وإدخال إصبع قدمه من ثقب حذائه الكتان الملطخ بالطين.

أدركت رباب أن الوقت قد فات على التراجع وهي تقول: «تعالي

معي، أنا ذاهبة إلى هناك».

قالت هذا بسرعة وهي تمسح بأنظارها الصبي وإصبعه الخارج من ثقب الحذاء. حاول الصبي أن يخبئ قدمه بتقديم القدم الأخرى وعندما لم يفلح وقف وراء العجوز.

سارت وهي لا تعرف كيف نطقت بتلك الكلمات «أنا ذاهبة إلى هناك».

وجدت نفسها تجلس إلى جانب الصبي والعجوز في سيارة نقل متوجهة إلى المكان الذي ينبغي أن يكون فيه أسرى الحرب العراقية ــ الإيرانية في خريف ١٩٩٠.

أخبرتها العجوز أنها ذاهبة إلى المكان على أمل أن يكون ابنها بين العائدين. عرفت أن الصبي هو حفيدها الذي لم ير والده. كان جنيناً عندما تسلموا ورقة في مظروف رسمي تخبرهم بأن ابنهم مفقود . .

«مفقود أم أسير؟» تساءلت بحذر بعد فترة تفكير.

لم تأبه العجوز بسؤال رباب الحذر مؤكدة أن الورق لا معنى له ما دام قلبها يحدثها بأن ولدها على قيد الحياة. تولى ركاب السيارة بقية الحديث ساردين قصصاً عن عائدين كان أهلهم يعتقدون بأنهم شهداء وأن بعضهم قد تسلم الجثمان ودفنه وووووو.

كان أغلب ركاب السيارة من النساء وبعض الآباء الطاعنين في السن: أمهات وأخوات وزوجات اصطحبن أولادهن الذين لم

يتعرفوا إلى آبائهم إلا في صور علقت على جدار غرف الضيوف في المنازل. كان بعضهم جنيناً أو رضيعاً وآخر كان صغيراً عندما ذهب والده إلى الحرب ولم يعد.

كانت السيارة تترنح مثقلة بالحكايات والذكريات عن أحبة لم يعودوا إلى بيوتهم ذات يوم. أما الأمنيات فقد كانت حبيسة المخاوف لا يجرؤ أحد على التصريح بها إلا بعبارات من قبيل «الله كريم» أو «إن شاء الله». تُبتلع نصفها ولا يبقى منها سوى «الله». تتردد في فضاء الخوف لتملأ فجوات صمت تطل بين حين وآخر وبين حكاية وأخرى.

وجدت رباب نفسها بعيدة كل البعد عن الجمع الذي تقاسم القصص والحكايات والأسئلة والإجابات.

سألتها العجوز باختصار: «زوجك؟».

رددت بصوت بدا لها فارغاً: «إي ... زوجي».

لم تسمع العجوز الإجابة فكررت السؤال: «ابنك؟».

«لا زوجي». قالتها بصوت ضعيف لكن بنبرة حازمة أغلقت على العجوز أية فرصة لطرح سؤال آخر. كان الركاب متأهبين للمشاركة في ما بدا لهم حكاية جديدة. إلا أن نبرة رباب أعادت كل واحد منهم إلى حكايته وخوفه فعمّ السيارة صمت ثقيل.

أغمضت عينيها ليغيبْ كل شيء عنها... لتبقى مع نفسها كما اعتادت أن تفعل منذ سنوات طوال، منذ تلك الليالي الممتلئة بنواح جارتها التي فقدت ولدها الوحيد في الحرب. أكمل التاسعة عشرة

في اليوم الذي أحضروه لها في تابوت. ظلت الأم تنشج وتنوح حتى فقدت بصرها وما لبثت أن التحقت بولدها الذي لم يكن لها غيره في الحياة. في ليالي النواح تلك كانت رباب تهرب من نشيج جارتها الذي تزداد حدته ووتيرته كلما تقدم الظلام. تهرب من تلك النبرة الرتيبة للنشيج، تغمض عينيها وتضغط على حواسها لكي لا تسمع دعوة الأم لابنها أن يعود إليها أو أن يأخذها عنده. تردد أسماء الله الحسنى كما علمتها أمها. تردد الرحيم، الغفور، العطوف، الرؤوف، الخالق، القيوم... ثم تعيد ترديد الأسماء بصيغ أخرى لتحصل على أكبر عدد من الأسماء. بمرور الأيام أصبحت تحسن تصنيف الأسماء بفئات تبدأها بصفات العطف والرحمة والجمال والكرم والعطاء وتنهيها بصفات القوة والقدرة.

هكذا كانت تهرب من نفسها ومن وتيرة ألم جارتها الأم ونواحها غير المنقطع في كل ليلة. وفي النهار كانت تمتهن الاحتيال على مواجهة نفسها وما يحيط بها عبر تدريب تلميذاتها الصغيرات على تذوق اللغة واختيار أعذبها وألطفها وتحسس الكلمات وعشقها قبل استخدامها. تفعل هذا وهي تستمع إلى حكاياتهن عن أسرهن وعن الآباء الذين يغيبون طويلاً في الحرب، وعن حكايات الموت وأهواله التي يأتون بها إليهن وكأنها هدايا عيد ميلاد، وعن تحديق الأمهات في التقاويم والخطوط الحمر التي تشير إلى موعد حضور الغائبين، وكيف تزحف الخطوط أياماً وأسابيع أحياناً مزيحة معها سكينة البيت وطمأنينة أصوات الأمهات والزوجات.

لكنها وهي في هذا المكان، لا في فراشها أو بين تلميذاتها، محاطة بأناس لا يجمعها بهم سوى قلب الأسى والانتظار لم تستطع أن تهرب من نفسها. كان الصمت وترجرج السيارة في طرق معطوبة

يذكرانها بخوفها من فقدانه إلى الأبد.

أغمضت عينيها وصارت تردد الله ..الله ..الله.. ترددها بسرعة مرة، وبلا عجل أخرى، مئات المرات بعينين مغمضتين وشفتين متيبستين مرتعشتين خوفاً وذاكرة مثقلة بآلاف النهارات والليالي من انتظارات لم تكن لها نهاية. سمعت نفسها تردد الكلمة لكنها لم تكن قادرة مثلما اعتادت من قبل على الوصول إلى تلك اللحظة التي تغيب فيها المسافة الصوتية بين حروف الكلمة ويتشبع كل حرف بتكرارات الصوت نفسه، لتتوحد وكأنها حرف واحد مشبع بالأصوات التي تحبها، بصوت أجراس شجرة ــ شجرة لم تعرف اسمها فأطلقت عليها اسم شجرة الأجراس ــ وبصوت ذلك النهر الذي رأته مرة وسمّته النهر الصامت... نهر طويل يمر في شوارع وأسواق وبيوت مدينة مكتظة بالأصوات واللغط، وجدت نفسها تدخلها سيراً على الأقدام تناشد الله أن يهبها طفلاً بعد أن رأت أمها الراحلة بالمنام ترشدها إلى ذلك النهر والاغتسال بمياهه روحاً وجسداً.

عادت بروح امتصت هدوء النهر وسكينته لكن الوقت لم يمهلها فرصة الحصول على طفل بل منحها زوجاً في صندوق مغطى بعلم العراق.

سأل الصبي جدته: «متى نصل؟».

لم تجبه فعاد إلى صمته محدقاً بحذائه المثقوب.

وكأن فكرة طرأت على بالها، تساءلت الجدة بصوت مسموع إن كان سيتعرف الأب على طفله أم أن هذا مقصور على قلب الأم فقط؟!

تذكرت رباب كيف حاولت مرة مساعدة إحدى تلميذاتها النابهات للتخلص من هاجس التحديق بساعة مكتبة المدرسة الجدارية والكف عن سؤال المعلمات عن الوقت. وعندما قابلت والدة التلميذة، واسمها دجلة، عرفت منها أن الطفلة تنتظر قدوم أخيها الأكبر الذي وعدها في يوم وهو يودعها في طريق ذهابه إلى الجبهة بأن تنتظر قدومه الساعة الحادية عشرة بعد شهر لأخذها إلى مدينة الألعاب. انقطعت أخبار الأخ في إحدى المعارك ولم تتسلم العائلة جثة ولا أي شيء يفيد بمعلومات عنه، باستثناء خبر تكتم الوالدين عليه يفيد بهروبه إلى بلد ما بعد انتهاء تلك المعركة. منذ ذلك اليوم ودجلة تنتظر حلول الحادية عشرة من صباح كل يوم ومسائه. كانت تجادل أمها التي تحاول إقناعها بالنوم مساء أنها تخشى أن يحضر وهي نائمة فتعدها الأم بأنها ستوقظها حالما نصل. لم تستطع رباب إلا أن تقترح على تلميذتها تخصيص دفتر تطلق عليه الساعة الحادية عشرة، تسجل فيه كل ما تفكر به وما تحلم به وما مرت به وتنتهي من ذلك يومياً عندما تحل الساعة الحادية عشرة مساء.

فكرت رباب إن كانت دجلة، الطالبة الجامعية الآن، ما تزال تنتظر حلول الساعة الحادية عشرة وإن كانت مواظبة على كتابة يومياتها. تُرى كم دفتر أصبح لديها الآن؟ تذكرت أنها منذ بضع سنوات عرفت بأنها ملأت ثلاثة وثلاثين دفتراً.

مغمضة العينين كانت تستعيد ملامح دجلة وتعابير وجهها وارتباكها كلما اقترب موعدها مع أخيها. صورة صارت تستحضرها كلما فكرت بشجرة الأجراس وبالنهر وبأمومتها المعطلة

سألت العجوز: «وحدك؟».

كانت رباب تطبق بعينيها وسمعها على دجلة وصمت النهر وشجرتها. لم تسمع صوت العجوز.

شعرت العجوز بالقلق فلمست بأصابعها النحيلة كتف رباب متسائلة مرة أخرى: «أولادك؟».

«لا، زوجي». اعتقدت أن العجوز تكرر سؤالها السابق.

أعادت العجوز سؤالها بوضوح فعادت رباب إلى نهرها بعد أن أجابت: «ليس عندي أولاد».

أجابت متجنبة النظر إلى وجه العجوز وإلى أي شخص في السيارة كي لا ترى تلك النظرة المتعاطفة المواسية أو تستمع إلى كلمات الأسف أو الاعتذار أو الحزن. كان بمقدور تلك الكلمات والنظرات أن تدمرها وتثير ألمها إلى حد الغثيان.

حاولت استعادة النهر للهروب من ظلال إجابات لم تقدم، لكنها لم تستطع. كانت تلك الأسئلة تشعرها بأنها وحيدة وهي تعيدها إلى لحظات ضعفها وإلى زوجها الذي لا تريد أن تصدق بأنه قتل في الحرب ولم تسع لكي تفتح الصندوق الذي ضم جثمانه. أخبروها أن الجثة كانت متفحمة إلا أنها تعود إليه بالتأكيد برغم خلوها من قرص الموت الذي ينبغي أن يكون في رقبة كل جندي في الحرب. قيل لها إن زملاءه قرروا وشهدوا على وجوده في الموضع الذي قُصف واحترق كل ما فيه.

حاولت إبعاد تصوراتها عن جثة متفحمة شعرت في أعماقها بأنه

كان بمقدورها أن تميّز إن كانت له أو لم تكن. لكنها لم تفعل. حاولت أن تتذكر المدة التي قضياها معاً بالشهور والأيام والساعات. في الماضي كان باستطاعتها تحديد ذلك بسرعة وبدقة لكنها أضاعت كل ذلك. كانت تبكي بمرارة وهي ترى استمرار وصول النعوش بعد انتهاء الحرب وانعدام أية بوادر لعودة الأسرى أو معرفة مصير المفقودين. سألت بصوت مسموع مرة وبصمت مئات المرات: ماذا سيحدث بعدها؟ هل يعودون؟ ولمَ ذهبوا في الأساس؟ ومن أجل أي شيء؟

من يوم إعلان انتهاء الحرب، أضاعت عدد الأيام التي عاشاها مع بعض بل أصبحت تحسن عدّ الأيام والساعات التي عاشا فيها بعيداً عن بعضهما. هي: رباب فوزي معلمة اللغة العربية البالغة الخامسة والثلاثين من العمر الآن زوجة المجند سلام أسامة الغائب في الحرب أو الموت والذي ينبغي أن يكون في الأربعين من العمر.

أخرجها صوت السائق من أفكارها وهو يعلن الوصول إلى «المكان». تدافعت الأمهات والزوجات والآباء والأطفال للنزول من الحافلة. فتحت عينيها. نظرت إلى الساحة الموحلة المحيطة ببناية كونكريتية فقدت ألوانها.

تأملت مئات الناس المندفعين للوصول إلى نوافذ قد يجدون فيها إجابات عن أحبتهم وانتظارات تغذيها شائعات أمل عن قرب وصول وجبات جديدة من الأسرى.

نظرت رباب بقلبها وعينيها. تحركت من كرسيها. كانت آخر المغادرين.

سألت السائق وهي تهم بالنزول: «هل تعود إلى بغداد أم تنتظر؟».

أجابها: «سأعود لأحضر وجبة جديدة من الأهالي».

عادت إلى مقعدها وقالت: «أعدني معك».

بطاقة شخصية

* درست اللغة الإنكليزية والإعلام.
* حصلت على دكتوراه في الإعلام من جامعة بغداد. أطروحتها بعنوان: «صورة عن المرأة في السينما العراقية: دراسة تحليلية للصورة في الفيلم الروائي العراقي من ١٩٤٦ إلى ١٩٩٤).
* عملت في الصحافة الثقافية من عام ١٩٨٨ إلى ١٩٩٧.
* درست في كلية الإعلام بجامعة صنعاء من ١٩٩٧ إلى ٢٠٠٤.
* تعمل حالياً مدرسة في كلية الإعلام بجامعة بغداد.
* لها مجموعات قصصية: «شجرة الأمنيات» (١٩٩٠)، «غبار المدن» (١٩٩٣)، «عطر التفاح» (١٩٩٦)، «اينانا ابنة بابل» (قصة للأطفال ١٩٩٦)، «في الغابة» (١٩٩٩)، «على مسافة غريبة» (١٩٩٩)، «فقدانات» (٢٠٠٤).

قبلة قبل الموت

اسماء محمد مصطفى

إنه يوم ما من العام ألفين وستة.

الوقت فجر.

أستفيق من غيبوبتي اليومية وأنا أتصبب عرقاً ورأسي مصاب بالدوار. أجد رجلاً بحلة مهيبة مستلقياً إلى جانبي.

الكهرباء غائبة كالمعتاد. وضجيج المولدات الكهربائية التي يشغلها الجيران يكاد يفطر جدار الغرفة لا رأسي فقط.

وحده، هذا الرجل انهزمت حبات عرقه أمام شخيره. ثمة صدى في الغرفة المخنوقة بالحر الصيفي الهالك يردد:

ــ شهرزاد.. شهرزاد...

لكنه قد يكون صدى أعماقي التائقة إلى المزيد من الحكايات.

لست أذكر أنني كنت، من قبل، شهرزاد. ولم أعتقد، قط، أن شهرزاد لم تكمل حكايتها. ولم أظن أن لبغداد ليالي أخرى غير الليالي الألف، لكن صياح الديك عند الفجر ألغى كل تصوراتي واعتقاداتي وجعلني أدرك أن الرجل المستلقي إلى جانبي إنما هو شهريار.

لكن كيف أصبحنا نسكن في غرفة قديمة غير غرف القصور، وننام على غير الفراش الناعم؟!

أشعر بالخواء وحاجتي إلى الامتلاء بالحكايات. لذا سأفتش عن حكايات جديدة في بغداد، أقصها على ملكي الذي ربما لم تكفه الليالي الألف ليتعلم الحب، وقد تكون به حاجة إلى ليال جديدة، ليكفّ عن قتل النساء.

سأبدأ رحلتي الآن، قدماً مع الزمن أو عودة إلى الوراء قليلاً، وأجمع حكايات الحب.

* * *

إنه الأربعاء، التاسع عشر من آذار من العام ألفين وثلاثة.

أنا أجلس الآن على أرجوحة معلقة بالقمر في سماء بغداد.

أصغي لأصوات العشاق، بحثاً عن الحكايات.

عند أحد الشبابيك المشرعة في وجه السماء تقف فتاة جميلة. تهمس:

أنا وحبيبي معلقان بأهداب القمر، ننتظر مراسم العرس يوم غد الخميس.

الخميس، عرف عنه بأنه يوم لإقامة حفلات الزفاف. أما اليوم، فقد تضمخت كفي بالحناء التي بدت كطائر صغير بارد دغدغ مشاعري.

أنظر إلى السماء من نافذة غرفتي التي سأودعها غداً، بدمع الفراق. أسأل: أستكون لدي فرصة لأحظى بالعرس الذي حلمت به، وخططتُ له، أم السحب السود ستمطر أحلامي وتغرقها؟!

يأتيني حبيبي مسرعاً، يطلب مني أن نشرع بحياة جديدة في بيتنا الصغير.

ــ لكن أي زفاف نقيمه في هذا اليوم المر؟

ــ ربما المراسم تتغير. بيد أن الزفاف سيتم. ليس أكثر من أن تضعي يدك في يدي، ونمضي معاً باتجاه المستقبل.

* * *

أنصتّ إلى صوت قلبي، وارتديت ثوبي الأبيض، وتناغمت خطواتي مع خطوات عريسي نحو البيت الجديد الذي وجدناه يهتز من شدة القصف.

هذه حكاية غريبة، بطلاها أمل وحسن، العاشقان العراقيان اللذان لم يسمحا للحرب بمصادرة حلمهما في إتمام زفافهما والاستمتاع بإحساس الحب حتى لو جاء الموت بعده بلحظات.

الحب يسعد الناس، وبه يتكاثر الفرح. أما الحرب، فتؤلم وتقتل، وبها يتناسل الحزن.

يأتيني صدى من كل مكان، يقول:

بالرغم من كل الحروب التي مرت بنا، واضعة عند عتبات أبوابنا أكفاناً للأجساد والأحلام معاً، إلا أن الروح العراقية تحلق بتوهج وثقة أمام مرايا الأحلام التي تتناسل باستمرار.

إن أحد أشكال الفرح في المجتمع العراقي يتجسد بالأعراس. وقد اعتادت الشوارع العراقية، قبل الاحتلال، استقبال مواكب الأعراس.

ينزل المحتفلون إلى الشوارع. يرقصون على وقع الموسيقى الشعبية الصاخبة، وعادة ما تتخلل الرقصات الجامحة والدبكات المتوارثة زغاريد النسوة.

كانت مراسم الأعراس تبدأ عصراً أو عند غروب الشمس، وتستمر حتى أوقات متأخرة من الليل، وأحياناً حتى الفجر.

بعض العرسان أقاموا أعراسهم في منازلهم أو حدائقها، والبعض الآخر أقامها في نوادٍ وقاعات عامة مخصصة لحفلات الأعراس.

يصمت الصدى، فأغوص في الزمن أكثر. أصل إلى محطات بعض الأعوام السابقة للاحتلال.

أجد بعض الشباب يتوزعون بين الفضاءات المحيطة بالفنادق بانتظار مواكب الأعراس التي تحط عندها، ليدقوا على دفوفهم ويرقصوا. وقبلهم، أجد في الشوارع بعض الشباب من الباحثين عن الفرح يرقصون في أمكنتهم، إذا ما مر موكب زفاف.

إنه جزء من طقوس المحبة العراقية للحياة بالرغم من ضغط الحروب والحصار.

* * *

العرائس، أجدهن، يظهرن بأبهى حلة، والزينة تعلو وجوههن ورؤوسهن فيمشين أشبه بالحمامات البيض المحلقة في دنيا الأحلام.

سعاد.. فاطمة.. ابتسام.. هناء...

عرائس يبدون كأنهن قطع كريستال تضيء في ليالي الفرح أو أميرات قادمات من القصور المخملية. لكن دوام الحال من المحال، فالأميرة الأسطورية النائمة ليست وحدها من وخزت إصبعها الناعم بمغزل الساحرة الشريرة الباغضة للحب والفرح والخير. إذ يبدو أن في العراق عدداً كبيراً من الأميرات النائمات بانتظار فرسانهن الذين يطبعون على شفاههن قبلات ما قبل الموت.

* * *

وكانت فرح تنتظر قبلتها، لكن عريسها اختفى وراء دخان الحرب القادمة.

* * *

إنه العام ألفان وثلاثة.

وأنا شهرزاد أحلّق في الفضاء الضاجّ بهدير الطائرات وصخب الموت والدمار الذي حطم العروس فرح، وسلبها حلمها الجميل حين أغرق المطر الأسود خطيبها.

بقيت فرح محتفظة بثوبها الأبيض حتى اليوم، ربما، لأن أميرها يزور مخيلتها ويطبع قبلة على جبينها القمحي الشامخ.

* * *

في التاسع من نيسان بالتحديد، يدخل الأميركيون إلى بغداد وأخواتها من المدن العراقية، لكن حالة من الفوضى تعم بفعل انهيار الدولة والسلطة معاً.

العرائس يشعرن بالقلق والخوف من امتداد مخالب الاستلاب إليهن، وكذلك، يخشى العرسان على سلامتهن.

تودع الليالي صخب مراسم الزفاف، وتحتضنه النهارات المليئة بالهواجس. تشكو النوادي الليلية والقاعات العامة المخصصة للأعراس الهجر والنسيان وغدت الأعراس مقتصرة على مراسم بسيطة وضيوف محدودين.

تذهب العروس إلى الصالون، وما إن تهمّ بمغادرته حتى تضع على رأسها شالاً أسود، وتمشي بخطوات عجلى نحو سيارة تنتظرها. فإما أن يقام عرسها في المنزل، وإما أن ينصب لها مجلس عرس تحت الهواء الطلق في الحي الذي تسكنه أو يسكنه عريسها، حيث يغلق الطريق بالحواجز والأحجار الكبيرة، ويقف بعض الشباب من أهل العريس حاملين الأسلحة تحسباً لأي طارئ يغتال الفرح برصاصة غادرة أو عبوة ناسفة، مثلما اغتالت المخاوف فرح الشوارع. فما عاد يمر بها موكب عرس صاخب، أو يرقص على وقع موسيقاه عابرو السبيل.

في كل الأحوال، ينعدم صوت الغناء وضجة الرقص خشية المتطرفين، إنما هناك بضع رصاصات تنطلق إلى السماء احتفاءً بالمناسبة.

* * *

لم تعد النجوم تراقب من بعيد مواكب الأعراس، لم يعد القمر يضيء ثوب العروس، لم يعد نسيم الشوارع الليلي يداعب أجساد المشاركين في موكب الزفاف.

وإذ غاب عن القمر والنجوم والنسيم الليلي منظر المواكب، فإن الشمس وحدها، اليوم، تحتفل مع العرسان. فمن المشاهد التي باتت مألوفة بعد الحرب عام ألفين وثلاثة، أن يمر موكب عرس بشوارع النهار. وقد بدا الموكب الأول الذي سار في الظهيرة غريباً للناس ومفاجئاً لهم، حتى جعل التكرار من هذا المشهد طقساً معروفاً.

وغدا النهار حاضن الزغاريد.

* * *

أمل..... أمل..... أمل.....

يتردد الصدى في رأسي، فأشعر برغبة القيام بزيارة زمنية قصيرة إلى أمل وحسن، لا أعرف أين وصل فرح الحب بهما في هذا الزمن الصعب.

ها إنه يوم ما من مطلع العام ألفين وخمسة. أنا أتعلق بشعاع القمر ثانية، يلقيني على عتبة باب بيتهما الذي كان يهتز يوم العرس بفعل القصف.

أسترق السمع من الشباك المشرع لنور العصر والمزين بتفرعات النبات الأخضر المتسلق إلى أعلى، ومن ثم أسترق النظر.

أرى أمل ترتدي ثوباً فضفاضاً، وتلف رأسها بشال ثم تضع يدها في يد حسن وهما يهمان بمغادرة البيت.

في الشارع تخبر أمل زوجها برغبتها بالمشي بدلاً من ركوب سيارة، فيسيران إلى غايتهما.

أتلصص على بوابة ذاكرتيهما.

حين وضعت أمل خاتم الخطوبة في بنصرها الأيمن، طافت بمخيلتها عشرات الأحلام، ومثلها فعل حسن... كيف يكون البيت الجديد؟

كيف يكون شكل ثوبي والبرقع الأبيضين؟

لو رميت بباقة الورد إلى الحاضرات فمَن من صديقاتي وقريباتي العازبات ستحصل عليها، فيملؤها التفاؤل بأنها ستلحق بقطار الحب والاستقرار؟

وكم طفلاً سيملأ بيتي بالصراخ والضجيج المستلب؟

أول مولود... أهو ولد أم بنت؟ لا أعترض على جنس المولود. المهم أن يكون لدي طفل من حبيبتي.

ستكون في يوم عرسها أجمل من القمر، بل هي في كل وقت أجمل منه، أليس كذلك؟

أأنا قلق من احتمال نشوب حرب، كالحروب السابقة، تسرقني من أحضان حبيبتي، وتلقيني إلى قعر العذاب؟

* * *

أعود معهما من إبحار الذاكرة. أصل معهما أيضاً، إلى حفل الزفاف الذي يقصدان. وحينما ترى أمل العروس المتحمس، تخطفها الذاكرة ثانية، وتلقيها على شواطئ عرسها الذي خلا من المراسم، واختفى عنه صوت الموسيقى، وعلا ضجيج الطائرات والمدافع، كأنه صوت النواقيس التي تنذر بالخطر.

يسألها حسن عندما يجدها تتأمل العروسين المحاطين بالمحتفين:

ــ أأنت نادمة، لأنك لم تحظي بعرس ولو بسيطاً؟

ــ بل أكون نادمة، لو أنني أصررت على إقامة العرس في يوم غير ذلك، لقد كان زفافنا الصامت تحدياً لإرادة القتل. زفافنا ذاك هو ذكرى فريدة تخصنا وحدنا، أنا وأنت..

* * *

بينما يهم الحبيبان بالمغادرة تنطلق سحابة دخان مرعبة من فوهة بركانية، تقذف الريح السوداء العروسين وضيوف الحفل البسيط هنا وهناك.

يكاد الدخان يخنق أنفاس أمل. لا تشعر بشيء، حتى تفتح عينيها اللوزيتين وهي راقدة على سرير في مستشفى.

ــ سلامات.

تلك أول كلمة تتناهى إلى سمعها..

تحدق في وجه حسن، ووجوه أمها وأبيها وأخواتها وأهل زوجها الذين يحيطون بها، وسرعان ما تسأل بصوت مرتعش:

ــ ماذا عن الطفل؟

ــ الجنين بخير..

ــ هو.. لم يمت؟!

ــ كلا. ما زال ينبض في أعماقك. هو بسبع أرواح، مثلي. لم يصبني الانفجار سوى ببضع كدمات في قدمي وذراعي من جراء السقوط على الأرض.

* * *

أرافق أمل في رحلتها مع الحمل. ومنذ شهورها الأولى، بعد أن وقع حادث انفجار عبوة ناسفة على مقربة من عرس قريبتها التي تلطخ ثوبها الأبيض برماد الموت، ولم تحظ بقبلة الأمير.

تشعر أمل بالتعب، إذ يثقل جسمها يوماً بعد آخر، مثلما تثقل ذاكرتها بضجيج القصف، يوم عرسها، وضجيج الانفجار يوم عرس قريبتها.

ترى خيال العروس القتيلة يراقص خيال الأمير الجميل في الفضاء اللامتناهي.

تضع أمل يدها على بطنها المنتفخ وتشعر بالقلق والخوف، وحين تحس بأعراض الوضع تطلق صرخة تصيب القمر الجميل بالهلع.

* * *

لا تزال أمل تغط في غيبوبتها على سرير في مستشفى الولادة، تخرج من أعماقها النائمة عشرات الكلمات المبعثرة كأنها تعرض للمتحلقين حولها من الأهل والأحبة لعبة الكلمات المتقاطعة.

ــ دخان.. ورد.. ثوب أبيض.. رصاصة.. طفل.. انفجار..

حسن.. بغداد.. جثث.. حرب... حرب... حرب...

تفتح أمل عينيها بتثاقل وتسأل عن مصير الطفل. يقولون لها إنه في صالة العناية بالأطفال حديثي الولادة.

* * *

بمحبة وشوق، أخذت أمل طفلتها بين ذراعيها، مدركة سر تلك النظرات المشوبة بالحزن التي أطلقتها عيون الأهل حولها.

عندئذ تستقر دمعة حسن المتوارية وراء العين على خد أمل الشاحب.

الطفلة مشلولة. هذه هي الصدمة التي أسكتت أمل عن الكلام ومعانقة الحلم.

لن تحظى بثوب أبيض لماع. ستكون عاجزة عن الرقص كما الأميرة النائمة رقصت بعدما قبلها الأمير قبلة الحياة الأولى.

ستكون ابنتي أميرة نائمة على مدى العصور، ولن يصل الأمير إليها، إلا بمعجزة إلهية.

تنتظر أمل وحسن وصول المعجزة إلى سرير ابنتهما النائمة.

ثمة خيط رفيع جداً من الأمل يظل في قلب الأم. «احتمال أن تغادر هذه الحياة خلال سنوات قليلة قادمة».

تبكي أمل، لأنها لن تكون يوماً ما تلك الأم التي تطلق الدمع حزناً على فراق ابنتها وهي تزف لعريسها.

ويبكي حسن، لأنه لن يرى ابنته تمشي إلى جانبه، ولو في رفقة قصيرة إلى المقهى الذي اعتاد الذهاب إليه لرؤية أصدقائه كلما تسنى له ذلك.

وأبكي أنا شهرزاد، حين أرى عروسي الأمس القريب يشيخان في أعماقهما سريعاً لكنهما يظهران مبتسمين مبتهجين بالحياة أمام الطفلة الجميلة التي تنمو بإرادتهما يوماً بعد آخر.

عندما أشكو القمر حال تلك الطفلة، ألمح في وجهه خيال ثوب صنعه بنفسه من خيوطه الفضية.

يقول لي:

ــ سيكون رداء عرس تلك الطفلة وديعة عندي حتى يأذن القدر.

أشعر بالامتنان للقمر الذي لا يملك الجمال فقط بل ينبض بالحب أيضاً..

أتراه ولداً محباً أم اكتسب الحب من مراقبة العشاق في زمن الحرب يتسامرون ويتهامسون في سهوله وتحت أضوائه؟

* * *

لبعض الوقت أودع أمل وحسن والطفلة الشاردة في أحضان زمن غادر تشبع برائحة الأدخنة والقنابل.

قبل أن أواصل مراسم الوداع في مخيلتي، وقبل أن أمسك بشعاع من القمر كيما أعود إلى ملكي، أسأل نفسي:

كم طفلاً في العراق ولد معوقاً، مشوهاً؟ كم طفلة عراقية لن ترتدي ثوب العرس السحري، ولن يأتيها أمير الحب، ولن ترقص تحت ضوء القمر؟

وكم من امرأة رسمت على طريق الفرح حلمها بأن تكون أماً صالحة وحنوناً، وتخطو بأطفالها إلى المستقبل بخطى مدروسة وسليمة اصطدمت بواقع مرير ما كانت تحسب له حساباً أو يخطر لها في البال؟

وكم من رجل قال لنفسه وهو ينقل خاتم الرباط الأبدي من البنصر الأيمن إلى الأيسر إنه امتلك الدنيا كلها، وغداً يكون له أطفال يلعب معهم. فإذا بالغد أشبه بطائر اللقلق يجلب بمنقاره طفلاً من أفق آخر بعيد، لكن الطفل لم يولد عارياً، بل متشحاً برداء المرض أو العجز اللعين؟

أسئلتي كثيرة والأجوبة بعيدة عني. وحدها صور الأطفال، ثمار الأعراس اللذيذة، تتحلق حول رأسي معلنة الوجهين المؤلمين للحياة: الحب والحرب، إرادة الخير والسلام وإرادة الشر والعنف والقتل.

ما ذنب الملاك الصغير حين يكون ضحية لحروب الشياطين؟

ما ذنب أمرأة ورجل، عاشقين عانقا حلم الفرح ذات ليلة صاخبة بالموسيقى والدبكات أو في صباح مرتعد، أو ظهيرة قلقة، لتخرج من رحم الحلم ثمرة يابسة، لأن الحرب تمنع الغيث عن النبت الطيب، ولا تسمح لمواكب الحب أن تحصل على حصة كاملة من الفرح؟

* * *

في زمن كهذا، الذي يثقل علينا بغيمات المطر الأسود والوجع الأحلك، ربما لم يعد ثمة متسع للفرح الأعمق. حتى لو تسنى لي أن أتصور الفرح مخلوقاً من لحم ودم، لكان مجرد جثة مقطوعة الرأس مرمية على قارعة الطريق.

لا أعرف أين سمعت هذا الكلام الباكي المبكي. لكنني أعرف أن الذي يعشق الحياة يستمر، كاللغة الحية، ليتجاوز آلامه وهمومه، ويبتكر أشكالاً للبهجة، مؤمناً بأن للحزن وقته وطقوسه، وللفرح وقته وطقوسه أيضاً.

وإذا ضاعت على بعض الفتيات فرصة ارتداء الثوب الأبيض بفعل الحروب المتتالية والعواصف القاسية، فإن ثمة فساتين بيضاء تنتظر أميرات الفرح المؤجل، وثمة قبلات ستطبع على الشفاه، لينبلج ضوء آخر يحتفي بالحياة.

هذا شيء مما في جعبتي من حكايات هذا الزمن العجيب، أعود بها من رحلتي إلى شهريار أجده يواصل النوم بالرغم من استمرار انقطاع التيار الكهربائي.

ارتدي ثوباً أبيض مرصعاً بالنجوم الفضية، واضعة على رأسي شالاً أبيض لماعاً، وأسأل نفسي: كيف يكون رد فعل شهريار عندما يجد عندي المزيد من الحكايات. أطبع قبلة على شفتيه.

انهض يا مولاي...

بلغني أيها الملك السعيد ذو الرأي الرشيد أن...

بطاقة شخصية

* من مواليد بغداد ١٩٧٠.
* خريجة كلية الإعلام من جامعة بغداد في عام ١٩٩١.
* أصدرت مجموعة قصصية «نحو الحلم» في عام ١٩٩٩.
* تعمل في الصحافة من ١٩٨٨.
* نالت جائزة أفضل تحقيق صحافي في العراق عام ١٩٩٨.
* عضو في اتحاد الأدباء والكتاب العراقيين.

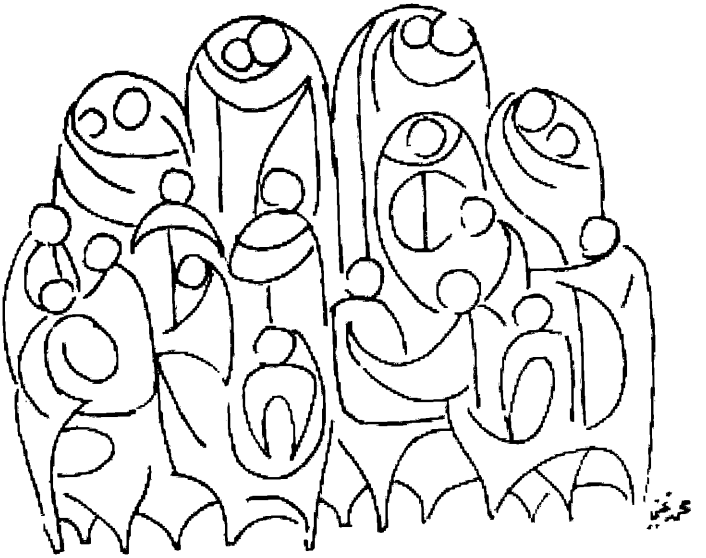

رحلة نحو المجهول

تيلي أمين

قصتي مع العنف تعود إلى عام ١٩٦١، وهي لا تفصح إلا عن فصل من تراجيديا العراق. بدأت عندما قصفت الطائرات قريتنا خريف ذلك العام. شاءت الصدفة أن أشهد منظر الدم داخل بيت لطاعة الله لجأنا إليه نحتمي به لكن القصف أصاب امرأتين داخله. بعد أيام وإثر معركة دامية، شاهدت مع أخي فيصل شرطياً مقتولاً تحت شجرة حبة خضراء في أطراف قريتنا. كان قد ربط صدغه بمنديله الذي اخترقته الرصاصة القاتلة. بعد أيام سمعت صوت إطلاق نار مجدداً، قيل إن مجموعة من الرجال أعدموا خارج القرية. منذ ذلك الحين وأنا أتعايش عنوةً مع العنف الذي أخذ يتسع وتتسع معه دائرة الدم المباح. الرحلة التي سأتحدث عنها تبدأ ليلة ٣١/٣٠ آذار/مارس من عام ١٩٩١ مع ما يعرف بالهجرة المليونية لشعب كردستان العراق في صراع للبقاء قيد الحياة.

في تلك الليلة، كنت وعائلتي بانتظار أية فرصة للخروج من دارنا في دهوك من شدة القصف وتواصله. كنا نسمع زمجرة الدبابات ونرى إطلاق القذائف منها على البلدة. عند الساعة السابعة صباحاً، هدأ القصف المدفعي والصاروخي والجوي ولم نعد نسمع إلا لعلعة الرصاص. أيقنّا أنها ساعة الخروج لأن توقف القصف قد يعني بدء الهجوم البري على المدينة.

أسرعت بسيارتي وأطفالي الأربعة وأمهم وسرت بها وبأقصى ما أستطيع بينما كان المهاجمون المشاة يرشقوننا بالنار إلى أن عبرنا مضيق دهوك وأخذ الجبل يفصلنا عن النيران المباشرة. في الطريق كانت الحركة بطيئة لاكتظاظ الشارع بالنازحين، أشبه بدبيب نمل في اكتظاظه وبطئه. كان الجميع وحتى الطفل يحمل متاعاً، بطانية على الأقل أو بعض الزاد والمؤن. كانت السماء ممطرة والبقاء في العراء مخاطرة كبيرة، لا سيما أن القرى مهدمة والمزارع محروقة، وحتى العيون ومصادر المياه مسدودة الأفواه بالخرسانة والآبار والكهوف منسوفة. كانت الحياة كلها في المناطق الريفية كأنها في سبات ونادراً ما يجد طائر أو حيوان بري طريقه إليها.

افترش الكثيرون جنبات الطريق، منهم من يداوي مريضاً أو جريحاً، ومنهم من أعياه حمل أطفاله، فيما سيدة تضع مولوداً. بدأ القصف المدفعي يلاحقنا، وصراخ الأطفال والرضع يتعالى من الثالوث المرعب: الجوع والخوف والبرد. لكن الخوف كان الهاجس الأكبر.

بتنا ليلتنا الأولى في بيتنا في (سوارة توكا) أو بالأصح قسطاً من الليل، فالخوف من القصف ومن الاعتقال يطاردنا. أيقظنا الأطفال

وسلكنا الطريق باتجاه الجبال الحدودية. كان علينا أن ننجو بأنفسنا وأطفالنا وندع الوطن وممتلكاتنا للمهاجمين.

لم يكن أحد يعرف أين تنتهي به هذه الرحلة. ما كان يعرفه الكل هو وجوب الابتعاد والتحصن في الجبال واتقاء الشر العاصف بالبشر والأرض. وصلنا مضيق (بالندة). وقفنا عند مفترق طريق: فرع إلى الحدود الإيرانية والآخر إلى الحدود التركية. كان أخي رشيد يتقدمنا بسيارته، فوقف عند المفرق وسألني وهو يضحك حتى في وسط المعاناة: «هذه المرة إلى أين؟ تركيا أم إيران؟». كنت قبل عشر سنوات أنا وأخي رشيد وأطفالي اراس وريناس وأمهما في طريقنا هربا إلى إيران. مررنا بهذه المناطق عينها. أخي فيصل كان قد سبقنا إليها. كان همي أن نصل بسرعة إلى منطقة محصنة وأن نتجنب الوقوع في الاعتقال. كانت الحدود التركية أقرب، فأشرت إلى الطريق الشمالي. تابعنا السير وكان رشيد يعتقد أننا نمضي نحو المجهول وبالتالي من واجبه أن يكون في المقدمة. هكذا عرفته دائماً.

وأنا أنظر إلى أطفالي وأطفال فيصل وأفراد أسرتي الآخرين، تذكرت صورة مؤلمة لعائلات مثلنا كانت قبل ثلاثة أعوام تقاد إلى الموت لأنها كانت تحمل هوية، ونحن نحمل الهوية ذاتها. كان الغائب عنا شقيقي علي الذي لم نكن نعرف عنه شيئاً منذ أن اختفى من كلية الهندسة بجامعة الموصل وقيل إنه التحق بقوات البيشمركة في محافظة السليمانية. كانت معارك جبهة كركوك عنيفة وشديدة وأفراد عائلتي الآخرون وأفراد أسر أعمامي كلهم بأمان حتى تلك اللحظة. قلت مع نفسي: «إلى الجحيم وليس إلى سجن أبو غريب يا رشيد!». وتراءت لي صورة السجن الكئيبة

عندما كنت أزوره لألتقي بأخي رشيد وابن عمي سالم اللذين اعتقلا عام ١٩٧٦ وهما طالبان في المدرسة وتعرضا للتعذيب في دهوك وكركوك. في تلك السنة، كنت أزورهما في السجن وكنا نتلقى شتائم وسباباً.

مثلما هي عادتنا نحن الكرد، كلما احتضنتنا الجبال أكثر شعرنا بأمان أكبر. وصلنا قرية (جم جي)، نصبنا الخيم واعدت لنا النساء عشاء من دجاجات أمي التي أخذناها معنا من (سوارة توكا). نمنا تلك الليلة بشيء من الهدوء إلى جانب آلاف العائلات. في الصباح، بدأنا السير ونحن لا نعلم وجهتنا بالتحديد. كل ما كنا نعلمه هو أنه يتوجب السير شمالاً فالمعلومات تشير إلى أن المهاجمين يقتربون وأن الحدود التركية على مسافة أربع ساعات. كنا نعتقد أننا سنعثر عندها على الأمان ومتطلبات الحياة. ارتكبنا خطأً كبيراً بتخلينا عن خيمنا المريحة وتركناها مع كثير من المؤن داخل السيارات. تبعنا الجموع في ممر جبلي وحسبنا أن رحلتنا لن تستغرق أكثر من يومين. كان هناك مرضى وحوامل وعجزة ومعوقون وأطفال يسيرون سير السلاحف وكان يتحتم السير وراءهم. عرفنا أن المسافة لا تناسب قياسات هذه المسيرة البطيئة، فعاد الأولاد إلى مكان سياراتنا بحثاً عن المؤن والخيم لكن كل شيء كان قد اختفى!

عاندتنا الطبيعة لتضاعف معاناة النازحين. فقد أبت السماء إلا أن تمطر وبغزارة وكان الليل شديد البرودة. خيمتنا لم تكن تتجاوز مساحتها ثمانية أو عشرة أمتار وكانت بالكاد تصلح للسفرات الصيفية. كنا عشرين فرداً، بمن فيهم أبي الذي تجاوز الستين من عمره والرضيع روز الذي لم يكن قد تجاوز الأسبوعين. لم يكن

الآخرون بحال أفضل منا. لبعضهم خيمة وللبعض الآخر قطع نايلون أو كارتون والغالبية تحتمي من السماء بالسماء. كان مشهد الأمهات مؤلماً في اشتداد البرد والمطر، وهن يحملن أطفالهن ويطفن على الخيم وقطع النايلون للبحث عن مكان لإرضاع فلذات أكبادهن. كانت كل الخيم حاشدة بأهلها، إن لم يكن الدخول إليها بالتناوب. كم من مرة توسلت أم لقبول ضيافة الرضيع بينما كانت تنتظر في الخارج للاطمئنان على فلذة كبدها ولتكن متأهبة للإرضاع كلما سمعت بكاء الطفل. هذا لا يعني أن جميع الأطفال الرضع وجدوا لهم مأوى فقد قضى العديد الليل والنهار في العراء أو في حفرة أو تحت جذع شجرة أو بجوار صخرة أو في جوفها. مع قساوة البرد، اشتدّ الجوع ونفدت المؤن وغدا الموت الزائر حاضراً في كل مكان. لم نكن نتصور أن تطول رحلة العذاب.

بعد أربعة أيام وصل الحشد إلى الحدود التركية عند قرية (شيفا ره زا). خال الجميع أن الأمور قد تهون. لكن خاب ظننا حين أبلغتنا القوات الحدودية أن الأوامر تمنع الدخول إلى القرى وعلينا التوجه غربا باتجاه مدينة (جه لي). كنت أعرف هذه المناطق وكان يمكنني أن أعبر بعائلتي من احد المنافذ إلى داخل تركيا، لكن الوقت لم يسمح لنا بالتفكير. أسلمنا زمامنا إلى القدر وتبعنا الحشد لنلقي المصير نفسه. سألنا عن (جه لى) فقالوا إنها ليست بعيدة. لم يكونوا يخدعوننا، لكن قياسات هذا الحشد المرهق والجائع والذي يتبع خطوات الأطفال والمرضى والحوامل مختلفة.

لم تكن عائلتنا تختلف كثيراً عن غيرها. كان كل منا يحمل شيئاً ما: أبي يحمل فأساً وجهاز راديو يأبى التخلي عنه، أما افراز الذي

ولد في إيران قبل ذلك التاريخ بثماني سنوات، فكان يحمل دجاجات أمي المتبقية في حقيبة شدّها على ظهره. وحملت والدتي وأختي فرمان متاعاً أثقل كاهليهما. سلوى، زوجة أخي فيصل، كانت تحمل رضيعها وما يحتاج إليه من علب الحليب وأختي نجيبة كانت تحمل شه فين بالمناوبة مع أختي بيمان. أما فيصل فكان يحمل حقائب ضخمة تحوي ملابس أطفاله وتعجبت كيف أنه قادر على حملها. كان علينا أن نتبع خطوات شيان (ثلاث سنوات) وريبين (ست سنوات). في الأيام الأولى، كان الشباب والرجال يحملون آباءهم وأمهاتهم المرضى أو المسنين على ظهورهم، وكان الزوج يحمل زوجته الحامل. نادراً ما كنت أجد مسنا أو معوقاً وحيداً على قارعة الطريق. لكن بمرور الوقت وتفشي الأمراض، تخلى العديد من النازحين عن القيم المعتادة وأصبح البعض أمام معضلة: إما البقاء إلى جانب العاجز أو الاستمرار في الرحلة لإنقاذ أطفاله. لم يكن أحد يأبه بما حوله. لكن الحقيقة أن المعاناة كبيرة جداً لعجزنا عن مساعدة من هم بحاجة إليها. اعتدنا الموت. وأصبح منظر العائلات التي تتوقف لبرهة لدفن موتاها معهوداً. والمشهد الأكثر فجيعةً كان لحيوانات برية تنتشل الجثث من قبورها الضحلة ليلاً.

لدى الوصول إلى الحدود، تفاقمت مشكلة الجوع وانخفضت درجات الحرارة وتلاشى خطر القصف لتبرز مشكلة الألغام التي أخذت تنفجر تحت الأقدام وتسقط الضحايا وكأن الأرض تنبت ألغاماً. كانت تنفجر عندما تمشي وتنفجر عندما تجلس وعندما تتمدد وعندما توقد ناراً، وتنفجر وأنت تحتطب أو تقترب من عين ماء أو جدول وتنفجر عندما تتوضأ وحتى عندما يتدحرج حجر من تحت قدمك.

في اليوم العاشر من هذه الرحلة المرعبة وبعد صعود قمة جبل ينطح السماء، شعرت بوعكة. لم يكن الوقت يسمح بالمرض. الحقيبة التي أحملها كانت ترهقني وكانت تضم وثائق رسمية كما تحوي بعض الصور العائلية وشهادات الدراسة. دحرجتها لتسقط في واد سحيق. وقلت لنفسي: ما جدوى التشبث بوثائق وجنسية دولة تطاردك حتى عبر هذه الجبال؟ أصبحت أكثر قدرة على حمل ريبين الذي كان يشكو من السير وسط الجليد. كنت أساوم ريبين على المسافة. أطلب منه السير لعشرين متراً على أن أحمله لمسافة قادمة. إنها المعاناة نفسها، تعود وتتكرر لكن ليس من تلقاء نفسها.

عاد المشهد يرسم صورته في مخيلتي، في يوم صادف تاريخه ٢٠ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨١، كنت مع شقيقي رشيد وطفلي آراس وريناس وأمهما التي أبت أن أخوض أية تجربة قاسية دون أن تشاركني فيها، كنا على قمة جبل (دالانبه ر) على المثلث الحدودي . كانت قد مضت علينا اثنتا عشرة ساعة منذ أن تسلقنا هذا الجبل الأسطوري، وكانت أمامنا ست ساعات أخرى للهبوط منه. كان المهر الذي يقل ولديّ قد أرهقته المسيرة وأبى إتمام إحسانه في آخر أيام تلك الرحلة. كانت عيناه تتوسل أن ندعه لحاله فتركنا الحيوان المسكين عند قبر (زاهر) وتابعنا مسيرتنا. حمل رشيد الأمتعة، أما آراس فقد حملته أمه على ظهرها وكان عليّ أن أتكفل بريناس. تحتم علينا الهبوط قبل أن تسرع الغيوم إلى القمة وتحبس عنا الأوكسجين بفعل العواصف الهائجة والتي تهب من غير سابق إنذار. كانت القمة جرداء لا نبت فيها ولا شجر والثلوج تغطيها على مدار السنة. وكان ريناس يعوق حركتنا ويطلب طعاماً لا يتوفر إلا في فنادق خمس نجوم، فيما كان آراس

يلعن الدنيا وما فيها. كنت أشير إلى موقع قريب وأقول لريناس: «إذا وصلته، أحملك إلى نقطة أبعد». لم يكن يقتنع. يقول «تحملني في الأول ثم أمضي أنا». وكان محقاً. حلّ المساء وظهرت المصابيح الكهربائية وأضوية السيارات في سهل (ميركفر). أفرحت المصابيح الطفلين فقد أدركا أن أمامهما عالماً يشهد الحياة بعد أن سارا لأسابيع في مناطق معزولة ومنعزلة. تشجّع الصغيران ومضينا بهما حتى هبطنا الجبل المهيب. وصلنا قرية (كه جه له) الإيرانية التي استضافنا أهلها وأكرمونا، ونام الطفلان في فراش وتحت سقف لأول مرة منذ واحد وعشرين يوماً.

نسير الآن على الخط الحدودي نفسه، مع فارق أن الاتجاه يمضي بنا نحو الغرب هذه المرة وأنني كبرت عشر سنوات ولم أعد قادراً على تحمل المشقة ذاتها.

بلغنا قرية (سه رى سيفى) التركية والثلج ينهمر بغزارة. نصبنا خيمتنا التي تشققت وحاصرتنا الثلوج داخلها. في الأيام التي سبقت كنا نجمع الحطب ونشعل النار ونحتمي به، غير أن هذه المنطقة جرداء لشدة برودتها. افتقدنا النار والطعام ونفد زيت الفانوس. أصابني بعض اليأس وشعرت بثقل المرض، وبات وضع الرضيع روز ميئوساً منه متوقعين موته بين حين وآخر. الحقيقة أننا كنا نتوقع الموت للجميع. قضينا ليلة في حالة لا أتذكرها، كأنها الغيبوبة.

في الصباح عاد إليّ وعيي. كان الثلج لا يزال ينهمر وكأننا داخل كهف محفور في جبل من الثلج، نرتجف من البرد والجوع ولا نطمع إلا برحمة الله. أسرع إخواني إلى سياج أحد البساتين في

القرية واقتلعوا جزءاً منه وأشعلوه ناراً. تحلق الأطفال حوله يعانقون لهيبه. وأغمض والدي، ولأول مرة في حياته، عينه عن «خطيئة» أشقائي. فللضرورة أحكام.

عند الظهر تسلل رشيد وماجد إلى قرية بأمل الحصول على طعام، فالأطفال لم يتناولوا شيئاً منذ الليلة السابقة غير حساء خفيف كانت قد أعدته والدتي من حبات أرز التقطتها هي وأختي الصغرى سهيلة في الطريق وتخلفتا عنا لساعات. النزول إلى القرى التركية كان مخاطرة. شعرنا بقلق كبير وساورتنا أفكار مزعجة. بعد العشاء رأيناهما قادمين وكبرت الفرحة عندما شاهدناهما يحملان أرغفة من خبز التنور وكمية من الأرز وكيس تفاح وقنينة تحوي نصف لتر من النفط الأبيض كنا بأمس الحاجة إليه لإضاءة الفانوس وترقب وضع الرضيع.

في الصباح أرتنا الشمس وجهها الخجول ولم تقدر على تدفئتنا. جاءنا رجل من قرية تقع شمالاً وهو يقود بغلين كان رشيد قد استأجرهما أمس. نظرت إلى الرجل وقلت للأولاد مازحاً: إنه شقيق (شفان)، فضحكوا كثيراً. كان يشبهه تماماً و(شفان به روه ر) فنان كردستاني رائع جداً. كان علينا تصريف همومنا بين الحين والآخر ما دامت المعاناة تأبى أن تنصرف. امتطى الأطفال البغلين. وكانت المسافة المتبقية قصيرة لكنها مليئة بالألغام الأرضية والمتدلية من أغصان الأشجار كأنها عناقيد الشر.

عصر يوم ١٢ نيسان/أبريل وصلنا مخيم اللاجئين جنوب مدينة (جه لى). كنا نتوقع لجنة استقبال أو ما شابه وأن يتم تزويدنا بالخيم والمؤن والأدوية الضرورية. في الواقع، كانت الحكومة التركية

قد بذلت جهداً، لكن حجم النازحين جعلها غير قادرة على تنظيم أمورهم أو تأمين احتياجاتهم. وتمّ جمع تبرعات لكنها نهبت، فالقيم الإنسانية تتراجع أمام الجوع.

كنا في أسوأ حال. سلبنا التعب والبرد قدرتنا على الجري وراء احتياجاتنا. بقينا نطعم الأطفال حساءً من غير ملح أو زيت، بعد أن عاد (افراز) بملعقة دار بها على أكثر من عشرين عائلة، طالباً للزيت، عاد بها فارغة. ربما كانت حالة تلك العائلات أسوأ منّا. في اليوم الثالث، أنقذنا ماجد حين عاد ومعه خيمة. وفي اليوم التالي، تعقب الأولاد الطائرات وحصلوا على بعض الأغذية وجبن فرنسي. كسر رشيد الطوق ونجح في الوصول إلى المخبز وشراء قطع من الصمون. أنزلت طائرات شحن إغاثة آلاف الأطنان من المعلبات والخيم وقطع النايلون وقناني المياه والملابس والأغطية والمواد الغذائية.

بذل أهالي (جه لى) مشقة كبيرة في إيصال التبرعات وتشغيل الأفران ودفن الموتى إذ بدأت الأمراض تتفشى بشكل مرعب. كان النازحون ينقلون موتاهم إلى مساجد القرية ليتكفل أهلها بتجهيزهم ودفنهم. وازدادت الوفيات لا سيما بين الأطفال والمسنين، فقد تلوث جدول الماء الذي كان يغذي المخيم بسبب استخدامه من أكثر من نصف مليون نازح ولكل الأغراض. أعتقد أن ما أبقى أطفالنا معافين هو إصرار أخواتي على إحضار الماء من النبع عند الجبل. كانت أختي نجيبة أكثر نشاطاً وتجلب لنا صناديق المعلبات وعبوات من الحلويات أيضاً. والدي كان يتجنب المعلبات لاعتقاداته الدينية ويعتمد على الحلويات التي يأكل منها بكثرة. كان نشطاً يستيقظ في كل صباح مبكراً، قاصداً الجبل ويأتينا

بالحطب. في الحقيقة كان مولعاً بأمرين: التعاطف مع الناس وإيقاد النار، يجمع الأطفال ويروي لهم القصص فيستلقون على ظهورهم من شدة الضحك وكان يضحك معهم. رجوته التقليل من الحلويات، خشية على صحته، فأجابني: «ولماذا القلق؟ لا تخف علي. في شبابي راهنت صديقاً على أكل كمية من التمر وربحت الرهان». كان متفائلاً وواثقاً من نفسه، رحمه الله.

ذات مساء، وجدت الطفلين افراز وريبين يركضان بقوة عائدين إلى الخيمة، فظننت أن حيواناً يطاردهما. كان افراز يضحك ويفرك يديه ويتمايل من شدة الضحك. أما ريبين فقد ارتسمت على وجهه ابتسامة صفراء. بعد برهة، سيطر افراز على نفسه وحدثنا عمّا جرى. قال إن ريبين حمل شيئاً لم يعرفه لغماً. حذره إفراز صارخاً به أن يلقيه في الوادي. ولما رميا اللغم لم يشعرا بالأمان فهرولا نحو الخيمة يسابقان الريح.

لم أذهب إلى المدينة بسبب ما كنت أسمعه من تصرفات غير لائقة وإهانات بحق اللاجئين. مرة واحدة، اضطررت للذهاب إليها لمعالجة سن ريبين. كان يرتجف من الألم. على مشارف القرية، شاهدت الأطفال يغدون ويروحون، فعرفت أنه اليوم الأول من عيد الفطر وأن العيادة قد تكون مقفلة. جلست لإلهاء ريبين بالنظر إلى المدينة وتبعتنا والدتي وجلست معنا. قال ريبين: «كم هم سعداء يا أبي، كلهم يملكون منازل». أجابته والدتي «وكان لك منزل يا بني». وبكت بحرقة وحسرة.

كان الناس يتقاتلون للاستحواذ على المؤن التي تسقطها الطائرات. بعد أسبوع، حصلت على صفيحة وبعض الصابون. ففكرت بأخذ

ريبين وإفراز إلى الجدول للاستحمام. كنا قد وضعنا ملابسنا بالقرب من الموقد. أتت الطائرات وأسقطت صناديق المؤن واقتربت إحدى المظلات منا بشكل مثير لتشكل خطراً محدقاً. سحبت الطفلين وهربت بهما وهما عاريان وأنا ألتف بمنشفة. سقطت الشحنة التي تقدر بالأطنان على موقد النار. تجمع الناس واختفت المؤن واختفت ملابسنا.

بعد شهرين عدنا إلى منازلنا ووجدت أن الخيمة التي كنت أسكنها في (جه لى) كانت تحوي لوازم بيتية أكثر مما يحتويه منزلي الذي كان قد نهب بالكامل واقتلعت أبوابه ونوافذه. كانت هذه المرة الرابعة يُنهب بها بيتي لكني قلت في نفسي إني أبقى أسعد حظاً من جيراني الذين نُسفت دورهم. أما مسلسل العنف فما زال جارياً في العراق وان بأشكال مختلفة.

بطاقة شخصية

* ولد في قرية (كوره مارك)/ ناحية سرسنك/ محافظة دهوك عام ١٩٥٢.

* تخرج من كلية القانون والسياسة في جامعة بغداد عام ١٩٧٥.

* مارس المحاماة حتى عام ١٩٩١ وشغل بعد ذلك وظائف إدارية في حكومة إقليم كردستان.

* حصل على شهادة في مجال شرعة حقوق الإنسان من جامعة (موناش) في مدينة ملبورن ـ أستراليا.

* كان عضواً في هيئة تحرير مجلة «المثقف الكردي» ومجلة «الكاتب الكردي» وعمل محرراً في مجلة «متين» وفي تلفزيون «خبات».

* انتخب رئيساً لفرع دهوك لاتحاد الأدباء الكرد لدورتين متتاليتين. وهو عضو في الهيئة الإدارية لاتحاد الأدباء الكرد وعضو في المجلس المركزي للاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق ممثلاً عن فرع دهوك.

* له عدد من البحوث والدراسات باللغتين الكردية والعربية، وديوان شعري باللغة الكردية.

* نشر عشرات المقالات الادبية والصحافية في الصحف والمجلات العراقية وعلى المواقع الإلكترونية.

* يعمل حالياً مديراً عاماً في وزارة حقوق الإنسان في حكومة إقليم كردستان.

ملثّم ومقبرة وحلم كبير

حسن العاني

(ينبلجُ فجر جديد. ليلة أخرى مضت. أتحسس أقرب خلايا الروح التي ما زالت تنبض بالحياة. أتيقنُ بما لا يقبلُ الشك بأن زوار الموت ضمن الوجبة المسائية وهبوني يوماً إضافياً للبقاء.

هنا، في هذا البلد الوحيد من العالم الذي يختنقُ أطفاله برائحة النفط، لدينا كذلك وجبة نهارية للموت، توزيع متقن للمهمات. والعراقي ــ طفل البترول المدلل ــ إنسانٌ محكوم بزمن لا يحدده عزرائيل ولا القدر ولا الأجل، وإنما موقعه على إنترنيت النهاية، وتسلسله في قائمة التصفيات. وهل هو من نصيب المساء أو الصباح، ولو انصرم الليل بالخير والعافية وتلمسَ أقرب خلية وحمد الله وشكره لأنه ما زال يستنشق الهواء المشبع بالبارود، فعليه أن لا

يبتسم للدنيا بل ينتظر طلوع الشمس وأوقات الضحى والظهر والظهيرة وصلاة العصر والعشاء. فما يدري، وأنى له أن يدري، متى يأتي الزائر الغريب، بأية رصاصة أو عبوة أو مفخخة، وبأي لسان أو وجه أو ثوب من الأثواب يلقاه. فهذا الكائن الجهنمي، المعلوم المجهول الظاهر الخفي، وحده من يقرر... وحده من يحتفظ بخيوط اللعبة المقيتة... و.. وحده سيد الموت!).

أخلاقياً يجب تصويب الذهن بأن هذه المادة بين قوسين ليست مقدمة لهذه الشهادة التي تقترب من حمام الدم العراقي الذي لم يفقد طراوته، بل هي مقطع مجتزأ من مقالة صحافية نشرتُها في وقت سابق يعود تاريخ كتابتها إلى ليلة الخميس ٣٠ آذار/مارس ٢٠٠٦ وكانت تحت عنوان «مرثية لا تليق بأطوار بهجت».

المناسبة الصالحة للذكر هي أن ليلة الخميس، الثلاثين من مارس، صادفت أربعينية صديقتي الراحلة، أطوار الحلوة كما كنت أدعوها. ولكن ما لا يصح ذكره أو الاعتراف به، هو أنني القاتل!! هل سمع أحدكم بهذه المعلومة المفزعة؟! أبداً... أنا وحدي من تجرأ على مواجهة الحقيقة، وفي لغة القانون يقولون: الاعتراف سيد الأدلة.

لن أُقدم الآن ــ على الأقل ــ مزيداً من التفاصيل إلا إذا لاحقني الإثم الذي يتلوى ضميري تحت وطأته. إن ما يشغلني هذه اللحظة تحديداً هو استحضار ذاكرة تمتد في الزمن القصي ستة عقود وثلاث سنوات. لا بأس في تدوين عمري على وفق شهادة الميلاد الرسمية، لا لشيء إلا لكي أُؤكد أن ذاكرتي، التي عاصرتْ الملكية وتعاقُب العهود الجمهورية، لا تمتلك وليس في خزينها الهائل

حادثٌ واحد يشير إلى أن الموت ــ عاري الوجه ــ الذي يتجول متبختراً في الشارع العراقي ويقبض الأرواح قبضاً عشوائياً هو من دون جذر أو أصل أو فرع ينتمي إلى نخلة الرافدين، وأنه قبل ذلك وبعده يتخفى وراء لثام ولا يظهر إلا عينيه حياءً من فعلته. لا.. لا.. لا.. هذا وهم، فما بين الحياء وبين القاتل الملثم فاصلة أربعة آلاف سنة ضوئية.

كنا منتصف أيلول/سبتمبر ٢٠٠٥ ــ أعني أنا وزوجتي ــ عائدين إلى المنزل بعد تسلم رواتبنا التقاعدية، ومعنا في مركبة (الكيا) التي نستقلها في طريق العودة تسعة ركاب آخرين. أستطيع التخمين جيداً، بعد استدعاء ذاكرتي للشهادة، بأن الساعة لم تتجاوز الحادية عشرة من ذلك النهار الصيفي المبرقع بشمس بغداد الحارقة حين استوقفتنا حواجز كونكريتية سنعرف المزيد منها في قابل الأيام تحت عنوان باتَ مألوفاً «سيطرة وهمية». اثنان فقط تقدما نحو المركبة، كانا مثل أفراد المجموعة المتخندقة وراء الكونكريت، يرتديان ثوب الوجه المزود بفتحتين تسمحان بالرؤية والقنص. كنا حتى تلك اللحظة أحد عشر راكباً تفحصتهم أربع عيون تطل من وراء الثوب البني الغامق. لم تكن أغطية الوجه المزودة بثقبين ذات لون أسود أو أي لون آخر، إنه البني الغامق. العيون الأربع ــ على عجل ــ اصطَفَتْ خلاً لها، اختارته من بين أحد عشر راكباً يحسنون مهنة التنفس والبقاء. جفت حبات العرق الأيلولية على بشراتنا المكتنزة بالسمرة. الملثمان بالبني الغامق يمسكان بذراع الشاب. لعلني لم أخبركم بأن من وقع عليه الاختيار جاوز عامه العشرين بقليل. يرفض النزول بعناد. يتمسك بالمقعد. لا يطلب شيئاً من العيون الأربع إلا معرفة سبب استدعائه لمغادرة المركبة. غير أن الملثمين كليهما يواجهان رفضه بعناد أشد. كانا صامتين

تماماً. الأيدي والحركات والإشارات تأمره بالمغادرة. ولن تمضي أكثر من ثوان معدودات حتى نكتشف نحن الكائنات الحية الذين وشمهم الخوف والذهول بأن العجوز المتمسكة بجسم الشاب هي أمه التي تتساءل مذعورة عن سبب اختيارهما للولد. كانت تسميه الولد تصغيراً محبباً إلى قلبها. ولا أدري أية لحظة من لحظات الشجاعة انتابتني، ربما تعكزت على شيخوختي التي أفترض بأنها ما زالت مؤثرة وتحظى بالاحترام. وقلتُ لأحد الاثنين، الذي بدا أكثر تشنجاً من رفيقه، بلهجة عراقية مُهذبة: «وليدي شنو القضية؟». وجاءني الردّ سريعاً من فوهة كلاشنكوف مصوبة إلى صدري نَحذلتْ لحظة الشجاعة التي تحليتُ بها، فيما كان الإصرار على إنزال الشاب من المركبة قد بلغ أشده. وعندما فكرتْ العجوز أن تحظى بوسام بطولة وأحاطت جسد ابنها بذراعيها وهي تصرخ: «خذوني... ـ قُتلوني... بس اتركوا ابني» قام أحد الاثنين، الذي كان الأقرب إلى باب المركبة بسحب الشاب من ذراعه بقوة والشاب يكرر توسلاته: «أخي آني طالب هندسة سنة أخيرة، هذي هويتي شوفها .. أرجوك شوف هويتي». وحيث لم يفلح في إنزاله من المركبة بالقوة لأن إرادة الحياة المتلاحمة بينه وبين أمه كانت في قمة عنفوانها، التفتت العينان المغروستان وراء البني إلى عينين تجاورهما، متأهبتين لفعل تجهلهُ الكائنات الحية. إن شيئاً ما، يشبه الإشارة لإعلان ساعة الصفر، قد جرى. سمعناه أكثر مما رأيناه. رصاصة واحدة فقط اخترقت رسغ العجوز ودفعت كفها ذات الأصابع المتشبثة بجسد «الولد» إلى فضاء المركبة، فيما أفرغتْ الكلاشنكوف بعض حمولتها في قارورة الرأس الذي توقف في الحال عن دعوة العيون الأربع إلى الاطلاع على هويته الجامعية، طالب في كلية الهندسة، المرحلة الأخيرة.

وتولى أحد الاثنين إغلاق باب المركبة التي غطتها الدماء. وبإشارة صامتة أيضاً، صدرتْ الأوامر للسائق أن يتحرك بعيداً عن نقطة السيطرة. وبدلاً من التوجه إلى منازلنا، توجهنا إلى المستشفى مع سائق ترتعد يداه على المقود. كنا هذه المرة، ونحن في طريق غير طريقنا، عشرة أحياء فقط. لم يطلب أحد من الركاب مغادرة (الكيا). إنهم يحاولون بجرأة تنقصها الخبرة تقديم الإسعافات الأولية لشاب لن يعود أبداً إلى مقاعد الدراسة وعجوز تهشمتْ عظام رسغها الخاوية وهي تتوسلُ أن نسقي ابنها كأس الحياة.

هل أواصلُ شهادتي؟ لا بأس، على شرط ألا أوصف وصفاً رخيصاً لأنني لم أنهمك مثل الآخرين بالعجوز وولدها. كنت إزاءَ همّ شخصي. زوجتي غابت عن الوعي وهي تهدد الكائنات الحية بتقليص عددها إلى تسعة. ولهذا فقدتُ شيئاً من آداب شيخوختي وأنا أصبّ كل غضبي على السائق لأنه لا يضغط بما فيه الكفاية على دواسة البنزين. ولابد أن الرجل كان كريماً للغاية وهو يتحمل أعصابي المنفلتة مرة، وزحام المرور ونقطة السيطرة في كل المرات.

في ذلك المساء الأيلولي من عام ٢٠٠٥ حمدتُ الله لأن زوجتي استعادتْ وعيها، غير مكترث بداء السكري الذي ورثَتهُ عن الحادث وقضم جسمها كما يقضم سرب الجراد أوراق الحقل. ومثل كل مساء، قدم مذيع النشرة الإخبارية صورة تفصيلية عن الوضع الأمني، كان من بينها مقتل شاب وإصابة والدته بجروح بليغة على أيدي ملثمين أقاموا سيطرة وهمية على إحدى الطرق العامة ولاذوا بالفرار بعد تنفيذ جريمتهم النكراء!

هكذا إذن تم إغلاق الملف وقُيدت القضية ضد مجهول أو

مجهولين لاذا بالفرار. أما أنا، قاتل أطوار بهجة، فلستُ مجهولاً ولم ألذْ بالفرار... كيف؟ اعتراف صريح بالجناية ولا أحد يحاول الاقتصاص مني!

مضطرٌ إلى استدعاء ذاكرتي من جديد والعودة بها إلى منتصف العقد الأخير من القرن الماضي. يومها كنتُ أعملُ في مجلة «ألف باء» العراقية الأسبوعية بصفة «خبير». على منضدتي وجدتُ تحقيقاً صحافياً أحالهُ رئيس التحرير مع مجموعة تحقيقات أخرى لإبداء الرأي حول صلاحيتها للنشر. حمل التحقيق الموضوع في المقدمة ملاحظة خاصة، فرئيس التحرير لا يسأل عن مدى صلاحيته للنشر، بل يطلب رأياً في مدى صلاحية كاتبته الآنسة أطوار للكتابة، وما إذا كان بالإمكان تعيينها في المجلة.

الأسلوب الفنتزي الذي اعتمدته الكاتبة سحرني. أعني صرف بالي عن الاهتمام بالفواعل المجرورة والأحوال المرفوعة وعن همزة تستحق العزلة وُضعت على واو، مع أنني الرجل الذي لا يعصم نفسه. كنتُ شديد البأس، قاسياً على الخارجين عن قوانين اللغة. برغم ذلك، كتبتُ «مطالعة» إلى رئيس التحرير تفتقر كالعادة إلى الضوابط الإدارية بهذا المعنى التقريبي: «هذه البنت مجنونة مئة بالمئة. إنها تكتب بطريقة كفيلة بهز عروشنا العتيقة. لذا لا أنصحك بإرسالها إلى المستشفى ما دمنا قادرين على ملازمة بيوتنا. لا تلتفت إلى غرابة اسمها لأنها كائن يكتب بغرابة أعظم». وأدركَ رئيس التحرير، من غير عناء، درجة إعجابي بأسلوبها، أو على الأصح موافقتي المهووسة على انضمامها إلى الأسرة الإعلامية عبر المجلة. وهذا ما كان. فالبنتُ، التي رعيتها رعاية أولادي وحرصتُ على إلغاء اسمها من قاموسي مستدلاً عليها بنداء «الحلوة»، كانت

غارقة في الطموح المشفوع بكفاءة تؤهلها، وأهّلتها حقاً، للعمل في أكثر من مطبوع في داخل العراق وخارجه والتنقل بين فضاءات الإذاعة والتلفاز والفضائيات. ولم تنس في يوم من الأيام وفاءها لرجل أسهم في قتلها.

كانت، بعد أحداث ٩ /٤ /٢٠٠٣ وقد تفرق الشملُ الإعلامي، تزورني بانتظام إلى مقر عملي الجديد في جريدة «الصباح»، تطمئن على أخباري وتسألني إن كنتُ أودّ العمل معها في «الفضائية» بأجور مجزية. فأربتُ على كتفها وأمازُحها: «أنا لستُ رجل فضاء»، ونضحك. لكن الذي نسيته البنت الحلوة ولم يدركه رئيس التحرير، أنني في اللحظة التي وافقتُ فيها على قبول أطوار بهجة لدخول حقل الإعلام، إنما وافقتُ على وضعها في حقل ألغام لم يلبث أن انفجرَ وشظّى جسدها. فأيةُ جريمة ارتكبتُها بحق إنسانة كانت الطيبة والبساطة والمسرة ترافق مجلسها حيثما حلّت؟ وما زلتُ بعد هذه الشهور الطوال التي مرت على اغتيالها أتساءل بأي ذنب قتلت؟ أعني لماذا تنزفُ العاصمة وحدها ما بين شروق الشمس وشروقها مئة روح أو يزيد؟

إنسانية الإنسان في الأرض التي أنجبت سومر وآشور وبابل وجلجامش والمتنبي وجواد سليم تغذّ السير للإفصاح عن شخصيتها الحقيقية، تود، تلح في خلق ألف زقورة وجنائن معلقة ونصب للحرية، تبني عالم الحلم الجميل، تغفو ثم تصحو على الموت المغروس وراء الأقنعة البنية. عيون لها رائحة الخراب ولون الدم تغذ السير، تثلم روح الإنسان، ولا تجيد غير مهنة المقابر. بلد الرافدين أم بلد الجنائز! ماذا يرادُ لإنسانية العراقي، بل لماذا لا تتصل بي هاتفياً .. أنا عاتب عليكَ جداً!

لا ريب أن صديقي عبد الوهاب على حق، وهو لا يعرف بأنني منذ عامين، نعم منذُ عامين، توقفتُ عن الاطمئنان على أحوال خلاني وأحبابي.. مسكوناً بخوف المفاجأة: «ألو، محمد؟ هلو عمو ... شلونك؟ تسلم حبيبي ... وين بابا هاشم؟». ويصمت الهاتف. يسكت الولد قليلا ثم تنطلقُ من صدره عبرة مكبوتة. لم تكن بي حاجة لمعرفة المزيد، قلتُ له: «مستحيل ...كول (قُل) غيرها». وتبادلنا النحيب عبر الهاتف. ما كانت اللغة صالحة: «ألو ... منو؟ فراس؟ هلو عمو... وين بابا الأصلع؟». وضحكتُ و... و«مستحيل... كول غيرها». لا شيء كاللغة معبأ بالخيانة والخذلان، وأتوقفُ عن الاطمئنان. فالهاتف لايخبئ سوى حبات المسبحة في خيط مقطوع تتساقط كالمطر الربيعي بلا إنذار ولا مواعيد مسبقة. غير أن هاتفي يرن، والصوت في الطرف البعيد ملجأ متاعبنا، نَفُلّ في حضرته أسوأ أسرارنا الشخصية، وجع الدنيا، هموم الأيام الثقيلة، ونتحرر على ضحكاته الطرية من كآبتنا المزمنة. «حسن العاني» ـ صوتها يجلجل مازحاً ـ «طمني أيها العجوز كيف أنت؟ هل ما زلتَ تُلازم البيت مثل حريم السلطان؟». الصوتُ يضحك ثم يلبس وجه الجد: «آني قلقة عليك. في زيارتي السابقة إلى بغداد لم تعجبني أوضاعك الصحية. المهم إنت عايش...أرجوك لا تموت». وأعربتُ لها عن قلق متبادل: «لن أموت يا منى، قبل أن أحصل على موافقة خطية منك ومن خضير وعيسى والذرية الصالحة من أصدقاء العمر». صوتها ضحكات مدوية متقطعة: «كيف تجري الأمور معكِ في الامارات؟». ولم أتحسب للصوت الذي كنا إذا ضامنا الضيم، نحتمي تحت أوراقه المتعافية أن ينفجر بكاءً: «ماتت ابنتي أطوار وأنا في الغربة. أعرف أنها ابنتك أيضاً. هل معقول أني لن أراها ثانيةً؟ ماذا يحدثُ في

بلدي؟ لم أشف غليلي من الحزن حتى بلغتني أخبار محسن. قتلوه هو الآخر قبل أن ينقضي شهر على استشهاد أطوار».

«كولي غيرها». حقاً لم أكن قد سمعتُ بأن الأقنعة البنية الداكنة قد اغتالت هذا الفارس القروي الشهم محسن، الذي تعلم كيف يكتبُ افتتاحية لمجلة «ألف باء» بعد أن أصبح رئيساً لتحريرها ولكنه لم يتقن عقد ربطة العنق. ولم يبق على الخط الطويل بين العراق والإمارات سوى البكاء. وعلى عادتها أورثتنا اللغة الخيبة. وتساءلتُ لاحقاً عما إذا كان البكاء لغة بديلة أكثر شفافية وحنّية، أم هو سر التوحد الذي يجمع العراقيين منذ عقدين أو ثلاثة أو أربعة.

...وضحية خامسة وسادسة وعاشرة ومئوية وألفية. ويعاتبني عبد الوهاب. هو على حق. أشعرني لحظتها بأنه «زعلان». لم يقبل عذري ولا مخاوفي من السؤال عن الأصدقاء والاطمئنان عليهم. في ليل قائظ من ليالي تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٦، كسرتُ موقفي الصامت ورفعتُ سماعة الهاتف واتصلت بعبد الوهاب وانتهت المكالمة بيني وبين واحد من أفراد أسرته بترديد عبارتي الأثيرة: «مستحيل... كول غيرها».

لقد أمضيتُ حياتي على تباين مراحلها وأنا لا أحمل ضغينة على أحد. بطريقة ما لا أجيد «فن العداوة»، ولكنني أعترف الآن بملء إرادتي ومن دون آثار تعذيب على جسدي بأن كريات دمي البيض ملونة بالضغائن والعداوات ضد هذه العبارة التي أوهت جَلَدي «مستحيل... كول غيرها». وها هو يعيد سؤاله للمرة الثانية. أعرف بأن المكالمة الهاتفية من كندا تكلّف الكثير. عيسى على الخط،

ثمانية دواوين شعرية ورواية ومئات المقالات الأدبية والنقدية، رجل له مكانته المرموقة في حركة الثقافة العراقية، أمضى أربع سنوات عجاف من شيخوخته «كاتب عرائض» أمام محكمة في الأعظمية. وبعد ٩ / ٤ / ٢٠٠٣ رمّلَ ذوو الأقنعة الداكنة ابنته ولم يسلم هو من التهديد. لا معنى للاستفسار عن الأسباب. فالموت أو الخطف أو التهديد أو المفخخة لا تضع أسباباً ولا تؤمن بالمقدمات. النتائج فقط هي التي تتصدر قوائم القضية. والقضية يقدمها مذيع النشرة الإخبارية عبر الملف الأمني، الذي يتحدث مساء كل يوم بلا استثناء عن عدد القتلى والجرحى والجثث مقطوعة الرؤوس.

ويعيد سؤاله للمرة الثانية: «بإيجاز شديد، كيف تصف لي الأوضاع في بغداد؟ أفكر في العودة، اشتقت إلى مقهى الشابندر وشارع الرشيد». فكيف أُوجزُ له الصورة: «منذُ ٥٦ يوماً بالتمام والكمال لم أُغادر عتبةَ بيتي، سوى مرة واحدة لحلاقة شعري. ولم أحلق لأن الرجل أغلق محله. أعني باعه لدفع الفدية المطلوبة عن شقيقه المختطف». وكان عيسى ذكياً، أو بالأحرى كان كلامي واضحاً ولا يحتاجُ إلى عبقرية فذة لتحليله. «فهمت»، أجابني. ثم تحدثنا قليلاً بشهية مفتوحة عن الحزن. فأنا أُخمنُ بأن المكالمات الهاتفية من كندا تكلف الكثير ولم أكن سيئاً. حاولتُ التزام الحياد وأنا أُخبره: «مع كل ذلك يا عزيزي، العراقيون يواجهون الموت المجاني برغبة شديدة للحياة، يذهبون إلى أعمالهم ويتناسلون ويكتبون القصص ويلعبون «الدومينو» ويتشاتمون أحيانا كثيرة نتيجة الضجر. لكن هذه الظاهرة صحية». أما آخر عباراته، «صدقني أنا أموتُ شوقاً للعودة»، فكانت خاتمةَ الحديث.

حاولتُ أن أهبه قدراً من الثقة بالنفس، كان خجولاً إلى الحد

الذي يستحي من النظر إلى نفسه في المرآة. قلتُ له وأنا أُطبطب على ظهره: «اسمع يا أحمد، صحيح أنك أصغرُ عمراً من أصغر أبنائي وما زلتَ تواصل دراستك في كلية الإعلام، ولكنك قادر على العمل في الفضائية التي عرضتْ عليك مهنة المراسل». ولكي أمنحهُ مزيداً من الثقة وأُحرره من حياء العذارى، أكدتُ له أنه يمتلك مؤهلات جيدة تضمن له النجاح: الصوت والشكل وحضور الشخصية. لا بد أنني بالغتُ بعض الشيء ولكنني لم أكذب عليه. كان ذلك في العام ٢٠٠٥ على ما أذكر، يوم كنتُ مشرفاً على عمله في إدارة الصفحة التربوية ضمن جريدة «الصباح الجديد». وانقطعت بعدها أخباره عني. وانقطعتُ أنا عن العالم حتى تشرين الأول/أكتوبر عام ٢٠٠٦، حين شاهدتُ صورته الفوتوغرافية تغطي شاشة إحدى القنوات الفضائية، وصوت المذيعة تقدمُ نبذة عن حياة الشهيد الراحل أحمد وكيف تم اغتياله وضح النهار في أحد شوارع العاصمة.

فيا لأخبار الموتُ كيف تطاردني. اعتزلتُ العمل. لزمتُ البيت. قاطعتُ الهاتف. ومع ذلك تتفنن براعة الأقدار في نقلي إلى قلب المشهد وصميمية الأحداث. كل هذا صحيح ولكن من غير الصحيح فهم موقفي الاعتزالي على أنه جلوس على التل. إن مظروفاً ورقياً بداخله رصاصة باتَ أمراً معروفاً، ظاهرةً عراقيةً سوّقها ذوو البراقع البنية، مع أنها ظاهرة لا تستمد تاريخها وجذورها من العراق. إشارة المظروف والرصاصة تمت ترجمتها شعبياً وعملياً على النحو التالي: «أنت مطلوب». أي أنت واحد من الأهداف التي تنتظر دورها في القتل. والمفاجأة الغريبة هي أنني تلقيتُ شخصياً مثل هذه «الهدية»، وغرابة المفاجأة تتمثل في كوني رجلاً هدر عمرهُ من غير ضغائن ولا عداوات باستثناء تلك العبارة

المقيتة. أشهدُ بأنني أُلازم بيتي مثل حريم السلطان كما وصفتني منى في لحظة من لحظات تجلياتها المرحة. ولكنني لم أكسر قلمي. إنني أمكرُ والله خير الماكرين وأتدبرُ وسائلي الخاصة. وأبعثُ أسلحتي المحظورة بنشاط أُحسدُ عليه إلى هذا المطبوع أو ذاك محاولا إزاحة اللثام عن تلكَ الوجوه المختبئة وراء البني. ومع كل نشرة أخبار مسائية تعيد علي زوجتي، التي تهرأتْ ذاكرتها منذ غابت عن الوعي في ذلك النهار الأيلولي، الأسئلة ذاتها: لماذا اغتالوا فلاناً؟ هل لأنه كذا؟ لماذا قتلوا عمال «المسطر» الفلاني؟ هل لأنهم كذا؟ لماذا اختطفوا الدكتور فلان؟ هل لأنه كذا؟ لماذا فجروا هذا المقهى؟ هل لأن رواده كذا؟ هل، هل، هل... ومن واجبي الأخلاقي احترام داء السكري والذاكرة المتهرئة والرد على أسئلتها اليومية بإجابة واحدة وحيدة تتكرر وتتكرر، لأنني لا أمتلك غيرها ولا أقتنع بأية إجابة أخرى: جميعهم يقتلون، مطلوبون للقتل لذنب واحد يا ابنة الحلال...

تقاطعني وهي تستعيد إجابتي اليومية وتكمل عبارتي: لأنهم عراقيون!!

بطاقة شخصية:

* مواليد بغداد ١٩٤٣.
* بكالوريوس آداب لغة عربية/ الجامعة المستنصرية في بغداد.
* عضو في اتحاد الأدباء والكتاب العراقيين.
* عضو في نقابة الصحافيين العراقيين.
* أصدر ٥ مجموعات قصصية ما بين ١٩٨٦ ـ ٢٠٠٢ (سيد الأشجار، الرجل الأسطوري، ليلة رأس السنة، الولد الكبير، رقصة الموت).
* زاول العمل الصحافي بشتى فنونه منذ ٤٠ سنة وأولى اهتمامه لكتابة العمود الصحافي.
* نشر العديد من المقالات والتحقيقات والقصص في دبي وقطر وأبوظبي والأردن والكويت.
* حالياً: كاتب عمود في جريدة «الصباح» وينشر نتاجه الصحافي في مجلة «الصوت الآخر» وجريدة «كاب» ويتولى كتابة برنامج تلفزيوني نقدي لإحدى الفضائيات.

حطام للذكرى...

خضير الحميري

في عربة القطار الذي كان يقلنا من بودابست إلى براغ في العاشر من أيلول/سبتمبر عام ١٩٨٠، كنا خمسة أشخاص، نتبادل الحديث بالإشارات والإيماءات ومفردات هي عبارة عن خليط من ثلاث لغات. امرأة في الخمسينيات من العمر وابنتها الفتية، عرفنا أنهما من بولندا، وأنا ابن الخامسة والعشرين من العراق، ورجل في الأربعينيات من العمر وابنه من إيران. بدأنا التعارف مع أول مغادرة القطار لوداعات المحطة في بودابست. وعلى عادة المسافرين حين تكون الأوطان هي الهوية، قلت أنا من العراق، وقال الأب نحن من إيران. أشرتُ عن طريق مجاورة إصبع السبابة من يدي اليمنى لإصبع السبابة من يدي الشمال إلى أننا من بلدين جارين.

صرخ ابنه الذي لم يتجاوز العاشرة مستنكراً الدلالة التي أوحتها له إشارتي، وشابك سبابتي يديه بما يشير إلى العراك والخصام. لم

أفهم وقتها ما كان يعنيه الصبي في إشارته. خمنتُ أنه ربما يشير إلى حرب الشتائم والاتهامات الإعلامية التي استعرت منذ عدة أشهر بين البلدين، والتي كنا ننظر إليها على أنها نوع من الفقاعات الشرق أوسطية المألوفة والتي غالباً ما كانت تنتهي بتبويس اللحى. بعد أقل من ربع ساعة من حركة القطار نامت الأم، ونام الابن، وبقينا نحن الثلاثة نخوض في فصول مسرحية من (البانتومايم)!

كنت ذاهباً إلى براغ بدافع الإعجاب بأستاذي لمادة الفكر الاقتصادي في كلية الإدارة والاقتصاد في جامعة بغداد، الدكتور هشام. لقد سحرنا نحن الذين درسنا هذه المادة على يديه وهو يشرح ويشرّح لنا تأريخ الفكر والمفكرين الاقتصاديين، ويمر على أعلام الاقتصاد وكأنه ارتشف معهم (إستكان)(*) الشاي في مقهى (حسن عجمي)(**) مساء أمس: سميث وريكاردو وسان سيمون وفوربيه وسيسموندي وستيوارت مل ومارشال وهيوم ومالثوس وماركس وابن خلدون وكينز و... تجاريون ورومانسيون وكلاسيكيون واشتراكيون وفيزوقراط... كنا نحرص أن نستأذن صويحباتنا في الحدائق الخلفية للكلية، حين يحين موعد محاضرة الدكتور هشام. نستمع إليه وهو يسحرنا، أو يسحرني على وجه الدقة. كل المواد المقررة الأخرى بالنسبة لي كانت جافة وعبارة عن أرقام ورسوم بيانية ونظريات ومصطلحات جوفاء لا تستحق

(*) إستكان: التسمية التي تطلق في العراق على القدح الذي يتم فيه ارتشاف الشاي.

(**) حسن عجمي: مقهى شهير في شارع الرشيد ببغداد.

أن أترك الحدائق الخلفية لأجلها. وحدها مادة الفكر الاقتصادي تستحق الحضور والمتابعة.

أنا ذاهبٌ إلى براغ لأنني سمعته وهو يقدم نفسه في المحاضرة الأولى، بأنه حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة (كذا) في براغ. وتشاء المصادفة أن يكون لي أحد الأصدقاء مقيماً منذ زمن في تلك المدينة، ولذلك قصدته ليسهل لي رغبتي لإكمال الدراسة هنا في براغ. قال وهو يستقبلني بابتسامة ودودة: «أنا لا أفهم في أمور الدراسة ولكن مع ذلك أنا حاضر. هل ترجمت شهادة البكالوريوس، وهل أحضرت معك جميع المستمسكات؟»(*). أجبته بأني سأكمل دراستي في العام المقبل وأني جئته لتهييء لي الأمور ولينصحني بما يستوجب النصيحة. قال: «والحرب؟». سألت: «أية حرب؟». فشرح لي بأن حرباً قد نشبت منذ أسبوع بين العراق وإيران. ساعتها فهمت إشارة الصبي وصرخته الغاضبة على حقيقتهما. أضاف: «أين كنت؟ ألم تقرأ الصحف، ألم تسمع الأخبار؟». لم أخبره بأني طوال أكثر من أسبوع كنت أتنقل بين المدن عبر القطارات والسيارات والفنادق المتواضعة وصولاً إلى براغ، ولم تكن الأخبار لتعنيني بشيء. أجبته ببلاهة سأتذكرها لاحقاً: وما دخل الحرب في كلامنا؟ الحرب ستنتهي غداً أو بعد غد. أما أنا فسأكمل دراستي وأعود إليك بشهادتي المترجمة. تحولت ابتسامته إلى ضحكة صاخبة. وبعد أن هدأ أشار إلى عينيه على عادة العراقيين في الكرم المعنوي، بمعنى: إن طلبك مجاب من هاتين العينين.

(*) المستمسكات: مصطلح إداري عام، يُراد به هنا الوثائق الدراسية المطلوبة.

كانت سنتي الدراسية الأخيرة ١٩٨٠/ ١٩٨١ مملة ومشحونة بالترقب والتحسب. كانت سريعة وكنا، نحن الطلاب، نريدها ألا تنتهي. فما الذي ينتظرنا إذا ما استمرت الحرب؟ هي الحرب، ونحن وقودها. حتى العلاقات العاطفية التي تزدهر بين الطلاب والطالبات في السنوات الدراسية الأخيرة شابَها بعض الفتور وعدم الثقة بالغد. إذ لم يعد لوعد الزواج بعد التخرج طعمه المغري. فقد عرفنا إلى أين ستتجه مراكبنا. البعض خطط للرسوب(*) في تلك السنة ليبعد عنه شبح الالتحاق بالجبهات، والبعض الآخر فكّر بتأجيل نجاحه إلى الدور الثاني بما يدفع موعد السوق للخدمة العسكرية عدة شهور. اخترت المتاح الثاني، وأنا أتذكر ضحكة صديقي المجلجلة في براغ. لم نقم حفلة للتخرج ذلك العام. لم يكن لدينا أي مزاج للاحتفال. وفي صورة التخرج كانت الوجوه متجهمة، رغم أن المصور ظل يردد (شيز ... شيز...)، وألقى أكثر من نكتة لتنفرج أساريرنا من دون جدوى.

تفرقنا من حدائق الجامعة لنتجمع في «ساحة العرضات»(**). اتجهت أول وحدة عسكرية نُسبتُ إليها بعد انتهاء الدورة السريعة لإعداد الضباط المجندين إلى الفاو. حين توقف الرتل العسكري في مدينة البصرة سارعتُ إلى مكتب البريد لأبعثُ برقية إلى حبيبتي في بغداد أُعلمُها فيها أين أنا الآن. بلغة البرقيات المختزلة، قلت لها «حبيبتي... أنا الآن في أقصى نقطة من جنوب العراق الحبيب». تأمل موظف البريد برقيتي ثم مال إلى زميل له وتبادلا حديثاً

(*) الرسوب: عدم النجاح أو الفشل في الدراسة.

(**) ساحة العرضات: ساحة التجمع والتدريب العسكري.

هامساً. عاد بعده ليمزق البرقية أمام دهشتي واستغرابي. قال: «كيف تفشي مكان وحدتك العسكرية، حتى ولو كان ذلك لحبيبتكَ؟». أضافَ وهو يبتسم ليخفف عني الصدمة: «يمكنك أن تكتب برقية جديدة تقول فيها إنك بخير وصحة جيدة ومعنويات عالية، وتطلب منهم ألا يقلقوا على غيابك. وكفى».

أعترفُ بأني كنتُ مستجداً في كتابة البرقيات، ربما كانت تلك البرقية الممزقة أول وآخر برقية أكتبها، ومستجداً أيضاً في كتمان الأسرار العسكرية. لم أجادل الموظف الحكومي في شيء. فهو، كما تعلمنا، دائماً على حق. اعتذرتُ عن هفوتي وعن كتابة البرقية المقترحة وخرجت.

الفاو أرضٌ من ملح وأفقٌ من نخيل وماء. ماء مخادع في الغالب. لا جبهة للحرب هنا، بمعنى لا اشتباك مباشراً بالأسلحة الخفيفة أو المتوسطة. هنالك بعض قذائف المدفعية والهاون تطلق من الجانب الآخر لشط العرب وتقع على البساتين المحاذية له وعلى الطريق المؤدية إلى الفاو. لذلك سلكنا وسنسلك دائماً ما كان يُعرف بـ«الطريق الاستراتيجي» وهي طريق مفروشة بالرمل والحصى تحاذي في عمق المملحة أنبوباً للنفط.

في وسط المملحة التي تنزّ ماءً مالحاً كان علينا أن نحفر ملاجئ ننامُ ونحتمي بها من عدو قيل لنا بأن المعلومات تشير إلى نيته بالهجوم من جهة البحر. وبعد أن حفرنا الملاجئ، على عادة الجيش الذي يتحرك كقطع الشطرنج، جاءنا أمر الاستعداد للتحرك إلى موقع قتالي جديد سنعرفه لاحقاً.

لا أحد من أفراد دورتي العسكرية للضباط الاحتياط ــ الدفعة الثانية والثلاثون، الدور الثاني ــ كان معي في وحدتي. تفرقنا نحن الـ ١٥٠ مجنداً من خريجي الكليات «الإنسانية» على وحدات المشاة وهي وحدات تعني في السياق العسكري القتال المباشر مع العدو بالبنادق والقاذفات والهاون والسلاح الأبيض عند الضرورة. تبادلنا العناوين وتفرقنا. بعد هذا اليوم، التقينا بالمصادفة في الإجازات الدورية أو أثناء تجاور أو تبادل أماكن الوحدات أو على أسرّة مستشفيات الميدان أو... لم نلتق بتاتاً.

خالد عبد جياد، صديقي من النجف وأحد خريجي تلك الدورة. حرص أن يحصل على قائمة بأسماء الخريجين المئة والخمسين. طواها ونحن نغادر الدورة وحشرها في حقيبته. سألناه: «ماذا تفعل بالأسماء وقد تفرقت الوجوه؟». أجاب: «للذكرى». ثم ضحك وكأنه يضمر إجابة أخرى. لا أحد معي من أصدقائي، لكن هنا سرعان ما تتكون الصداقات التي لا بد منها لترويض وحشة الحرب ورطوبة الملاجئ وقصص الموت وهدير المدافع الذي لن ينقطع عن مسمعي بعد اليوم... إلا في الإجازات!

الطبيب المجند أحمد نوري ابن الناصرية والمُغرم إلى حد الوله بمدينة العمارة يموتُ في غناء داخل حسن والحسجة(*) والدارمي(**)

(*) الحسجة: هو استعمال مفردة أو عبارة أو حكاية تُخفي وراءها غير ما تُظهر للسامع، وهي من أساليب البلاغة الشعبية.

(**) الدارمي: أحد أنماط الشعر الشعبي المتداول في منطقة الفرات الأوسط وجنوب العراق، وغالباً ما يتبارى الشعراء في الرد بعضهم على بعض بأبيات من الدارمي.

والسمك المسكوف. لا يمكن أن تمل حديثه أو تنزعج لمزاحه وهو يكبرني بسبع سنوات. نادر، شخصية فعلاً نادرة من الحلة، مرح ويصعب التمييز لأول وهلة بين جده وهزله، سليط اللسان ويزدادُ لسانه سلاطة كلما ازدادت جبهة الحرب سخونة. ساعتها يمكن أن يشتم القريب والبعيد. أكرم طبيب العيون من كربلاء ومنتصر مهندس الكهرباء وملاذ خريج المسرح من بغداد ومحمود المولع بالسينما الإيطالية من الموصل وعباس موسوعة العشائر العراقية المتجولة من الديوانية ونائب عريف محسن مهرب الأغنام من النجف ونائب ضابط سالم ذو الزوجتين من البصرة وآزاد الكردي الذي تخصص بدراسة اللغة العربية من أربيل وعبد الله مكطوف الخبير بصيد وشي السمك من الكحلاء(*) وعشرات غيرهم. ما إن تعتادهم حتى تفارقهم أو تفجع بفقدانهم. ويوماً بعد آخر علمتني الحرب ألا أبكي أو أحزن كثيراً، أنا الذي كنت أجهش لمشهد درامي هش في مسلسل عربي!

بعد عودتي من إجازتي الدورية وجدتُ أن وحدتي قد أكملت انتقالها إلى الموضع الجديد، شرقي البصرة، عند بحيرة الأسماك إلى جوار نهر (عرفان). بدأتُ مع هذه التنقلات العسكرية أتعرفُ إلى أماكن لم أكن أعرفها في بلدي، تلال ووديان وأنهار وبحيرات وأهوار وقرى وقصبات ومدن صغيرة. إنتقلنا إلى بحيرة الأسماك بعد أن هدأ غبار المعركة الشرسة التي شهدتها هذه المنطقة قبل أيام، تحديداً في الشهر السابع من عام ١٩٨٢، ولم يهدأ غبار

(*) الكحلاء: قضاء من أقضية محافظة ميسان يقع إلى الجنوب من مدينة العمارة.

العواصف الترابية. تنعدم الرؤية أحياناً مع هبوب العاصفة إلى حدود المتر الواحد، وتتساءل: كيف يمكن الجندي أن يقاتل في غبار أشد ظلمة من الليل، وكيف لسلاحه أن يعرف، في مثل هذه الظروف، العدو من الصديق؟

حين كنتُ أسعلُ في أحد المساءات المغبرة، سمعني الدكتور أحمد. فجاء يحمل سماعته ليتفحص صدري. قال: «إنه الربو، يا صديقي». كتبَ لي وصفة وأحالني إلى مستشفى البصرة العسكري الذي منحني استراحة لمدة أسبوع واحد. ربو؟! إنه يمزح بالتأكيد. هذا مجرد سعال بسيط، قررت حينها أن أتمتع بإجازتي المفاجئة وأنسى أو أتناسى مزحة الدكتوّر.

باستثناء البيانات والأناشيد العسكرية، تبدو بغداد وكأنها عاصمة لبلد آخر لم يعرف الحرب. لم تكن حرب المدن قد بدأت بعد. حفلات ونواد وبارات وأعراس وشوارع تتراقص بالضوء. تتحول معها إجازة السبعة أيام إلى سبع دقائق. في كل الإجازات ورغم طاسة الماء التي ترشها أمي على أثري وهي تودعني إلى الجبهة(*)، كنتُ أعود وقد تعبأتُ بالغيظ والحسرة، وأنا أعيش هذا القدر من التناقض بين جبهة تغص بالموت ومدينة تنبض بالحياة. كانت مدن البصرة والعمارة والكوت وبعقوبة بالنسبة لي أكثر احتضاناً وتعاطفاً في تلك الفترة.

في أواخر عام ١٩٨٢ دخلتُ أول معركة حقيقية. بدأتُ أرى

(*) رش الماء: عادة رافدينية قديمة تتمثل بسكب الماء على خطى المسافر أملاً بعودته سالماً.

الجثث. أتعرف إلى التغيير الهائل الذي يصيب الكائن البشري حين يفقد دفء الحياة. بدأتُ ألمس جنون الحرب في السلوك الإنساني حينَ يعتاد على معايشة الموت والتعامل معه في كل لحظة.

في الطيب(*) التي انتقلنا إليها ليلاً، والمعركة متواصلة منذ أيام، وبعد يومين متتالين من وجودنا في أجواء من القصف والقنص ودمدمة الراجمات، في أرض متموجة يصعب ضبط الاتجاهات فيها، أنهكنا الجوع والخوف والتعب. وحين حصلنا على الطعام في ساعة متأخرة من الليل، جلسنا في وسط حفرة كبيرة لنأكل بشهية مفتوحة. ولم ننتبه إلى أننا كنا نأكل بين جثتين لـ «شهيدين» من أصدقائنا. وحين انتبهنا، توقفنا للحظات، لقراءة سورة الفاتحة، ثم واصلنا التهام الطعام بالشهية نفسها.

قلتُ للدكتور أحمد والانفجارات المتتالية لأحد أكداس العتاد تضيء المكان: أشعر بأن جلدي بدأ يتقرّن ويتحرشف وأني أفقد إنسانيتي يوماً بعد آخر. ففي الإجازة الأخيرة لم أستطع البكاء في فاتحة ابن عمي ياسين الذي قُتل في إحدى جبهات الحرب. أجهشَ الجميع بالبكاء، إلا أنا. لم تفهم أمه سبب قسوة قلبي وهي التي تعرف صلتي الحميمة بالمرحوم. وبالأمس أكلتُ بشهية لم آكل بمثلها منذ زمن وأنا أفترش الأرض بين جثتين! وبدلاً من كتب الشعر والرواية، تمتلئ حقيبتي بكتيبات عن البندقية الآلية كلاشنكوف ـ ٧، ٦٢ ملم وتصفير وتوجيه الهاون ٦٠ ملم

(*) الطيب: بكسر الطاء.. منطقة عراقية كانت مسرحاً من مسارح الحرب.

وحشوات القاذفة «أر بي جي سفن» والمدى المؤثر والمدى القاتل لأسلحة المشاة... أجابني الدكتور جاداً أكثر منه مازحاً: «إسمع داخل حسن، لتستعيد جلدك الحقيقي، وتتفتت روحك المتحجرة من جديد».

في اليوم التالي جاءنا أمرٌ بالانسحاب المنظم إلى موقع خلفي. انسحبتُ مع مجموعة من الجنود في وديان متعرجة تؤدي إلى وادٍ كبير هو مقر تجمعنا. وفي إحدى استدارات الوادي وتحت صخرة ناتئة، كان جندي من وحدة أخرى يجلس وقد أخرج مشطاً وبدأ يسرّح شعره. وحين لَحِقنا ترك المشط وقال متضرعاً «أخوكم... أنقذوني». تأملته جيداً. كانت ساقه تكاد تنفصل بعد أن أصيبَ بجرح عميق وكسور متعددة، عمل طوال الوقت على ربطها وإيقاف النزيف بالفائض من ملابسه. قلت: «وتمشط شعرك؟». لم يجبني بل كرّر طلبه «أنقذوني». يا لها من حرب سريالية! ما كان لـ دالي أن يرسم هذا المشهد مهما اشتط به الخيال. وضعه أربعة جنود في بطانية وحملوه معهم إلى وحدة الميدان(*). تعمد أحدهم أن يعبث بشعره المصفف وضحكا. وضحك الجميع.

لا أعرف ما الذي حصل بالضبط ابتداء من مطلع عام ١٩٨٣. قبل ذلك الموعد، كنا نقول إن الحرب ستنتهي هذا الأسبوع أو الأسبوع الذي يليه، من خلال هذه المبادرة أو تلك الوساطة. فأخبار المساعي الحميدة وحقن دماء المسلمين والاستجابة لمنطق العقل وتدخلات بعض الزعماء لا تغيب عن عناوين الصحف

(*) وحدة الميدان: الوحدة الطبية التي تستقبل الجرحى في جبهة القتال.

ونشرات الأخبار، كانت بمنزلة حبة (الفاليوم) التي نتناولها مع بداية أو نهاية كل معركة.

حين ودّعنا حبيباتنا في الكلية، لم نشطب على تفاصيل الأحلام التي رسمناها للمستقبل برومانسية مفرطة في التفاؤل. قلتُ ونحن نلتقي ربما للمرة الأخيرة في نادي الكلية لأبدّد الوجوم الذي خيم على الحضور من شبان وشابات: «ستنتهي قريباً». عقّب صديقي ثائر عبد الحسين «أو ... سننتهي قريباً». ضحكنا صافعين إياه بعباراتنا المحتجة «فأل الله ولا فألك يا رجل».

بعد أقل من عام، كان ثائر يتصل بحبيبته رفاه من قاطع مندلي حيث تقاتل وحدته العسكرية ليخبرها بأنه أصيب بجروح، وهو يرقد الآن في المستشفى العسكري. أجهشتْ بالبكاء فور سماعها الخبر. ظل يخفف عنها وقع ما سمعته وهي تبكي. قال لها هامساً بروحه الفكهة: «اطمئني، الإصابة في قدمي لا في مكان آخر من جسدي». فاختلط لديها الضحك بالبكاء.

لا أدري ما الذي حصل في ذلك العام لتتغير العبارة التي كنا نتبادلها «ستنتهي قريباً» بعبارة استفهامية «هل يمكن أن تنتهي هذه الحرب يوماً؟»، والتي تشظت فيما بعد إلى عبارات أشد تشاؤماً.

في مطلع كانون الثاني/يناير من ذلك العام، انتقلتْ وحدتنا إلى منطقة الشيب بين مخفري إرشيدة والشيب الحدوديين. قال الضابط الركن مازن إنها أرضٌ بكر لم تصبها قذيفة ولم يُحفر فيها موضع وهي فرصة لتتخلصوا من عبء الأيام المريرة الماضية. بدأنا بحفر المواضع وإقامة السواتر والخنادق الشقية، كما على أية

وحدة عسكرية أن تفعل حيثما تحل. وما هو إلا شهر وعدة أيام حتى فقدت الأرض البكر عذريتها، وتحوّلت إلى جحيم مستعرة.

ليلة السادس/ السابع من شباط/ فبراير، بدأ القصف المدفعي الكثيف وإطلاق النار الجنوني يُطوق الفوج المجاور. بعد منتصف تلك الليلة، استنجد ذلك الفوج بحاجته إلى آلة تلقيم إطلاقات الرشاشة الرباعية مقاومة الطائرات والتي تستخدم عند الضرورة لمعالجة المشاة. التفتَ الآمر باتجاهي وقال: «هل سمعت؟». قلتُ: «نعم». قال لي كلمة آمرة من ثلاثة حروف سوف أسمعها تتكرر دائماً «نَفّذْ». لا مجال هنا للمناقشة أو الجدل. أخذتُ آلة التلقيم وفكرتُ بأن ذهابي مشياً سيستغرق أكثر من نصف ساعة قد تكفي لسقوط الفوج، ولذلك أخذتُ سيارة (اللاندكروزر) العسكرية رغم انكشافها وخطورة حركتها. وسرتُ بلا إضاءة في طريق سبق لي أن قطعتها عدة مرات. خلال خمس دقائق كنتُ هناك أسلمُ الآلة، وكان القصف وإطلاق النار من الأسلحة الخفيفة يشتد من كل جانب. قلتُ لآمر ذلك الفوج: «أين العدو بالضبط؟». أجاب محبطاً «لا أدري»! بعد لحظات وصل الملازم آزاد بسيارة ثانية وهو يحمل آلة تلقيم أخرى. عرفتُ أن الآمر تحسّب لعدم وصولي فأرسل آلة تلقيم أخرى لضمان تلبية حاجة الفوج الثاني. عدتُ مسرعاً وتبعني آزاد بسيارته بعد لحظات. الإطلاقات والقذائف تتقاطع خلفي وأمامي. فكرتُ بترك السيارة التي كانت هدفاً واضحاً والسير راجلاً بطرق متعرجة، وصولاً إلى المقر، لكني خشيتُ تبعات ذلك. وصلتُ إلى مقر الوحدة.. ولم يصل آزاد!!.

في اليوم التالي كنتُ أجلس أنا والرائد عودة علي من أهالي

الأعظمية في ملجأ شقي مغطى من الأعلى بقوس معدني يتيح الرؤية باتجاه الأمام والخلف. كنا قد حصلنا على عدة حبات من الطماطم ورغيفي خبز. بدأنا نأكل ونحن ننظر باتجاه التلال الرملية التي تتمركز فيها (حجابات)(*) وحدتنا، والتي عانت من القصف الشديد طوال يوم وليلة. بدأ الجنود يتقاطرون من تلك التلال والانهيار التام بادٍ عليهم. تلال رملية متحركة لا يمكن تحصين الملاجئ فيها. قذيفة واحدة كفيلة بهدم العديد منها. كيف وقد سقطت على تلك التلال عشرات القذائف ويحاصرها إطلاق النار الخفيف والمتوسط من ثلاث جهات؟ حين شاهدهم الرائد عودة يعودون بمجاميع، قال: «هذا خطير، سوف يستهدفهم (الراصد)(**) ببساطة». خرج عليهم وطالبهم التفرق في الخنادق الشقية. التفتَ نحوي وهو يغادر قائلاً: «إياك أن تستغل الفرصة وتقصف لوحدك ما بقي من طعام. سأعودُ حالاً». ذهب ليكلمهم وأنا أتابع المشهد من قوس الملجأ. وما هي إلا لحظات وتناثرت الأجساد على صدى دويّ هائل إلى أشلاء متفرقة. خرجتُ راكضاً برد فعل سريع. صاح بي أحدهم من ملجأ مجاور: «ارجع يا غشيم ما زال المكان مستهدفا بقذائف أخرى». سقطتْ قذيفة في مكان قريب، وثالثة عبرتنا بعدة أمتار. حين هدأ الغبار لم أجد لصديقي (عودة) جثة متكاملة. كان جسدي يرتجف وأنا أتجول في فسحة الموت. نقلوا القتلى والجرحى على عجل وجمعوا بقايا الجثث المتناثرة. عدتُ

(*) حجابات: الوحدة العسكرية المتقدمة والتي يكون موقعها في أو على تماس مع الأرض الحرام.

(**) الراصد: عنصر من عناصر صنف المدفعية مهمته رصد الأهداف وتحديد مواقعها لغرض استهدافها.

إلى الملجأ. وبدأتُ من جديد وكأني ما شاهدتُ الذي شاهدت ولا فقدتُ ما فقدت وكنتُ ما أزال أرتجف. حين تأملتُ حالتي الحيوانية، والدماء وبقايا الأشلاء تلون المساحة التي أمامي، تكورتُ في قاع الملجأ وتقيأتُ كل شيء. جلستُ هناكَ وحيداً في محاولة عصية للبكاء على روحي التي بدأت تتهشم أولاً، وعلى الآخرين الذين بتّ أفقدهم الواحد تلو الآخر.

في المساء تطورت المعركة، وحُوصر مقر فوجنا. بدأت المعركة بحدود العاشرة مساءً، مدفعية وهاونات وإطلاقات تتلامع في كل اتجاه. لم نقدر على استطلاع ما يجري على وجه الدقة. وحين صعد نائب العريف علي على ظهر الملجأ ليرى، لم تتح له الرصاصة التي استقرت في صدره أن يرى. تدحرج إلى الأرض ولفظ أنفاسه بعد أقل من ساعة، رغم محاولات الإنقاذ التي بذلها المضمد صباح. كانت الأرض رطبة ببقايا مطر خفيف. تمددتُ على كتف الساتر الذي يحمي الفوج رافعاً رأسي المحمي بالخوذة بين آونة وأخرى. مجرد أشباح تتراكض وإطلاقات تتلامع في الظلام وضجيج يتعالى من كل مكان. وكلما أُضيئت إطلاقات التنوير اتضح لنا حجم الحشود التي كانت ترمي مقر الفوج بكل أنواع الأسلحة. متى وكيف ضغطتُ على الزناد تلك الليلة؟ لا أدري، أقسم الآن بأني لا أدري. تذكرتُ نصائح نائب الضابط هويدي الذي دربنا بقسوة مبالغ فيها أثناء الدورة العسكرية: «إن لم تضغط الزناد في الوقت المناسب فإن الزناد سيضغطك». ونسأله: «أين سيضغطنا يا نائب ضابط هويدي؟». وكان يجيب بلا مواربة: «في القبر».

حين حل الصباح تكشّفَ لنا حجم الهجوم الذي تعرضنا له

وحجم الموت الذي تخلف في الجانبين. كان جسدي يرتجف. لم يكن باستطاعتي السيطرة عليه، ها هو يخونني مرة أخرى.سألتُ الدكتور أحمد: «هل هو الخوف؟». أجابَ: «هو الخوف ورطوبة الأرض التي أسندتَ إليها صدرك العليل طوال الليل». وطلب من أحد المضمدين أن يرزقني بإبرة لأرتاح قليلاً وأتخلص من الارتجاف ونصحني بالنوم. وكنت أرغب حقاً بنوم طويل. إلا أن سماع أخبار وأسماء الذين فقدناهم ليلة أمس أطار النوم من عيني.

بعدها لم تفارقني الأشباح التي تتراقص في الظلام طوال أكثر من شهر. انسحبنا لإعادة التنظيم وكنت نائماً في السيارة مع مجموعة من الجنود لعدم تهيئة الملاجئ بعد. سحبتُ سلاحي في منتصف الليل ونزلتُ من السيارة واتخذتُ وضع القتال. سألني العريف فاضل الذي كان يتابعني: «ماذا، ما الذي يحصل؟». قلتُ له: «لقد رأيتُ أشباحاً تتراكض في هذا الاتجاه، ربما هو تسلل معادٍ». قال لي: «نمْ أنت، وسوف أتبين بنفسي الموضوع». لم يكن هناك وجود للأشباح سوى في رأسي المتعب. كان العريف فاضل يعرف ذلك ويكتمه بالتأكيد. بدأتُ أتحسسُ رأسي الذي يضج بالأشباح وأرجوه ألا يخذلني.

في ليلة تالية، كنت نائماً في الملجأ الطويل، وكان الأصدقاء ساهرين يلعبون الدومينو. فجأة استيقظتُ من النوم، حملتُ سلاحي وانطلقتُ خارج الملجأ. تبعني نادر ضاحكاً: «لقد انتهت المعركة ونحن في المقر الخلفي. ما الذي دهاك؟». صحوت لنفسي حالاً وأجبته: «أنا ذاهب إلى المرافق الصحية. ما الذي دهاك أنت؟». ردّ علي: «ولماذا تحمل سلاحك؟». قلت بمثالية لا تليق بي ولا تنطلي عليه: «الجندي الحقيقي لا يفارق سلاحه حتى وهو

ذاهب إلى المرافق الصحية». وضحكنا.

فكرتُ بجدية أن أطرح الموضوع على الدكتور أحمد لينصحني بما يجب أن أفعله للتخلص من تلك الأشباح. لكني آثرتُ أن أعالج نفسي بطريقة أخرى. عدتُ إلى القراءة. أخرجتُ مجموعة قصصية كنتُ قد جلبتها معي إلى جانب مجموعة من الروايات والكتب في إجازتي الأخيرة. كنتُ مشغولاً مع شخوص إحدى القصص حين دخل إلى الملجأ، ومن دون سابق موعد، صديقي العتيد خالد عبد جياد. ضحك حين وجدني أقرأ قصصاً قصيرة. قال: «دعك من القصص القصيرة. هذه الحرب الماراثونية لا تليق بها سوى روايات دستويفسكي». جلسنا وتذكرنا أيام الدورة العسكرية ومقالبها الكثيرة. سحب قائمة الأسماء من جيبه. بدأ يقرأ لي الأسماء التي شطبتها الحرب: ضياء وجاسم وزين العابدين ومثنى وأحمد وشريف وعبد الله وكاظم وحسون وو... كنت أتألم مع كل اسم يذكره وأتذكره. توقفَ عن قراءة الأسماء وقال متهكماً: «اطمئن، إذا بقيت شهية هذه الملعونة مفتوحة فإنها ستشطبنا جميعاً!». تناولنا الغداء معاً وغسلنا أحزاننا ببعض النكات والذكريات. حين غادر الملجأ قال: «لا تشغل نفسك بهذه القصص التافهة، سأرسل لك رواية (الأبله) أم أنك تفضل (مُذلون.. مُهانون)؟». قلت له: «لا، (الأبله) تلائم حالتي أكثر».

منذ ما يزيد على العام وأنا أراسل صديقي (طه محمد ياسين)، من أهالي ربيعة في الموصل، كما أراسل آخرين. ولم يصلني منه أي رد. في هذه الإجازة وجدتُ في صندوق بريدي رسالة من ربيعة فرحتُ لها أول الأمر. وحين فتحتها، قرأتُ فيها سطراً واحداً فقط: «الأخ المرسل المحترم، أخي طه استشهد بتاريخ ١٩٨٢/٧/١٢»،

وتوقيع أسفل السطر ربما لأخ أو أخت طه . قلتُ في نفسي والحزنُ يشطبني، ها هو اسم آخر يسقط من قائمة خالد.

التقيتُ أستاذي الدكتور هشام مجدداً عام ١٩٩٨، في شقة متواضعة كنت أسكنها على سفح جبل النظيف في عمان، وكان حلم براغ قد تلاشى واندثر ولم أعد أفكر فيه بالمرة. وكان كلانا قد غادر العراق بعد أن حزّت سكين الحصار رقبته. هو للعمل أستاذاً للاقتصاد في جامعة (غريان) في ليبيا، وأنا رساماً للكاريكاتير في جريدة (العرب اليوم) في عمان. رويتُ له لأول مرة ما كنتُ قد فعلتُ في تلك المغامرة الشبابية المبكرة. قال: «لو أنك أخبرتني بهذه الرغبة المجنونة لما شجعتك عليها». سألته: «لماذا؟». أجابني «إنك لا تنزل النهر الواحد مرتين ... تلك كانت تجربتي، وها أنت قد خلقتَ تجربتك الخاصة رغم كل شيء ولا يمكن استنساخ التجارب».

«سأجن أو أموت»، قلتُ لأخي. ليس حلم براغ هذه المرة، بل حلم الخلاص من جبهة تفتح فمها بلا رحمة لالتهام المزيد من الأحلام. الخلاص كان يتجسد بالنسبة لي فقط في الحصول على مقعد لدراسة الماجستير. وانهمكت في إجازاتي اللاحقة كلها، في طرق أبواب هذا الحلم. قدمتُ أوراقي لأكثر من جهة جامعية لعل إحدى المحاولات تثمر رغم ضآلة الأمل. وطلبتُ من أخي شهاب، الذي لم يذق طعم الجبهات بعد، أن يبذل أقصى الجهد في متابعة الموضوع وإلا فإني سأجن أو أموت. بعد الشيب، تنقلتُ على رقعة الشطرنج إلى وحدات أخرى كانت الحرب فيها تعمل بجد(*) كالعادة: بدرة

(*) الحرب تعمل بجد: إشارة لقصيدة بالعنوان نفسه للشاعرة العراقية دنيا ميخائيل.

وجصان، زرباطية، أطراف مندلي، أبو الخصيب، نهر جاسم، البزركان، هور الحويزة ... وفي الساعة الثانية بعد منتصف ليلة الخامس عشر من تشرين الأول/أكتوبر من عام ١٩٨٤، رنّ جرس الهاتف في الملجأ. أخبرني (خفر) البدالة العسكرية أن لي خطاً مدنياً يطلبني من بغداد. كانت المرة الأولى التي يفلح أحد في الاتصال بي من بغداد إلى الجبهة. لحظات وكان صوت أخي: «أبشرك». صرختُ من الفرح، ولم أنم تلك الليلة.

في اليوم التالي اتصلتُ بخالد تلفونياً طالبا إياه أن يشطبني من قائمته المشؤومة. قال: «لماذا، هل مُتّ؟». قلت: «بل عشت، فقد ظهر اسمي في قوائم المقبولين في الدراسات العليا».

امتدت خدمتي العسكرية إلى ثلاث سنوات وعشرين يوماً وسبع ساعات، بين قوسي التاريخ الممتد من ٧/ ١٠/١٩٨١ ولغاية ١٩٨٤/١٠/٢٧. حزمتُ في ظهر ذلك اليوم الخريفي أغراضي وكتبي ورسومي وخوذتي العسكرية وظرفاً فارغاً لقذيفة مدفع، وأكداساً من حطام الذكريات المريرة التي سترافقني سنين طويلة... وغادرت.

بطاقة شخصية

* مواليد بابل/ العراق ١٩٥٥.
* بكالوريوس اقتصاد/ كلية الإدارة والاقتصاد/ جامعة بغداد/ ١٩٨١.
* ماجستير علوم اقتصادية/ معهد البحوث والدراسات العربية/ ١٩٨٩.
* عمل رساماً للكاريكاتير منذ عام ١٩٧٩ ونشر رسومه في أغلب الصحف والمجلات العراقية وفي العديد من الصحف العربية.
* رسم العديد من الزوايا الكاريكاتيرية منها (لو، روتين التعقيدي، كاري.. كاتير، قريباً من السياسة، شعيط ومعيط، مسامير، شاهدتُ، قرصة، السنارة، بيهة إن، هلاوين) وساهم في زوايا أخرى مع زملاء آخرين (المنشار، زاوية حادة، مشهد وخمس عيون).
* له العديد من الكتابات الساخرة.
* يعمل حالياً رساماً للكاريكاتير في: جريدة «العرب اليوم» الأردنية/ عمان. وجريدة «الصباح الجديد» بغداد. وجريدة «كاب» الساخرة/ أربيل. ومجلة «هلا» الثقافية/ بغداد.

ثلاثة وجوه لامرأة عراقية

سلوى زكو

الوجه الأول

كأن البيوت قد أفرغت ساكنيها فغصت بهم شوارع بغداد، عريضها وضيقها. مشهدٌ فريدٌ لهستريا جماعية انتابت البشر وهم يحتفلون بانتهاء مطحنة الحرب على الحدود بعد أن دامت ثماني سنوات. لا أحد يمكنه أن يستوعب معنى الحرب إلاّ من كابدها.

أخذوا وحيدها إلى الحرب عندما أكمل الثامنة عشرة. كان اسمه عبد الله في الوثائق الرسمية، إلا أن الجميع كانوا ينادونه عبودي وهي أم عبودي. لم يسترجع اسمه الأصلي إلاّ عندما جنّدوه في الجيش فأصبح اسمه الجندي المكلف عبد الله عبد الحسين. ظلت أم عبودي تنتظر عودته بلهفة في أيام الإجازات، تعدّ له الطعام الذي يحب وفراشاً دافئاً وحضناً أكثر دفئاً، يستقبله بلهفة لا

تدانيها سوى لهفتها يوم ولادته حين جاءوا به ملفوفاً بخرقة مدماة كي تراه لأول مرة. بورك ذلك البطن الذي حملك. فلقد كنت نسمة ربيع تنشر الندى والعطر على حياة، ما كان أصعبها، بعد أن هجرها الزوج إلى أخرى واختفى من حياتها نهائياً.

اعتادت الحياة وحيدة وفقدت منذ زمن بعيد الإحساس بالحاجة إلى رجل يملأ حياتها. ما حاجتها إليه ولديها هذه النبتة الطرية المباركة تنمو ويستقيم عودها سنة إثر أخرى؟ وعندما أصبح الولد رجلاً، أصر على أن يشيل الحمل عن أمه بعد طول معاناة من شظف العيش والخدمة في البيوت. غاص قلبها يوم فاتحها بعزمه على ترك الدراسة كي يساعدها في تدبير أمور العيش. كان لا يزال في الخامسة عشرة، يوم صحا فجأة ليكتشف أنه أصبح رجلاً عليه أن يرعى أمه. تلاشى منطقها الحنون والحريص أمام منطقه العملي وإصراره الرجولي على قراره.

دخل سوق العمل مبكراً وسرعان ما تعلم المهنة التي اختارها. كان يعود كل مساء وقد تلطخ وجهه ويداه بسواد دهون السيارات ليجد في انتظاره حماماً دافئاً وملابس نظيفةً يرتديها. ما عاد قادراً على السهر معها كما كان يفعل. يأتي، وقد هدَّه التعب، ليستسلم لنوم عميق تقطعه تأوهات الجسد المتعب فيعصف بقلبها ألم حاد تسكته بحلم وردي أن يصبح عبودي في يوم ما صاحب ورشة، ولم لا؟ إنه ذكي وحريص لا يعرف الكسل له درباً.

أفاقت من ذكرياتها على رشقة ماء بارد ألقى بها أحد المحتفلين وهو يصرخ في وجهها بهستريا الفرح. تنبهت إلى أن الشارع قد استحال إلى أتون لاهب من البشر يتزاحمون، يطلقون الرصاص

في الهواء ويتراشقون بالماء. ما ضرَّ القدر لو كان عبودي بينهم يحتفل بجنون مثلهم؟ هذه الكتلة البشرية الهائلة التي تحتفل بنجاتها من مذبحة الحرب، ترى هل نسيت أولئك الذين ما عاد بإمكانهم الاحتفال المجنون في شوارع بغداد؟

كانت إجازته قد انتهت. ودّعته عند الباب كالعادة برشقة ماء خلفه كي تعيده إليها سالماً. لكن عبودي لم يعد من تلك الإجازة. ما زالت تذكر يوم أبلغوها بأن الجندي المكلف عبد الله عبد الحسين قد فُقد في المعركة. طرق الباب بعيد مغيب الشمس مختار المحلة يصحبه عسكري متجهم الوجه، وهذا نذير شؤم تعرفه كل الأمهات أيام الحرب. فار الدم في جسدها وأحست بنبضات قلبها تشق صدرها شقاً. سارع المختار إلى طمأنتها «لا تخافي، عبودي بخير، سوى أنه مفقود وسيعثرون عليه إن شاء الله». لم يجرؤ أن يقول لها إنّ تعبير «مفقود» لا معنى له. في أتون المعركة، يسقط من هذا الطرف أو ذاك مئات، بعضهم يقتل في الحال والآخرون يسقطون جرحى، يتجاوزهم الجيش المحارب إذ لا وقت ولا مكان للتوقف، إما الهجوم أو التقهقر أو كلاهما معاً بالتتابع. تنتهي المعركة ويبدأ إحصاء الخسائر. لا بد من وجود جثة كي يسجل اسم صاحبها على قائمة القتلى، أما الآخرون فهم مفقودون، بعضهم ينزف وحيداً حتى الموت لتصبح جثته طعاماً لضباع الأرض وذئابها.

بعد أن هدأ روعها قالت في نفسها: قد يعثرون على عبودي في الأيام القليلة القادمة. لا بد أنهم يبحثون عنه الآن والحكومة لا تترك أبناءها تائهين في البراري، وقد يعود في موعد إجازته القادمة. وإذا لم يعد؟ حسناً، لا حرب تستمر إلى الأبد ولا بد أن تنجلي

في يوم ما عن وجه عبودي الحبيب يعود إليها بعد طول غياب. سوف تزوجه هذه المرة ليمتلئ البيت بالأطفال. المال والبنون زينة الحياة الدنيا، وإذا لم يتوفر المال فإن الأولاد كفيلون بأن يزينوا الحياة بالفرح والأمل.

لكن عبودي لم يعد. وبدأت رحلة عذاب جديدة بحثاً عن أثر لوليدها في سجلات الجيش. يطرح الضابط بنفاد صبر على منضدة خشبية متسخة قوائم بألوف الأسماء كتبت بخط رديء «هؤلاء كلهم أسرى، وهذه قوائم المفقودين. إذا كنت لا تعرفين رقم وحدته وعنوانه العسكري كيف لي أن أجد اسم ابنك؟». توسلت إليه واستحلفته بشبابه وبكل عزيز وغالٍ أن يساعدها. قلَّب الصفحات بتبرم وعجالة ليقول لها: «تعالي بعد يومين، سوف أبحث عن اسم ابنك وقد أعثر عليه». عادت بعد يومين لتجد وراء المنضدة الخشبية المتسخة وجهاً جديداً استقبلها بالتبرم ذاته. استمع إلى توسلاتها ثم وعدها خيراً. ظلت شهوراً عديدة، وبإصرار لا يكلّ، تُراجع الدائرة المعنية ترف في قلبها أمنية أن تعثر على اسم وليدها. لكن اسم عبودي لم يظهر في القوائم.

في تلك الليلة المجنونة، سهرت بغداد حتى الصباح. وحين أنهك القوم الفرح بالنجاة عادوا إلى بيوتهم مخلفين وراءهم شوارع وأزقة تغطيها نفايات الأكل والورق الملون والبالونات وأحذية أفلتت من أقدام أصحابها وسط الازدحام. آوت أم عبودي إلى فراشها وقد امتلأت نفسها بالأمل مجدداً. ها إن الحرب قد انتهت ولا بد أن الحكومة سوف تتفرغ الآن لاسترداد أبنائها الأسرى والبحث عن المفقودين.

صبرت كثيراً. تجرعت الأناشيد الحماسية التي تزعق ليل نهار عسى أن ينسى الناس وسط الضجيج آلامهم وخيباتهم وذكريات من غابوا على الحدود ومرأى الأجساد الغضة الملفوفة بالأعلام وهي تنزل في حفرة لتختفي إلى الأبد في حضن الأرض الدامي. لم تنس أم عبودي وحيدها ولم تخبُ في صدرها جذوة الأمل في عودته سالماً. «قلبي يعْلمني بأنه حي وقلب الأم لا يكذب»، إلاّ أن قلب الأم عند المحن قادر على أن يكذب على نفسه كي يبقي خيط الأمل متيناً لا ينقطع.

في رحلاتها المتكررة بحثاً عن اسم وليدها في سجلات الجيش، عقدت صداقات مع أمهات الأسرى والمفقودين، فالمصيبة تجمع ولا تفرّق. وبدأ تبادل محموم للمعلومات والأخبار ثم الزيارات تتسابق فيها الأمهات لاستذكار محاسن الولد الذي غيبته الحرب. وانتعشت الآمال من جديد بعودة الوجبات الأولى للأسرى. وأخذت أم عبودي تطوف على العائدين حاملة صورة الولد الذي ضاع عسى أن يتعرف إليها أحدهم. هالها منظر الأسرى العائدين كأن الحرب وسنوات الأسر امتصت عافيتهم وطمست على ذاكرتهم وأغلقت برتاجها الثقيل على أحاسيسهم. وجوه لرجال في أوج شبابهم تغضنت وغزا الصلع رؤوسهم، أجسادهم نحيلة وعيونهم زائغة. كثيرون منهم رفضوا الإطالة في الحديث كما لو كانوا يريدون أن يمحوا من ذاكرتهم أيام الحرب والموت البطيء في سنوات الأسر الطويلة. بعضهم تاه عقله وعاد بذاكرة مسطحة لاتحمل حرفاً واحداً من ذكريات أو أسماء أو مشاهد. وجبات إثر أخرى تعود، وصورة عبودي تتنقل بين الأيدي، لكن أحداً لم يتعرف إليها. وظلت أم عبودي تتشبث بعناد بإحساسها الذي لا يريد أن يخيب بأن الولد حي وسيعود يوماً.

لم يعد الولد على مر السنين. وجاءت حرب طاحنة أخرى أنست الكثيرين أهوال حرب السنوات الثماني. فحرب ثالثة أطاحت بكل ما سبقها. إلا أنها جميعاً عجزت عن إطفاء جذوة الأمل في صدر أم عبودي التي جفَّ عودها وابيضّ شعرُها وكاد بصرُها أن يذهب.

منذ خمسة وعشرين عاماً وأم الجندي المكلف عبد الله عبد الحسين معلقة بين الأرض والسماء تتأرجح على خيط أمل يرفض بإصرار أن ينقطع.

الوجه الثاني

يد خشنة تقبض بتشنج على ذراعها اقتادتها معصوبة العينين إلى حيث لا تدري. خرق أذنها سيل من الشتائم البذيئة لم تلتفت إليها، فلقد كان جل همها أن تحتفظ بتوازنها النفسي وصفاء ذهنها لمواجهة ما سيجيء.

عندما فرت من بيتها في بغداد تاركة خلفها طفليها، كانت الحلقة قد ضاقت من حولها وأحست أنهم لا بد قادمون في أية لحظة. من لم يجرب الاختفاء عن انظار ملاحقيه لن يدرك كم هو صعب العثور على مكان آمن حتى وإن كان يعيش في مدينة مترامية الأطراف مثل بغداد. كأن تلك المساحة الهائلة من الأرض قد تحولت إلى خرم إبرة يصعب النفاذ منه إلى حيث الأمان.

تذكرت قريباً لها يسكن مدينة بعيدة. غادرت بيتها فجراً قاصدة ذلك القريب الذي لم يكن ليعرف سبباً لقدومها ومنعه أدبه من طرح السؤال. أحست لديه بالأمان وذاقت طعم النوم الهادئ بعد

أسابيع من القلق والكوابيس الليلية. لن يصلوا إليها حتماً هنا إذ لا أحد يعرف أن لديها قريباً في هذه المدينة الغريبة. قبيل منتصف الليل، بدأ الطرق العنيف على الباب الخارجي فأدركت أنهم قدموا. دخلوا ببنادقهم المشرعة وأيديهم على الزناد، انتشروا في أرجاء البيت يتلفتون حولهم بحذر وعيونهم جاحظة محمرة كأنهم فرقة عسكرية تتأهب لدخول معركة. لم يكن في ساحة المعركة سوى قريبها وزوجته وطفلة انزوت مرتعبة في حضن أمها. استسلمت دون أن تنطق بكلمة واقتادوها بسيارة جيب عسكرية إلى بغداد. ظلت طوال الطريق تسأل نفسها بحيرة كيف استطاعوا العثور على مكانها حتى علمت فيما بعد أن قوة مسلحة دهمت بيتها في بغداد وهددت بأخذ الطفلين إن لم يدلهم أهل البيت على مخبئها.

قطع شريط ذكرياتها صوت حاد صاح في أذنها «احذري أمامك سلالم». مدت قدمها فطاحت في الهواء وسقطت على الأرض. تصاعدت ضحكات عابثة وهمس أحدهم في أذنها «هذه بسيطة.. سوف ترين الكثير في الداخل». سرت رعدة خفيفة في جسدها، تظاهرت بالتماسك وواصلت السير. أحست ببرودة ثقيلة فأدركت أنهم أدخلوها إلى مكان مغلق. أصوات لرجال عديدين، بعضهم مشغول بالحديث وآخرون استقبلوها بشتائم بذيئة وثالث صاح بصوت آمر «أدخلوها».

خفتت الأصوات وتواصل المسير، يميناً، يساراً، أماماً ثم إلى اليمين. صوت صرير باب يفتح ويد تدفعها بشدة إلى الداخل. شمّت روائح عرق بشري خانقة وسمعت وسط الصمت المطبق أنفاساً فأدركت أن المكان مليء بالبشر. صاح الصوت الآمر «أفسحوا لها

مكاناً هنا» وقبضت على كتفيها يدان قويتان لتجلسها القرفصاء على أرض باردة. امتدت يد لتنزع بخشونة العصابة عن عينيها، فتحتهما على قامة رجل نحيل الجسم، أنيق الملبس يمسك بعصا صغيرة في يده، ضربها على رأسها ضربة خفيفة وهو يقول بابتسامة ماكرة «لا تتحركي من مكانك.. هه؟»، استدار بحركة عسكرية خاطفة ثم صفق الباب خلفه.

أحنت رأسها بين ركبتيها محاولة تهدئة روعها فسمعت وجيب قلبها يخفق بعنف. همس صوت في أذنها «أهلاً». رفعت رأسها وردت على الصوت بابتسامة واهنة وهي تطوف بعينيها في المكان. رأت نساء في أواسط العمر وشابات وعجائز. ثمة أم تحتضن طفلها الرضيع وقد صنعت من حجرها الوسيع مهداً له، وأخرى يبدو أنها تنتمي إلى كلية الطب جاءوا بها من هناك إذ إنها ما زالت ترتدي الرداء الأبيض فوق ملابسها. تعرفت إلى بعض الوجوه ولم تعرف الكثير منها، لكن عشرات العيون المتعبة رحبت بها بصمت.

في ساعات النهار يعج المكان بأصوات أعداد كبيرة من البشر يتمازحون، يتخاصمون، يتبادلون شتائم شديدة البذاءة، ومن تحت عقب الباب الخشبي السميك تتسرب روائح الشاي ودخان السكائر ممزوجة بعفونة المكان. وفي الليل يكون الجحيم. يهدأ المكان تماماً، كأن لا أحد هناك خارج الباب، لتخترق الصمت الثقيل صرخات بشرية مرعبة. الرجال لا يصرخون بل يزمجرون في البداية وقد كزّوا على أسنانهم. وعندما يتصاعد التعذيب يبدأون بإطلاق صيحات تشبه عواء حيوان جريح. أما النساء فيطلقن صيحات حادة متتالية تصاحبها صيحات الجلادين

وشتائمهم ثم يطبق صمت رهيب على المكان. وتتوالى فصول الجحيم حتى ينبلج الفجر. في الصباح، تعود الحياة الاعتيادية إلى المكان سوى صرير الباب الخشبي الذي يفتح بضع مرات لتدفع الأيدي بأعداد جديدة من النساء داخل الحجرة المزدحمة أصلاً. وقبيل العاشرة مساء، يبدأ رعب الصمت والانتظار، تتكور الأجساد على نفسها وتكف عن الحركة. على من سيأتي الدور هذه الليلة؟

في إحدى الليالي، جاء دور تلك الأم التي لا تكف عن مناجاة طفلها. كانت شابة قوية البنية، فارعة القامة ذات عينين حادتين وشعر أشعث. ما إن سمعت اسمها حتى هبت من مكانها، سلمت الرضيع إلى جارتها ووقفت بحزم كأنها مقبلة على مهمة كُلفت بها. أشار لها الرجل الواقف عند الباب دون أن ينطق أن اجلبي الطفل معك. حدجته بنظرة متحدية، تسلمت طفلها وخرجت بصحبته. لم يمر وقت طويل حتى جاءت أصوات الصراخ من الطابق الأعلى. كان الرضيع يصرخ بلا انقطاع والأم تزمجر مثل لبوة جريحة، تصرخ حيناً وتشتمهم بأقذع الشتائم حيناً آخر. وارتفعت صيحات الجلادين كأنهم يشجعون أنفسهم على اقتحام أسوار هذه الأم الجريحة. حصلت دربكة شديدة ثم انقطعت الأصوات فجأة. همد الجلادون واختفى صوت الأم ورضيعها في آن واحد. لم يعرف أحد ما حل بهما، إذ لم يعودوا بالأم وطفلها في تلك الليلة ولا في الليالي التالية.

تمر النهارات والليالي وتبدأ وطأة الانتظار تضغط على الذهن والأحاسيس. يكون الانتظار أحياناً نوعاً قاسياً من التعذيب، بطيئاً، صامتاً وشديد الوطأة. أوصلها الانتظار إلى مرحلة تمنت لو أن هذا الزائر الليلي ينطق باسمها فتتخلص من هواجس القلق والصور

البشعة التي ترسمها في خيالها تلك الصرخات الليلية المتتالية.

بعد أكثر من ثلاثة أسابيع جاء دورها. انتفض قلبها لسماع اسمها. قامت من مكانها فأشار عليها الرجل بأن تستدير. شدّ عينيها بخرقة واقتادها إلى الخارج. مر بها في دهاليز وممرات متعرجة تنعطف يميناً ويساراً ثم أدخلها إلى مكان باهر الضوء تخللت خيوطه الخرقة البالية التي ربطوا بها عينيها.

قادها ليجلسها بحركة خشنة واحدة على كرسي واستطاعت من خلال الضوء أن تميز شبح رجل يجلس في انتظارها يفصل بينهما ما يشبه المنضدة الصغيرة. لم تشعر بالخوف، لكن عطشاً هائلاً دهمها حتى أحست أن شفتيها قد تيبستا فجأة.

بدأ الشبح الجالس أمامها يتحدث بصوت هادئ شديد النعومة. اعتذر عن طريقة جلبها للتحقيق «تعرفين الإجراءات» لم ترد عليه. كان ذهنها مشغولاً بما سيجيء بعد تلك المقدمة. واصل حديثه المطول عن حياته وكيف تمنى أن يكون صحافياً وبذل محاولات عديدة في شبابه لكنها فشلت كلها مع الأسف وما زال يكنّ احتراماً خاصاً للصحافيين والمثقفين عموماً، أولئك الذين لم يسعفه الحظ في الانتماء إليهم. ردت بتلقائية بالغة «ربما كان ذلك من حسن حظك. لو نجحت لكنت اليوم في مكاني». يبدو أن الشبح قد فوجئ بكلماتها، اعتدل في جلسته وبدأت نبرة حديثه تفقد نعومتها. سألها بحزم: «لمَ اخترت العمل الصحافي الذي أوصلك إلى هنا؟ أما كان خيراً لك لو اكتفيت بدور ربة البيت والأم وهو أشرف دور في الدنيا؟». ما كان لديها رد على هذا النوع من الحديث فلاذت بالصمت.

هنا أدرك الشبح أن المقدمة قد شارفت على نهايتها. جاء السؤال التالي بنبرة عالية وحازمة «أين فلان؟». وكان فلان صحافياً مرموقاً أفلت من أيديهم في اللحظات الأخيرة فجن جنونهم. ردت وهي تتظاهر بعدم الاكتراث «ما أدراني، لا بد أنه اختفى في مكان ما أو غادر البلاد... لا أعرف». صاح بصوت آمر «بل تعرفين مكانه، لدينا معلومات تؤكد ذلك. كنتما تعملان معاً فكيف لا تعرفين شيئاً عن مكان اختفائه؟» لا تدري حقاً من أين جاءها ذلك الهدوء الذي كان يزداد كلما تصاعد غضبه وعلت نبرة صوته، ردت ببرود «لو كان كل من يريد الاختفاء يبلّغ الآخرين عن مكان اختفائه لما عدّ ذلك اختفاء. هذه الأمور تجري بسرية تامة». لا تعرف حتى اليوم ما الذي أثاره في ذلك التعليق الذي بدا لها منطقياً تماماً. هاج الشبح فجأة. قام من مكانه وهو يركل كرسيه ويشير بيديه إلى آخرين يقفون خلفها. جاءت الضربة الأولى حادة على الرأس فسقطت على الأرض. برق في عينيها شريط من المغنيسيوم وتقطع أمامها خيط الضوء المتسرب. ما درت إن كانت قد أصيبت بالعمى أم أن ذلك كان مجرد عمى مؤقت من أثر الضربة. وبدأت الأسئلة تنهال ومعها تنهال الضربات. كان الجلادون يحملون أنابيب مطاطية تطن في الهواء قبل أن تهوي على جسدها. توالت الأسئلة ومعها تتوالى الضربات. لا يبدو أن الشبح كان مهتماً بتلقي أجوبة عن سيل أسئلته، كان الهدف هو إذلالها وكسر شوكتها. تكوّرت على نفسها وهي تحمي رأسها بيديها محاولة تفادي الضربات، ثم بدأت أيدٍ خشنة متوترة تمتد إلى جسدها.

سحبوها عند الفجر وألقوا بها وسط حجرة النساء. كانت في أعلى درجات الإرهاق والإحساس بالذل وبالألم المبرح الذي ينبض

في كل جزء من جسدها. تبرعت إحداهن بسحب جثتها إلى الزاوية وغطت الجسد المزرق بعباءة نسائية. ظلت تنشج بصمت حتى أغفت.

استُدعيت مرة أخرى لتقابل الشبح. كانت قد قررت هذه المرة أن تموت دفاعاً عن نفسها. الموت يأتي في لحظات، لكن العذاب يمكن أن يستمر إلى ما لا نهاية. فوجئت بأن الشبح يعرض عليها صفقة، أن تتخلى نهائياً عن عملها الصحافي لقاء إطلاق سراحها، ما درى كم أفرحتها تلك الصفقة التي ستخلصها من الملاحقة والضغوط لإجبارها على العمل في صحافة الصوت الواحد بعد أن محيت من الخريطة كل الأصوات الأخرى. وافقت لكنها حرصت على إخفاء حماستها لإتمام الصفقة. في أقل من ساعة كانت في الشارع مخلفة وراءها الجحيم.

في الأيام التالية، كان الآخرون رحيمين بها فلم يسألها أحد عما فعلوه بها. كان منظرها وحده يشي بما حدث فلقد خرجت محنية الظهر تسير على سيقان واهنة فقدت قوتها بعد أن أمضت قرابة شهرين جالسة القرفصاء في مكان واحد.

مرت سنوات كان ابنها قد غدا فيها رجلاً. سألها يوماً على حين غرة «كنت طفلاً آنذاك فلم أسألك. ما الذي فعلوه بك هناك؟». ردّت بإصرار «لم يلمسني أحد».

الوجه الثالث

الممشوقة التي يكتسبها كل سكان الأهوار بسبب طريقة قيادتهم للزوارق التي يسمونها «المشحوف»، وهي زوارق بلا جوانب تشبه إلى حد ما زلاجات الماء التي يقودها المتسابقون بحركة أجسامهم فوق أمواج البحار، سوى أن قيادة هذه الزوارق تكون بعصا طويلة يغرزها قائده في قاع الماء الرخو، ثم يدفعها بجسمه لينزلق على سطح الماء الساكن. هذه الحركة الرشيقة التي تتم يميناً ويساراً بالتعاقب، أكسبت سكان الأهوار أجساماً فريدة في جمال تكوينها وصلابتها. كما أكسبتهم الشمس الساطعة ممزوجة ببخار الماء وجوهاً تتميز بسمرة برونزية وبشرة مشدودة وسميكة مثل رغيف خبز لوحته نار تنور طيني لاهبة.

كانت في السادسة عشرة. تعلمت قبل أن تبلغ العاشرة كيف تقود زورقها وكيف تصطاد السمك بآلة بدائية يسمونها (الفالة)، وهي عبارة عن عصا من القصب يربط في نهايتها خطاف معدني يغرزه الصياد في جسم السمكة السابحة في الماء ببراعة متوارثة. وكثيراً ما عاب سكان الأهوار على الآخرين لجوءهم لصيد السمك بواسطة الشباك، وهو أسلوب يعدّونه سهلاً وغبياً يخلو من أي فن أو مهارة. جمال لحظة الصيد يكمن في ذلك التركيز الذهني الفريد والسيطرة الماهرة على حركة عضلات الجسم الذي تتطلبه عملية اصطياد جسم يسبح تحت الماء بحركة سريعة الانزلاق.

الأهوار في العراق، مرادف لمدينة فينيسيا الإيطالية. شوارعها عبارة عن دروب مائية ضيقة بين غابات القصب، سوى أن الناس هنا يبنون بيوتهم على شكل جزر منفصلة وسط مساحة هائلة من مسطحات المياه يتعايش فيها بإلفة تاريخية البشر والسمك والأحياء المائية وأسراب من طيور نادرة.

قادت الشابة زورقها عبر شوارع متشابكة بعد أن أنجزت مهمة الصيد لتعود بوجبة العشاء لعائلة كبيرة يتوزع أفرادها مع بزوغ الفجر، بعضهم يصطاد الطيور، والآخر السمك والثالث يعمل في حقل الرز المجاور. منذ سنوات ورحلتها اليومية هذه تنطلق في الصباح الباكر لتلتحم بالطبيعة التي أصبحت جزءاً من كيانها. وكثيراً ما تمادت في رحلتها لتصل إلى حافة المياه حيث تنبسط أمامها الأرض الجرداء، ترمق السيارات المارة بسرعة بنظرة فضولية. لم يسبق لها قط أن رأتها عن قرب، لكنها خمنت أنها شيء شبيه بزورقها يستعمله الناس في التنقل سوى أن شكله بليد وحركته الخاطفة لن تسمح لراكبه بأن يتمتع بما حوله. ثم تبتسم في سرها متسائلة: وهل في هذه الأرض الجرداء المالحة ما يستحق النظر؟ تعود إلى عالمها الغني وهي تشعر بالرثاء لكل من يعيش خارج هذا الفردوس الأرضي.

وصلت حافة المياه فلاحظت بلل التربة الذي لم تجففه الشمس بعد، مما يشي بانحسار المياه. انقبض قلبها لحظة، لكنها سرعان ما تشاغلت بمطاردة طير كان ريشه يبعث تحت الشمس ألواناً زاهية متداخلة. غير أن هاجس قلق خفي ظل ينبض داخلها مما دفعها للذهاب في اليوم التالي إلى حافة المياه. هالها أن مساحة الجفاف قد اتسعت لكنها عجزت عن تفسير ذلك إذ لم يسبق للمياه أن تحركت من مكانها.

عادت إلى البيت يتلبسها القلق تحكي لأسرتها ما رأت. أطرق أبوها لحظات ثم رفع رأسه ليقول بصوت خافت حزين «صدرت أوامر بتجفيف الأهوار». صاحت الجدة كاشفة عن أسنان سوّدها دخان التبغ الرديء «ماذا؟ من يستطيع أن يجفف هذا البحر؟».

ذكّرها بحملات قص البردي التي نُفذت سابقاً فحولت أجزاء كبيرة من الهور إلى مياه جرداء بلا نبات، فردت الجدة بنبرة تشفي «وهزمهم القصب. ما إن يغادرون منطقة حتى يعود البردي لينبت من جديد. أنا واثقة أن الماء أيضاً سيهزمهم». تساءل الابن بحيرة «هل ينبت الماء كما البردي؟».

أصبحت مهووسة بتفحص حافات الهور. تذهب إلى هناك أكثر من مرة يومياً. هالها أن المياه تتراجع بسرعة هائلة ومعها تتراجع الأسماك وتزدحم الطيور على ما تبقى من المساحات المائية.

وبدأ البشر يزدحمون على رقعة صغيرة حتى وصل الجفاف إلى أرضهم. وفي ظرف أيام قلائل، عبرهم مخلفاً وراءه أرضاً طينية رخوة تملؤها الأفاعي وأكداس السمك الميت الذي لم يجد منفذاً للهرب من هذا المصير. هاجرت الطيور الجميلة وانغرزت الزوارق في الطين مثل جثث هامدة.

اجتمع رجال الأسرة وعجائزها وقرروا الرحيل إلى المدينة المجاورة مؤقتاً على أن يعودوا مع عودة المياه إلى الأرض. أصيبت بما يشبه الهستريا وهي تسمع بالقرار. حاولت إقناعهم بالانتقال إلى رقعة المياه المتبقية. رد أبوها بأسى «لا فائدة، سوف تجف تلك البقعة قبل أن نصل إليها».

أخرجت الجدة من ثنايا صدرها سواراً من الذهب رديء الصنع ملفوفاً بعناية بخرقة حال لونها، وخلعت النساء ما عليهن من خلاخيل وأساور فضية جمعها الأب وباعها في العمارة ليستأجر بثمنها البخس بيتاً مهدماً تتآكله الرطوبة وتسري على أرضه جيوش

من الحشرات. حزموا أمتعتهم وغادروا المكان يلفهم صمت حزين وهم يجرجرون خطاهم مثل جيش مهزوم. سارت خلفهم، تتلو في سرها الآيات التي حفظتها منذ الصغر وتتوسل بالأئمة والأولياء أن تحدث معجزة تعيد ذلك الفردوس كما كان.

لكن المعجزة لم تأت، ووصلوا إلى العمارة. كانت بيوتها متداعية وشوارعها خربة متربة كأن يداً عملاقة رشت المدينة كلها بأطنان من التراب. بدا كل شيء فيها ترابي اللون حتى ملابس الناس ووجوههم. هزها حنين جارف إلى تلك الجنة الضاحة بالألوان، النبات الأخضر وورود الماء والطيور التي تحمل فوق ريشها كل ألوان الدنيا كأن الطبيعة أوجدتها هناك لتكمل بها تلك اللوحة المذهلة في جمالها وتفردها.

سارت الحياة بالأسرة متعثرة في المدينة. خرج الأب وأولاده الثلاثة للعمل. هنا في المدينة يُباع كل شيء ويُشترى حتى السمك ويا للعجب. راحت تلك الأيام التي كان فيها السمك متاحاً حلالاً لكل من يصطاده ولا مكان في المدينة للطيور ينصبون شباكهم لاصطيادها ولا مساحات لزراعة الرز، غذاء العائلة الرئيسي يطبخونه في قدور يعلوها السخام ويصنعون من طحينه خبزاً ويستخدمون بقاياه لإشعال النيران.

هنا في المدينة، تحدد التقاليد الصارمة حركة الناس وعلاقاتهم وحتى أحاديثهم. وأصبحت قعيدة البيت إلا ما ندر. وإذا ما خرجت فلا بد أن ترتدي العباءة السوداء لتغطي جسدها كله. ذهبت تلك الأيام التي كانت تطلق فيها شعرها للريح ووجهها وجسدها للشمس كما تطلق لسانها الحاد ممازحة شباب المنطقة

وشيوخها وفتياتها وعجائزها.

وبدأ ذلك الجسد الفتي يذبل وتراخت عضلاته بعد أن حُرمت من رياضتها اليومية على ظهر الزورق، واستحالت تلك السمرة البرونزية إلى شحوب يكسو وجوه من يعيشون في بيوت رطبة لا تدخلها الشمس.

شح الرزق بمرور الزمن وأخذ البيت يمتلئ بالأطفال الذين ينجبهم رجال في أوج شبابهم ونساء ولودات. وعندما تقدم لخطبتها رجل لا تعرفه يمتلك دكاناً لبيع القماش في السوق وافقت على الفور. كانت تريد أن تدفن نفسها مع الزوج وشغل البيت وإنجاب الأطفال. وفرحت الأسرة بهذا المتقدم الذي لم يتسن لها رؤيته سوى مرة واحدة عندما استرقت النظر من نافذة البيت وهو يطرق بابهم لاستكمال إجراءات الزواج. انقبض قلبها لمنظره. كان في أواسط العمر، طويل القامة ضامر العضلات حد النحول، شيء شبيه بفزاعة الطيور التي تنصب على أطراف حقول الرز لطرد الطيور. كانت تتمنى شاباً عريض الصدر، مفتول العضلات، ولكن ما فائدة التمني؟ تم الأمر بسرعة فائقة ولمَ التأخير في صنع الخير؟

لطخوا وجهها بالأصباغ وأصابعها بالحناء. ألبسوها ثوباً اشتراه «التاجر» على حسابه وحشروا قدميها في حذاء ضيق وثقيل الوزن. ساروا بها في زفة صاخبة ورعبها يتصاعد كلما اقترب الموكب من منزل الزوجية ليصل إلى ذروته وهي تقف وحيدة في غرفة النوم.

دخل العريس بقامته المديدة، تكاد عظامه الناتئة تلوح من خلف عباءته الجديدة. أطلقت النسوة المرافقات زخة من الزغاريد ثم أغلق

الباب عليهما. خطا نحوها خطوة هائلة بساقيه الطويلتين. تنحنح ثم قال «بسم الله الرحمن الرحيم». صدمها صوته فلقد كان رفيعاً أنثوياً. انهارت تبكي على الأرض.

لكن، لا بد مما ليس منه بد، ومرت الليلة الأولى كما ينبغي لها أن تمر، لكن ذكرياتها المرعبة ظلت تلاحقها شهوراً عديدة. وبمرور الأيام اكتشفت أن وراء تلك القامة العجفاء يكمن قلب كبير يمتلئ بالطيبة والحنان. لم تستطع أن تحبه وصورة الفارس وهو يخترق غابات القصب بصدره العريض تملأ خيالها. إلا أنها اطمأنت إليه ورعته كما ينبغي لأية زوجة محبة أن تفعل. سارت بهما الحياة الهوينى وبدأ الأطفال يتقاطرون واحداً إثر آخر، يملأون حياتها الفارغة بضحكاتهم وبكائهم وطلباتهم.

في يوم، زارتها صديقة من أيام الأهوار وقد امتلأ وجهها بشراً. قالت لها «سنعود إلى موطننا. عادت المياه تتدفق على الأهوار من جديد. ما رأيك؟ ألا تنوين العودة؟» رمقت أطفالها بنظرة خاطفة، تنهدت وهي تتمتم «بعد خراب البصرة؟»(*).

(*) مثل يضربه العراقيون عندما يأتي الفرج بعد فوات الأوان.

بطاقة شخصية

* دكتوراه في الإعلام.
* بكالوريوس في اللغة الإنكليزية.
* رئيسة تحرير مجلة «تواصل» مجلة متخصصة في شؤون الإعلام والاتصالات.
* رئيسة تحرير جريدة «النهضة» سابقاً.
* نائبة رئيس تحرير جريدة «المدى» سابقاً.
* عملت في مختلف المجالات الصحافية لأكثر من ثلاثين عاماً.

ذكريات يوم كئيب في ربيع مهاجر

صباح آرام

في هذا الشرق المنكوب بويلات الاستبداد والحروب السقيمة، كان لبلدة (ج) الواقعة بين محافظتين مهمتين النصيب الأكبر، في يوم ربيعي يتفاعل فيه عادة الإنسان مع شذا الزهور وعبيق الرياحين.

عشت في رحم الرعب الكبير ذلك اليوم الأسود، يوم كانت سيارات (رانج روفر) البيضاء بأبوابها الخلفية المفتوحة على مصراعيها حيث يطل منها المسلحون بفوهات رشاشاتهم على الشوارع الخالية وزعيق المكبرات: «كل من آوى مقاتلاً في داره أو ساعد أحدهم سيعتقل ويعاقب ويسجن معه أفراد عائلته وتهدم داره». لم يكن هذا التهديد كلاماً فارغاً بل كان جدياً وجدياً للغاية. لا ولن أنسى ما عشت من الزمن العتيد ذلك الزعيق المرعب حيث سمح

الفراغ الكبير في الشوارع لمزيد من الصدى المخيف ليملأ جنبات المدينة.

كان المتسلطون قد أعلنوا المناطق المحيطة بالقرية مناطق محظورة وأنذروا سكانها بإخلائها. ولما انتهت المدة المذكورة، بدأ الأعوان بالتوغل في عمق تلك المناطق لاصطياد من تبقى فيها من القرويين، فيما لاذ الفارون من الشبان بالجبال ونجوا بجلدهم. في لحظات الظهيرة حيث الرعب القاتل ينتشر في ذلك الفراغ المؤلم ويسكن كل زاوية، كنت أراقب الشارع من ثقب الباب الخارجي للدار وإذ بي أشاهد رجلاً قروياً بلون الجبال البنية، يمسك بقوة يد ابنته الصغيرة التي لا يتجاوز عمرها التسع سنوات ويطرق باباً تلو باب. يعرض بنته على سكان الدور لغرض قبولها، خشية من أن يخطفها أعوان الآغا، وهو يتوسل «خذوا البنت، لتكن بنتاً من بناتكم. اجعلوها خادمة. حباً بالله، حباً بالرسول، لا ذنب لهذه الفتاة الصغيرة».

بين فينة وأخرى يتردد صدى صليات البنادق في هذا الزقاق أو ذاك، ومع الصدى تضيع توسلات الرجل البني. لا أحد يجرؤ على قبول الفتاة، فيما المكبرات تعيد وتهدّد.

عندما خرجتُ على صدى طرقة الباب، اصطدمت بالكم الهائل من أكثر أنغام الاستعطاف في حياتي: «حباً بالله... حباً بالرسول...هذه الفتاة لا خطيئة لها...خذوها بنتاً لكم... اجعلوها خادمة... لا يهم أين أذهب أنا...».

لا زلت حتى اليوم أرتعش خجلاً ورعباً. حتى اليوم تخنقني

العبارات. حتى اليوم كلما تذكرت لحظات استقبال كل ذلك البؤس من القروي الهارب، أشعر وكأنني أصغر من حجمي مليون مرة. كان ينبغي قبول الفتاة وليكن ما يكون. ولكن ماذا أفعل بأولادي الصغار وأكبرهم لا يتجاوز سبع سنين، ماذا أفعل لو علم الأعوان بالأمر؟ رفضت استعطاف القروي كما رفضه جيراني. وأتذكر حتى اللحظة بل سأتذكر إلى آخر لحظة من حياتي مناكب القروي اليائس وهو يسير في الاتجاه المعاكس ويجر فتاته جراً وقد ضاقت به السبل.

بعد لحظات من اختفاء القروي مع ابنته، سادت الهمهمة أرجاء البلدة وامتلأ الشارع الرئيسي الذي يخترق وسط البلدة بالضجة. مرّت قافلة طويلة من سيارات نقل الركاب وعلى متنها المئات من الذين تم جلبهم من القرى المحيطة بالبلدة. ولما كانت وشائج القربى تربط بين الكثير من عوائل البلدة بالسكان في تلك القرى، ساد الهياج تلك العوائل واندفعت مع الآخرين لمشاهدة القافلة الطويلة من السيارات.

يا لهول ما شاهدت...

شاهدت آلاف العيون الحائرة وقد حوصرت خلف نوافذ السيارات، البعض يبكي والبعض الآخر يستغيث، ورجل يستصرخ أحدهم أن يأخذ باله ممن تبقى من العائلة، وامرأة تدفع الحارس عند باب الحافلة وكادت تنجح في إسقاطه لو لم يضربها أحد الحراس بأخمص بندقيته فوقعت تئن من الألم. في ذروة الهياج قذف البعض ممن كانوا على الأرصفة «الأعوان» بالحجارة، لكن الرد جاء حاسماً وقاسياً. الصليات المدوية فرّقت الجمع الصغير فيما

توجهت الحافلات جنوباً وعددها بين ٤٠ و٦٠.

لا أسرد قصة خيالية ولست في معرض الشهادة، ولكن لا بأس من نقل محن بعض المعارف:

صورة الحاج لطيف وهو من وراء قضبان الحافلة يحدق بذهول في الموجودين على الرصيف ما زالت راسخة بذهني. كان في السبعين من العمر وكنت أعرفه منذ سنين، إذ كان يعيش في الزقاق المواجه لمدرستي مع ابنه الوحيد ياسين، وهو ابنه من زوجته الثانية والتي تزوجها بعد أن استقر في المدينة. أما زوجته الأولى مع ولديها فقد مكثوا في القرية التي كانت تبعد عن البلدة نحو نصف ساعة. كان ياسين قد تزوج قبل هذه الأحداث بنحو ستة أشهر تقريباً. وكان قد ترك صفوف أعوان الآغا مع اشتداد المعارك واستمرارها لفترة طويلة ولجأ إلى قرية والده، بعد إعلان الآغا المناطق المحيطة بالقرية مناطق محظورة. التقيت الحاج لطيف صدفة في طريق المدرسة وسألته عن أخبار ياسين، لأنه كان أحد طلابي. كان قلقاً جداً عليه. ومن سوء حظ الحاج لطيف أن صادفت زيارته لولده في ذلك اليوم السيئ الصيت فوقع كالآخرين في كمين للأعوان. لم تنفعه التوسلات ولا ما ردده من الأسباب. فكان من جملة الذين اقتيدوا. ورغم نجاة ابنه، إلا أن زوجة ياسين وقعت في كمائن الأعوان وكانت حاملاً في شهرها الخامس كما روى لي العديد من أقربائها. ولما عاد ياسين من الغربة بعد زوال أسباب المحنة، تناقلت الأخبار بعد أكثر من عقد ونصف، نبأ العثور على جثث الكثيرين من ضحايا تلك العملية ومن بينهم أمرأة حامل. يا ترى هل هي زوجة ياسين؟

وأذكر أيضاً صراخ صبي التصق فجأة بساق (م) وكان من الذين يتفرجون على المأساة بعيون دامعة وهو يقول: عمي لقد أخذوا والدتي! فصاح (م): ألم تكن والدتك في البلدة منذ أسبوع؟ فأجاب الولد: نعم، ولكنها ذهبت إلى القرية أمس للقاء أبي وقد شاهدتها قبل قليل في إحدى الحافلات ولا أدري أين والدي... بعد تلك الأحداث المرة بسنين سألت (م) عن الصبي ذاك فقال لي إنه، ورغم محاولة أهل الخير وبعض الجيران، ساءت أوضاعه النفسية يوماً بعد يوم وأنه راجع العديد من الأطباء في سبيل شفائه ولكن دون جدوى. وظل الصبي يهذي وهو يركض في أرصفة الشارع الرئيسي في البلدة مشيراً إلى كل الحافلات المارة، يقذفها بالحجارة ثم يبتعد مسرعاً، وصبية البلدة يلاحقونه ناعتينه بـ(علي المجنون).

أجواء حرب أعلنها أنصار الآغا على أبناء المنطقة. «حرب شاملة» قد لا يعجب البعض وقعها، لكنها الحقيقة. عدت يومها مسرعاً إلى المدرسة المسائية التي كنت أديرها. كان الوقت عصراً والطلاب لجأوا إليها بعد فرارهم من بيوتهم ومن الطرقات، حيث وجدوا المدرسة أكثر أمناً.

دخلت المبنى الذي آوى نحو مئة طالب ومدرّسين. سارعت إلى إغلاق الأبواب الخارجية وشاهدت العشرات من سيارات «لاندكروزر» البيضاء وهي تخترق شوارع البلدة بحثاً عن الذين قذفوا الحجارة. كان منظرهم مرعباً وهم يطرقون أبواب الدور المجاورة بأحذيتهم الثقيلة ويتسورون حيطان المنازل ويخرجون الشباب من تلك الدور، وقيل لي فيما بعد إن أمهات أو أخوات هرعن لنجدة أبنائهن أو إخوانهن اقتدن أيضاً.

أدخلت الطلبة إلى الصفوف وطلبت منهم التزام الهدوء، وفي قلبي ألمٌ يشق بطون الجبال. قلت لهم: «أعلم أنكم لو خرجتم لن تعودوا أبداً». كان تلفون المدرسة يرن باستمرار وأهالي الطلاب يرجوني إبقاء الطلاب داخل المدرسة حفاظاً على سلامتهم. هكذا ظل التلفون يرن..

مع الغروب، بدأت القذائف تنهال على الجانب الآخر من البلدة مع صليات قوية من الرشاشات. كان ذلك نذيراً بانتهاء «عملية جمع المناوئين» وترحيلهم إلى مصير مجهول. وتحدث الناس عن أرقام متباينة للضحايا، فيما ظلت العوائل تأمل عودة الأقرباء والأعزاء.

بعد ذلك اليوم الأسود، كان جمع كبير من النساء المتشحات بالسواد ينتظرن على أرصفة الشارع الرئيسي. وكلهن آذان: هناك أخبار متضاربة عن عودة المقتادين. ومع مرور الأيام، ازداد إحباطهن وتناقص عددهن، وبعد شهور لم أجد واحدة منهن على تلك الأرصفة.

أحد طلابي كان في الجبل عندما اختفت عائلته، وهو الآن مسؤول في إحدى منظمات حقوق الإنسان المحلية، يقول: كنت في الخامسة عشرة من عمري عندما شاهدت السيارات المحملة بالأعوان من بعيد وهي تقترب من القرية. رأيت لآخر مرة عائلتي وهي تساق إلى الحافلة. تسمّرت في أرضي غير أن أحد أصدقائي سحبني من يدي وفررنا إلى الجبل. يحني رأسه ويردف بصوت خافت: هكذا نجوت ولكن لا أدري حتى اليوم، أي بعد نحو عقدين، أين عائلتي...

أما أنا، فأتذكر أنه بعد أسبوع من ذلك اليوم المشؤوم، سألت عن تلميذي (س)، فصفعني الجواب: لقد اقتيد مع عائلته عصر ذلك اليوم. اختفى (س) وما زال مصيره مجهولاً حتى يومنا هذا.

كثيرة هي القصص التي تروى عن ذلك اليوم المرعب وكثيرون منا لهم قصصهم. والذاكرة التي تخزن الرعب والحرمان ليس من السهل أن تعود إلى صفائها، الذاكرة التي سجلت مشاهد سوق المئات والتي اختزنت حدقات العيون الواسعة التي ترنو إلى الفراغ ستظل حبلى بتفاصيل للحزن خالدة خلود المنقوشات على المنحوتات الآشورية والبابلية والأكدية...

تخيلت المشهد ولازلت: «القروي الهارب» وقد قُبض عليه واقتيد مع ابنته الى إحدى الناقلات المخصصة للترحيل. تخيلته وقد نجح في تسليم ابنته إلى أحد الغيارى في الزقاق المجاور ولكنني لم أتحقق من هذا الأمر رغم العديد من المحاولات. وتخيلت أيضاً اموراً أخرى لكنها في الجملة كانت محض كوابيس في يوم أسود سُدت فيه الطرقات والسبل إلى المدينة المنكوبة وساد رعب قاتل من خلال صليات ورشقات الأسلحة الرشاشة وزعيق المكبرات المخيف. بدا كل شيء ممكناً إلا الخلاص بتلك الفتاة من جحيم الأسر والمصير المجهول. ومرة أخرى أتخيل أن الفتاة تم أسرها من قبلهم وبيعت مع الأخريات إلى سماسرة الجسد. وكلما تذكرت هذا الأمر ملأني شعور عظيم بالذنب.

أغدو متوتراً لا أطيق سماع حتى أهدأ الكلام من أحب أولادي وقد كبروا. أتمنى أحياناً لو جازفت بكل شيء وقبلت «الفتاة» في بيتي. وأنا أدرس مواد اتفاقيات جنيف وغيرها من التي صاغتها

النيات الحسنة لأناس نشطوا في مجالات حقوق الإنسان يملأني اليأس والإحباط. ففي يوم واحد شاهدتُ الإهانة لكرامة الإنسان وشاهدتُ الضرب والاعتداء الجسدي و شاهدتُ احتجاز المئات واقتيادهم إلى مصير مجهول وشاهدتُ وشاهدتُ... لا أستطيع أن أصدق أنه مع كل هذه الأتفاقيات واللوائح العالمية لحقوق الإنسان، حدثت في مدينتي الصغيرة تلك المأساة المروعة والتي لا تزال آثارها الكارثية تهز أعماقي بل جعلتني يائساً من كل الادعاءات الدولية.

ما زلت أتساءل: أين يا ترى صار هؤلاء؟ وأنا اليوم أقترب من أبواب التقاعد في الوظيفة التي طالما أحببتها، لا أزال أنتظر بعض من أحببتهم من التلاميذ والجيران. بين الحين والآخر تتردد شائعات لكن واحدة منها لم تتحقق، غير التي تقول إن المقتادين في ذلك اليوم الأسود لقوا حتفهم في ظروف مروعة.

شاهدنا المأساة تلك ولا زلنا نعاني من عواقبها. عجباً لهذا الإنسان! كيف يجرؤ أن يمارس العيش، أن يتقبل مزايا الحياة، وهو الذي عاين بالأمس مأساة لا توصف! لا زلت أسأل نفسي، وأنا خريج جامعي مطلع على بنود لوائح حقوق الإنسان العالمية: كيف تسنى للرأي العام والمحافل الدولية التستر على ما جرى؟ كيف ولماذا بقيت منظمات حقوق الإنسان صامتة؟ من الصعب علي الآن أن آخذ تصريحات تلك المنظمات محمل الجدّ وأن أؤمن بحرصها الفعلي الصادق على حقوق الإنسان.

لا تستغرب أبداً لو قلت اليوم إنني نادم جداً على يوم خذلت ذلك القروي. نادم لأنني لم أجازف في حمايته وابنته وأشعر

بالذنب لأنني لم أشاطر الآخرين مصيرهم ولم أسق معهم. لا تستغرب إذا قلت إنني، مع كل ما في الحياة من نعم أسبغها الله سبحانه على عباده، لا زلت أتمنى الموت في لحظات أغيب فيها عن هذا الواقع. أحاول أن أشرح لبعض الشباب الأوضاع التي كان يعيشها البلد في ذلك الظرف العصيب، غير أنني حين أخلو بنفسي تراودني الكوابيس ولا زلت غير قادر على التصديق أن (س) و (أ) و(ي)، الذين كانوا من أحب تلاميذي، غابوا عن وجه المعمورة. لا زلت أتذكر تلك الحدقات الواسعة لمئات الأزواج من العيون وهي تطل من نوافذ الحافلات يوم النكبة... وتحدق في الوجوه... لم أفهم معناها قط.. لم أفهم إلى ماذا كانوا ينظرون، وماذا كانوا يتأملون...

بطاقة شخصية

* من مواليد ١٩٤٩ كفري محافظة كركوك.
* خريج جامعة بغداد/ كلية التربية- قسم التأريخ ١٩٦٨ – ١٩٦٩.
* اشتغل مدرساً في المدارس الثانوية لغاية ١٩٩٧.
* أصبح مشرفاً تربوياً عام ١٩٩٧ في محافظة أربيل.
* عام ٢٠٠١ عين خبيراً في ديون وزارة التربية في إقليم كردستان العراق.
* عام ٢٠٠٦ عين مستشاراً في ديوان وزارة المال في إقليم كردستان.
* نشر عشرات المقالات الأدبية والبحوث التاريخية في الصحف والمجلات.
* كتب عشرات القصص باللغتين العربية والكردية.
* له كتاب موسوم بـــ(الملامح السياسية لتأريخ الكرد المعاصر) صدر باللغة العربية عام ٢٠٠٤.
* له العديد من البحوث التربوية المنشورة في الإصدارات التربوية.
* ساهم في إعداد العديد من الكتب المنهجية للمراحل الابتدائية والثانوية.

الضغط نحو إنكار الهوية والتمسك بها كمسك الجمر

طورهان كتانة

أنا تركماني. وكلما ذكرت هويتي القومية لا بد أن تأتيني صورة تأبى أن تفارق ذاكرتي منذ كنت في الثانية والنصف من العمر. في تلك السن المبكرة، اكتشفت هويتي غير مدرك أن الألم الذي زرعوه في داخلي سيستمر معي طوال حياتي. كان ذلك في ١٤ تموز/يوليو ١٩٥٩ في كركوك. يومها، تجمع الآلاف ليحتفلوا بالذكرى الأولى لثورة تموز. وما إن بدأت الاحتفالات ومسيرات الفرح إلا وبدأنا نسمع أصوات طلقات نارية وصراخاً وكلمات لا أفهمها. في خضم تلك الفوضى، طرق بابنا بقوة. فتحت والدتي الباب فاختبأتُ خلفها ومسلحون أمامها جاءوا يبحثون عن والدي الضابط في الشرطة. أقسمت لهم والدتي بأنه ذهب إلى عمله منذ الصباح الباكر. وفهمت فيما بعد أنهم جاءوا لقتله كما قتل

عشرات آخرون في ذلك اليوم واليوم الذي تلاه. يومها اصطحبتنا والدتي، شقيقتي وأنا، إلى بيت خالي لنحتمي عنده. كانت تسير بسرعة وتحثنا على الإسراع وتحاول أن تخبئنا تحت عباءتها لكي لا نرى الشارع. لكنني كنت أخرج من تحت العباءة، كلما تعبت والدتي من شدّ قبضتها، لأرى الجموع تتراكض هنا وهناك وبقع الدم في الشارع وأصوات صراخ تأتي من كل جهة. كانت أقواس النصر التي نصبتها المؤسسات الرسمية ما تزال تحتفظ بلافتات تحيي الثورة التي جاءت «لأجل الشعب ورفاهيته». وبين الحين والحين كانت والدتي تسلم على قريبة أو صديقة تهرب بصغارها وتخبرها باقتضاب أن إحسان وعطا وقاسم وغيرهم قد قتلوا.

بعد سنوات، أدركت أن ما جرى في هذين اليومين إنما حدث لأننا تركمان. جعلني ذلك أتمسك بهويتي، لكن دائماً ضمن عراقيتي، وصنع مني الرجل الذي أصبحته اليوم. ما زلت أشعر بضغط لأنكر هويتي ولكن هذا يحتم عليّ أن أنكر تاريخي وأنكر أبي وأمي وهذا ما أرفضه. وإذ أكتب شهادتي إنما أكتب عن جزء مهم من الشعب العراقي واجه ويواجه الكثير من المعاناة.

قضيت طفولتي متنقلاً بين شمال العراق وجنوبه، بين شرقه وغربه، بسبب عمل الوالد في الشرطة. كل من كان حولي يتحدث بغير التركمانية. كانت والدتي تعلمنا لغتنا الأم غير أنني لم أكن أتحدثها إلا مع جدتي التي لم تكن تعرف سوى التركمانية. وكلما حاولت جاهداً أن أتواصل بهذه اللغة كانت الكلمات تهرب مني! وهكذا بدأ التحدي: أن أتقن لغتي الأم ولا أخجل منها بل وأن أعتزّ بها، ذلك الاعتزاز الذي دفعني والآلاف إلى الغربة فيما ذاق الآلاف من الآخرين الأمرّين.

تنقلت مع أسرتي من مدينة عراقية إلى أخرى. في صيف ١٩٦٦ حين كان والدي مدير الشرطة في مدينة الرمادي، كنت سعيداً وأنا أتسلّم نتيجة الامتحانات النهائية، إذ نلت المرتبة الأولى. هممت مسرعاً إلى البيت لأخبر والديّ بالنبأ السار وإذ بي أشعر بألم غريب مفاجيء في ظهري جعلني أنسى فرحة التفوق. سقطت أرضاً وسمعت زميلي في الصف يصرخ «تركماني وتطلع الأول علينا» وأدركت حينئذ أن الألم سببه القلم الحاد الذي طعن به ظهري. وفي الإعدادية، وكنت حينها في بغداد السبعينيات، بدأت ألمس الضغط الحقيقي. حتى في الكتب المنهجية التي درسناها والخاصة بالعراق كان يأتي ذكر العرب والأكراد ويتم تجاهل الآخرين. كان عليّ أن أحذر الدخول في مناقشات مع الطلبة عن قومي وتاريخهم واعتزازهم بعراقيتهم لأنهم ببساطة كانوا يعتبرونني من بقايا «الاستعمار» العثماني. لم يكن بمقدوري حينئذ أن أقنعهم بأن التركمان كانوا في العراق قبل العثمانيين بقرون طويلة.

ثمة بعض الدراسات التاريخية تشير إلى علاقة السومريين، وهم أصحاب أول حضارة في تاريخ العراق قبل أكثر من ٥٠٠٠ سنة، بالعنصر التركي. إذ نقرأ فيها أن السومريين يعودون في الأصل إلى قوم (الهون) وهم أصل الأتراك أيضاً. أعتقد أن أتراك العراق ينتمون إلى قبائل عديدة، يؤلف التركمان واحدة منها. لكن الاستعمار البريطاني الذي حكم العراق بعد الحرب العالمية الأولى وضع كل تلك القبائل تحت مصطلح (التركمان) في محاولة لقطع علاقتهم بالعالم التركي خارج العراق.

في السبعينيات من القرن الماضي، اشتد التضييق على الشباب التركماني الذي كان يعمل على نشر الوعي القومي. كانت هذه

الحملة الأكثر شراسة التي استهدفتهم منذ تشكيل دولة العراق الحديثة في ١٩٢١. في البيت، كانت نصائح والديّ تطالبني بالحذر دائماً، وأثناء قضاء العطل الصيفية في كركوك كنت أسمعهما يتهامسان بالملاحقات التي طالت من نعرفهم من أقرباء وأصدقاء.

وفي عام ١٩٧٣، حلّ الدكتور نجدت قواجق ضيفاً علينا في بغداد طيلة أسبوع وكان نصيبي أن يشاطرني غرفة نومي. كان قد تم تعيينه للتو في كلية الهندسة ــ جامعة بغداد بعد أن أصبح أول عراقي يحمل شهادة دكتوراه في هندسة المكائن الزراعية. طوال فترة إقامته عندنا، كان يشرح لي المصاعب التي مر بها والتي سأواجهها فيما بعد في الحياة العلمية والعملية من جراء قوميتي.

بناءً على شهادته وغيره من التركمان، قررت أن أسافر إلى الخارج لمتابعة دراستي، وكانت تركيا خيار والدي لتشابه اللغة. في ٢٨/ ٨/ ١٩٧٤، كنت في المحطة العالمية للقطار في بغداد وسط أهلي وأصدقائي أنتظر موعد مغادرة بغداد إلى اسطنبول. لم أعرف حزناً مثل ذلك الحزن الذي ملأني ساعتئذ. طلب مني أصدقائي أن نلتقط صورة للذكرى وحقاً بقيت ذكرى... فقد كنا سبعة أصدقاء، سافرت أنا فيما أكلت الحروب والإعدامات الستة الآخرين! غادرت بغداد وحيداً، وأنا في السابعة عشرة. وأذكر والدتي وهي ترتب لي حقيبة السفر وتضع فيها أدوات حلاقة. وعندما لاحظت دهشتي قالت بحنان بأني سأحتاج لها في السنة القادمة. في القطار، لم تفارقني دمعتها التي ربما ذرفتها وهي تتخيلني أحلق ذقني لأول مرة بعيداً عنها.

رحلة القطار كانت جميلة على طول المسافة من بغداد إلى الحدود السورية. ألوان حقول وأنواع أشجار مختلفة. دامت الرحلة ثلاثة أيام لم أنم خلالها إلا سويعات. كنت مأخوذاً بفكرة السفر وفي الوقت نفسه بخوف ألّا أعود إلى العراق. وفي الواقع لم أعد إلا مرة في العطلة الصيفية في ١٩٧٦. غير أن خشية أهلي من تعرضي لأي سوء، جعلتني أبقى جليس البيت والرجوع إلى أنقرة في صحبة شقيقي محمد الذي التحق بدراسة الطب. ولم أعد إلى العراق ثانية إلاّ في سنة ٢٠٠٣.

في تركيا، وبالرغم من قرابة الدم بين الأتراك والتركمان وتشابه اللغة، كان يلازمني إحساس مرير بالغربة لا سيما كلما ذهبت إلى السفارة العراقية لتجديد جوازي أو لتسجيل اسمي كطالب عراقي يدرس في الخارج ليتمكن أهلي من إرسال الأموال اللازمة لتغطية نفقاتي أو لأخذ إفادة أرسلها إلى دائرة التجنيد لكوني طالباً، فكانت التحقيقات تجري معي وتعرقل أوراقي. قررت أن أتفوق بدراستي للطب وأن أحتفظ بجوازي العراقي وألا أضع بغداد في زاوية من القلب كذكرى، بل كانت تعيش معي كي أظل أحن إليها. كان الحنين يجرحني ويدفعني إلى حلم العودة والإصرار على هويتي.

ومع نهاية السبعينيات، بدأت الأخبار المفجعة تأتي من كركوك والمدن الأخرى التي يسكنها التركمان. شرع الشباب يغادرون العراق بعد أن أصبحت الحياة صعبة فيه وكنا يومياً نستقبل في أنقرة شابين أو ثلاثة. مع بداية الثمانينيات توافدت عشرات العائلات التركمانية ومن ضمنها عائلات العسكريين الذين يهربون من جبهات القتال في الحرب العراقية ــ الإيرانية. وجاءت والدتي

لتطمئن علينا وأخبرتنا بأن مضايقات كثيرة بدأت تواجه كل من لديه أقارب في الخارج ويجري التحقيق معهم فضلاً عن مصادرة أملاك بعض الأشخاص بحجة الاشتباه فيهم. وبعد تلك الزيارة لم أرها لمدة ٩ سنوات، أصبحتُ خلالها طبيباً وناشطاً.

كنت أنظر في المرآة وأتذكر والدتي: تراها تتخيلني كما أنا الآن؟ هل كانت الصور التي أرسلها إليها كافية لتشعر بي؟ هل تمد يدها لتتحسس وجهي وتتأكد أني حلقت ذقني جيداً وتقبلني؟ أحياناً كنت أخفف من لوعة الشوق بالاتصال بأهلي، وكان علي المحاولة ساعات ليحوّل مأمور البدالة الدولية في بغداد مكالمتي إلى البيت. وما إن كانوا يسمعون اللغة التي أتحدث بها حتى ينقطع الخط!

في ١٩٩٠، جاءت والدتي لزيارتي. أتذكر تلك اللحظات وأنا أراقبها تجتاز صالة القادمين في مطار اسطنبول. خبأت دموعي في زاوية من قلبي ــ وما أكثر زواياه. البعض كان يتخيلني قاسي المشاعر، لكنني في الواقع اعتدت السيطرة على عواطفي لأستمر عقلانياً مدافعاً بجد عما أؤمن به. اقتربت من والدتي، ودموعها جعلتني أتخيل دموع أمهات فقدن أبناءهن في الحرب. وأيقنت أن الدمعة وإن كانت مخفية في زاوية القلب فهي تحرق.

في ١٩٩١، وبعد انتهاء حرب الخليج وبدء الانتفاضة، اشتدت المضايقات وشرعت مئات العوائل تغادر كركوك والمدن الأخرى، وسكن بعضها في مخيمات على الحدود بين العراق وتركيا وأخرى على الحدود مع إيران. وبعد أربع سنوات، غادرت شقيقتي وأولادها كركوك نحو أربيل كخطوة أولى لمغادرة العراق نحو المجهول. كانت العائلات تتعرض لتفتيش دقيق في آخر نقطة

سيطرة حكومية وعليها أن تجد حجة مقنعة ليسمح لها بالذهاب إلى أربيل وإلا ترغم على العودة إلى كركوك. وبين آخر سيطرة حكومية وسيطرة أربيل، التي كانت من ضمن «الملاذ الآمن»، مسافة كيلومتر على العوائل أن تقطعها سيراً على الأقدام أو على متن شاحنة.

لا أستطيع أن أقيم عدد العوائل التركمانية التي غادرت العراق إلى تركيا ومن ثم إلى دول أوروبية وكندا والولايات المتحدة الأميركية وأستراليا. ساعدت الكثيرين في الحصول على لجوء إنساني بعد أن فشلتُ في إقناعهم بالانتظار للعودة إلى العراق. كانت ظروفهم صعبة والجميع يبحث عن مكان آمن بعيد عن الحروب والحصار لمنح حياة أفضل لصغارهم. البعض حاول الهجرة بصورة غير شرعية، من خلال دفع آلاف الدولارات لمهربين على متن قوارب لم تعد صالحة للإبحار بالنتيجة غرق المئات فيما أعيد مئات الآخرين إلى مصيرهم في العراق.

وجاء نيسان/أبريل ٢٠٠٣، وعدت إلى العراق وبالتحديد إلى كركوك وبغداد. لم تكن كركوك كما غادرتها، مدينة جميلة لم تعرف لياليها السواد، إذ كانت النيران الأزلية تمنح وهجها لتحيل سواد الليل إلى فجر دائم. كان الدمار والحرائق والدخان تغطي كل شيء. وفي بغداد، لازمت البيت لأيام، فالدمار كان مفجعاً والحديث عن الاحتلال مؤلماً ولم أجد أصدقائي إذ كانت قد التهمتهم الحروب. لازمت البيت مخافة ألا أجد ذكرياتي. وعدت إلى كركوك التي دخلت في دوامة جديدة لا تختلف عن التي عاشتها. العراق كله دخل دوامة من العنف والدم اليومي والاقتتال.

ما زلت ناشطاً تركمانياً عراقياً، أحاول أن أثقف الشباب عن معنى الالتزام بالهوية القومية بعيداً عن الشوفينية، كيف أبقى عليها من غير التجاوز على الآخرين ودون استخدام القومية سلاحاً لإلغاء الآخرين.

أغمض عيني محاولاً استرجاع بغداد يوم غادرتها قبل أكثر من ثلاثة عقود وكانت إحدى أجمل مدن المنطقة وأغناها تراثاً. كانت كتاب تاريخ مفتوحاً وكانت تسير بثقة نحو المستقبل. بين تلك الصورة المخبأة في عيني وبين بغداد الآن مسافة طويلة من الحروب والحصار والاحتلال جعلتها إحدى أكثر مدن العالم فقراً وخراباً وخطورة على الحياة. لقد فقدت بغداد ألوانها البهية واكتفت بلونَي الأحمر الدموي والأسود من خلال لافتات تنعى قتلى أعمال العنف اليومية. أغمض عيني ثانية محاولاً استرجاع صورة كركوك حين غادرتها آخر مرة وكانت تحمل لقب أنظف مدينة في العراق. كركوك بتاريخها وقلعتها ونيرانها الأزلية وبحار النفط التي تطفو عليها، أحيلت إلى مدينة تكاد تكون من القرون الوسطى فيما يلفها الخوف من المجهول. فقط في العراق نخاف من الغد. أتمسك بقوميتي التركمانية وعراقيتي وكأنني ممسك بالجمر. ها أنا أصبر على ألم الحرق مدركاً أن كل ما واجهناه لم يكن خيارنا. خيارنا الحياة والسلام، هل نقدر على تحقيق ذلك؟

مرة أخرى أبتعد عن والدتي فأنا في العراق وهي غادرته، تصلّي داعية الله سبحانه وأنا أمسك قلبي كلما رن الهاتف مخافة سماع خبر يفجعني. لكن تبقى أمي أكثر حظاً من أمهات فقدن أبناءهن وأبقى أكثر حظاً لأنني ما زلت حياً.

بطاقة شخصية:

* مولود في كركوك عام ١٩٥٧.
* حائز بكالوريوس الطب من جامعة أنقرة في عام ١٩٨١.
* «بورد» اختصاص في الجراحة النسائية.
* رئيس الجمعية الثقافية والتعاونية لتركمان العراق (١٩٩٣ ـ ١٩٩٥).
* كاتب في صحف عراقية ومؤلف الكتب المنهجية للصفين الأول والثاني للدراسة التركمانية.

ذاكرة مثل طريق الموت: تكتظ بالجثث وتشهد للحياة

عماد كاظم حسن

على شاطئ بحر، بعيداً عن بلدي، تأتيني موجة مسرعة تغمرني. أحاول أن أمسكها، لكنها تغادرني مسرعة أيضاً. ها أنا قرب البحر، لا أدري أي بحر ولا يهم، فطالما حلمت بالبحر وأن أكون بحاراً.

في مدينة النجف الأشرف، حيث عشت طفولتي، بحر اسمه بحر النجف. وهو في الواقع صحراء مترامية، يقولون إنه كان بحراً هائلاً في تاريخ ما. معه، بدأ خيال الطفولة يأخذني: تراه كيف يكون البحر ممتلئاً بالمياه وكيف يعبره البشر؟ وفي المدرسة اكتشفت الباخرة وأن المحيط أكبر من البحر وأنه بمقدوري أن أصبح بحاراً لأكون قريباً منه أو لأعيش فيه دائماً. الآن، وأنا أتذكر البحر

وأحلامي وأحاول أن أكتب ما عشته من ألم في حرب ١٩٩١، ألوم الطفل الذي كنته والذي عشق البحر زارعاً في داخلي دموعاً تأبى علي مغادرة قلبي.

كنت والطاقم و٢٨٤ من «رسولات سلام» من مختلف دول العالم على متن «سفينة السلام» المعروفة باسم ابن خلدون قد رسونا في ميناء أم قصر (قرب البصرة) عصر ١٤ كانون الثاني/ يناير ١٩٩١، ووصلنا بغداد براً في فجر اليوم التالي، أي يوم الإنذار النهائي لبدء الحرب على العراق.

في الثانية والثلث من صبيحة ١٧ كانون الثاني/يناير، استيقظنا على أصوات مروعة لانفجارات عنيفة هزت العاصمة. كنت معتاداً على سماع أصوات القصف المدفعي، إذ كنت مقيماً في البصرة إبان الحرب الإيرانية ـ العراقية، غير أن دويّ الانفجارات هذه المرة مختلف تماماً. وأنا في طريق عودتي من النجف، حيث تركت عائلتي لألتحق بسفينتي في أم قصر، عرفت أن المئات من الطائرات الأميركية هاجمت بغداد في لحظة الحرب الأولى.

كان الطريق إلى الجنوب سالكاً وإن كان مشوباً بالحذر. فذهبت إلى أم قصر مباشرة. كان القصف شبه متواصل ونيران كثيفة تتصاعد من المواقع النفطية في منطقتي الشعيبة والرميلة الشمالية.

السفينة، التي كنت ربانها، كانت مخصصة للحمولات العامة (١٢٦٠٠ طن) وكانت في الوقت نفسه تُستخدم لتدريب طلاب الأكاديمية البحرية، وبالتالي مجهزة لاستيعاب ٣٠٠ شخص ومخازنها ممتلئة بشتى أصناف الغذاء. مع اشتداد القصف وقطع

طرق التموين، بدأت طواقم السفن والزوارق البحرية الراسية على الرصيف تأتي لتأخذ التموين من سفينتي. وبالرغم من أننا لم نشارك في الحرب، استهدفنا القصف مما تسبب في مقتل الكثير من البحارة.

مهما مرت بي السنوات لن أنسى ذلك اليوم البارد، في منتصف شهر شباط/فبراير، الذي شاهدت فيه جثة طافية على سطح الماء ومتحللة بعض الشيء. كانت العلامة الوحيدة بنطلوناً عسكرياً بجيوب فارغة وقميصاً داخلياً. انتشلنا الجثة وذهبنا بها إلى المستشفى العسكري في أم قصر فرفضوا تسلمها، لتوقف ثلاجة حفظ الجثث عن العمل بسبب انقطاع التيار الكهربائي وعدم توفر أية وسيلة لنقل الجثة إلى «مركز تسليم الشهداء». عدنا بها وقرّرنا دفنها في نهاية الأرصفة العشرة، قرب مرسى سفن الركاب حالياً. دفناها قريباً من سطح الأرض لاعتقادنا بأننا سنتدبر وسيلة لنقلها إلى البصرة في اليوم التالي. لكننا فشلنا، فيما حاولت الكلاب مراراً حفر القبر الضحل لالتهام الجثة. كلّفنا جندياً، كان قد أضاع موقع وحدته، بحراسة القبر على أن نزوده بالغذاء والماء. لكن ذلك الجندي الشهم أعياه الخوف من الكلاب، فعمدنا إلى تعميق القبر وتغطيته بالحجارة كعلامة واضحة للمستقبل.

وأذكر بالدقة أيضاً يوم ٢٤ شباط/فبراير ١٩٩١، حين منحوني فرصة ثلاثة أيام للذهاب إلى النجف للاطمئنان على الأهل. جاءت الفرصة في وقتها، فقد كانت معنوياتي شبه منهارة بعد الضربات الجوية التي تلقاها العراق ــ أرضاً وجيشاً ومنشآت ــ وانقطاع الاتصال بالأهل. كانت القنابل التي أصابت الرصيف قد ألحقت أضراراً بسفينتنا إذ ثقبت الشظايا بدنها. ولتوقعي أن تُستهدف

السفينة مرة أخرى، قمت بجمع معظم ملابسي وأغراضي الشخصية وغادرتها صباحاً. كان معي في الإجازة ياسين، مهندس السفينة، وهو من مدينة الناصرية. كانت الطرق مقصوفة والجسور مدمرة ولم يكن أمامنا سوى طريق أم قصر ـ صفوان باتجاه الناصرية، وهو الطريق الذي كان يشهد قصفاً شبه مستمر.

وصلنا الناصرية عصراً، وعرض علي ياسين أن أبيت عنده وأن أسافر مبكراً في اليوم التالي. إلا أنني رفضت مخافة أن يُقصف جسر السماوة الوحيد المتبقي للعبور إلى النجف. كان الجسر، كما السماوة، في المنطقة الجنوبية من العراق وتحديداً قرب الصحراء التي كانت مستهدفة بشدة لا سيما في الليل، بحثاً عن منصات إطلاق الصواريخ العراقية. كانت الساعة تقارب السابعة والنصف مساء حين وصلت إلى منطقة قريبة من مدينة الخضر، وفجأة شرعت الطائرات بقصف الطريق العام. إنقاذاً لنفسي، انحرفت بسيارتي إلى جانب الطريق. كانت الأرض مبتلة بسبب هطول الأمطار قبل ذلك بقليل. غادرت السيارة مسرعاً واتجهت راكضاً نحو العراء. سمعت صياح الذين تركوا سياراتهم على الطريق العام ولاذوا بالصحراء. الركض وسط الظلام والأوحال مهمة رهيبة ومؤلمة في آن، إلا أن الأكثر ألماً كان أنين الذين أصابتهم شظايا القصف وصراخهم وهم يطلبون النجدة ولا يجرؤ أحد على ذلك.

بعد أكثر من نصف ساعة، سمعت همهمات وسط الظلام تؤكد انتهاء الغارة. فأسرعت إلى سيارتي واكتشفت مذعوراً أن حاوية وقود عسكرية كانت تقف خلف سيارتي مباشرة! وأبى محرك سيارتي أن يدور. بعد عدة محاولات فاشلة، طلبت مساعدة سائق الحاوية. حاول ذلك الشهم مساعدتي لكن المحرك استمر عنيداً

واعتذر الرجل ليذهب وليطفئ محرك سيارته، على حدّ قوله، فرجوته ألا يتركني وحيداً في هذا الموقف. لكنه ما إن وصل إلى حاويته حتى أسرع في ترك المكان. لمْ ألمه، فالبقاء في هذا المكان الخطر يعني الموت. فبقيت وحدي وسط الظلام وتحت هدير الطائرات ولحظتئذ ندمت لرفضي المبيت في الناصرية.

بقيت لفترة ليست بالقصيرة محاولاً تهدئة نفسي بتلاوة بعض السور القرآنية، مفكراً بطريقة للتخلص من هذا الموقف. مرت بقربي سيارة ما لبثت أن توقفت بعد أن تجاوزتني. ومع رجوع السائق نحوي، انتابني خوف كبير وتساءلت إن كان ركابها من قطاع الطرق أم وقفوا لمساعدتي. كانت لدي بندقية كلاشنكوف في السيارة فكرت في سحبها، إلا أنني عدلت عن ذلك خشية من أن يعتقدون بدورهم أنني قاطع طريق وبالتالي أفقد فرصة المساعدة.

توقفت السيارة وكان بها ستة جنود حسبما ميزتهم من ملابسهم. شرحت للسائق مشكلتي. فأبدى استعداده لمساعدتي شرط أن أعيرهم عجلة الاحتياط بسبب فقدانهم أحد إطارات سيارتهم وأن أسوق خلفهم مباشرة لحين وصولنا إلى أقرب مدينة.

قبلت بالعرض فوراً. وفعلاً ترجل السائق وخلال دقائق انطلقت سيارتي. بدأنا السير مترافقين حتى وصولنا إلى مدينة السماوة وقررنا كلنا المبيت فيها عسى أن نجد من يستطيع إصلاح العجلة المعطوبة. وبالفعل في الصباح التالي، تمكنوا من مواصلة سفرهم إلى بغداد فيما توجهت إلى النجف التي وصلتها التاسعة مساء. كان بيت أهلي على الطريق بين النجف والكوفة. وأنا أقترب، فاجأني

السفينة مرة أخرى، قمت بجمع معظم ملابسي وأغراضي الشخصية وغادرتها صباحاً. كان معي في الإجازة ياسين، مهندس السفينة، وهو من مدينة الناصرية. كانت الطرق مقصوفة والجسور مدمرة ولم يكن أمامنا سوى طريق أم قصر ـ صفوان باتجاه الناصرية، وهو الطريق الذي كان يشهد قصفاً شبه مستمر.

وصلنا الناصرية عصراً، وعرض علي ياسين أن أبيت عنده وأن أسافر مبكراً في اليوم التالي. إلا أنني رفضت مخافة أن يُقصف جسر السماوة الوحيد المتبقي للعبور إلى النجف. كان الجسر، كما السماوة، في المنطقة الجنوبية من العراق وتحديداً قرب الصحراء التي كانت مستهدفة بشدة لا سيما في الليل، بحثاً عن منصات إطلاق الصواريخ العراقية. كانت الساعة تقارب السابعة والنصف مساء حين وصلت إلى منطقة قريبة من مدينة الخضر، وفجأة شرعت الطائرات بقصف الطريق العام. إنقاذاً لنفسي، انحرفت بسيارتي إلى جانب الطريق. كانت الأرض مبتلة بسبب هطول الأمطار قبل ذلك بقليل. غادرت السيارة مسرعاً واتجهت راكضاً نحو العراء. سمعت صياح الذين تركوا سياراتهم على الطريق العام ولاذوا بالصحراء. الركض وسط الظلام والأوحال مهمة رهيبة ومؤلمة في آن، إلا أن الأكثر ألماً كان أنين الذين أصابتهم شظايا القصف وصراخهم وهم يطلبون النجدة ولا يجرؤ أحد على ذلك.

بعد أكثر من نصف ساعة، سمعت همهمات وسط الظلام تؤكد انتهاء الغارة. فأسرعت إلى سيارتي واكتشفت مذعوراً أن حاوية وقود عسكرية كانت تقف خلف سيارتي مباشرة! وأبى محرك سيارتي أن يدور. بعد عدة محاولات فاشلة، طلبت مساعدة سائق الحاوية. حاول ذلك الشهم مساعدتي لكن المحرك استمر عنيداً

واعتذر الرجل ليذهب وليطفئ محرك سيارته، على حدّ قوله، فرجوته ألا يتركني وحيداً في هذا الموقف. لكنه ما إن وصل إلى حاويته حتى أسرع في ترك المكان. لمْ ألمه، فالبقاء في هذا المكان الخطر يعني الموت. فبقيت وحدي وسط الظلام وتحت هدير الطائرات ولحظتئذ ندمت لرفضي المبيت في الناصرية.

بقيت لفترة ليست بالقصيرة محاولاً تهدئة نفسي بتلاوة بعض السور القرآنية، مفكراً بطريقة للتخلص من هذا الموقف. مرت بقربي سيارة ما لبثت أن توقفت بعد أن تجاوزتني. ومع رجوع السائق نحوي، انتابني خوف كبير وتساءلت إن كان ركابها من قطاع الطرق أم وقفوا لمساعدتي. كانت لدي بندقية كلاشنكوف في السيارة فكرت في سحبها، إلا أنني عدلت عن ذلك خشية من أن يعتقدون بدورهم أنني قاطع طريق وبالتالي أفقد فرصة المساعدة.

توقفت السيارة وكان بها ستة جنود حسبما ميزتهم من ملابسهم. شرحت للسائق مشكلتي. فأبدى استعداده لمساعدتي شرط أن أعيرهم عجلة الاحتياط بسبب فقدانهم أحد إطارات سيارتهم وأن أسوق خلفهم مباشرة لحين وصولنا إلى أقرب مدينة.

قبلت بالعرض فوراً. وفعلاً ترجل السائق وخلال دقائق انطلقت سيارتي. بدأنا السير مترافقين حتى وصولنا إلى مدينة السماوة وقررنا كلنا المبيت فيها عسى أن نجد من يستطيع إصلاح العجلة المعطوبة. وبالفعل في الصباح التالي، تمكنوا من مواصلة سفرهم إلى بغداد فيما توجهت إلى النجف التي وصلتها التاسعة مساء. كان بيت أهلي على الطريق بين النجف والكوفة. وأنا أقترب، فاجأني

تجمهر غفير من الناس في حالة من الهرج والذعر الشديد. ورأيت من خلال الفوانيس النفطية أقربائي وعرفت أن القصف الأميركي قد طال المدينة التي لجأ إليها الفارون من بغداد معتقدين بأن الأميركيين لن يتعرضوا لمكان مقدس مثل النجف الأشرف.

يوم ٢٧ شباط/فبراير، قررت الرجوع إلى البصرة للالتحاق بالسفينة. لم أكن قد سمعت بالقرار الصادر في اليوم السابق للانسحاب من الكويت. وبسبب تدمير الجسور، سلكت طريقاً غير معتاد. وصلت إلى العمارة عصراً، وواجهني منظر مروع: أعداد كبيرة ــ لم أر مثلها في حياتي ــ من الجنود العراقيين كانوا قد وصلوا إليها، مستخدمين كل الوسائل للهرب من الكويت وجحيم «طريق الموت». حينها فقط أدركت أن قرار الانسحاب كان قد أُعلن في الليلة السابقة.

بدأت أسير على غير هدى لمدة ساعة والظلام يتسع ومعه مخاوفي في مدينة لا أعرف أحداً بها. برد الليل الشتائي يقرصني وليست أمامي أية فرصة للذهاب إلى البصرة أو العودة إلى النجف. فاجأني منظر شاحنة عسكرية متوقفة في الشارع وسائقها يصيح بصوت عال، منادياً من يريد التوجه إلى البصرة إلى الصعود. عرض عليّ السائق مشاركته مقصورة القيادة إلى جانب ضابط برتبة ملازم. عرفت بأنهما ينتميان إلى وحدة متمركزة في الكويت تم إرسالهما إلى العمارة بمهمة، ومع قرار الانسحاب، أضاعا وحدتهما والتقيا العديد من الجنود يبحثون عن سبيل للعودة إلى البصرة. هكذا وبتصرف شخصي شرعا في نقل ما تيسر لهما من جنود بين البصرة والعمارة وعلامات الحيرة واضحة على وجهيهما، خصوصاً بعد انقطاع الاتصال بوحدتهما وغياب أوامر يتصرفان على أساسها.

تحركت بنا الشاحنة بعد أن اكتظ ظهرها بالمسافرين. كان الطريق المؤدي إلى البصرة مقطوعاً، فاضطررنا إلى السير في طريق محاذ للحدود مع إيران، مروراً بقريتي البيضة والسودة اللتين دمرتهما حرب الثماني سنوات. الطريق ضيق وسيئ الرصف. بعد ساعة تقريباً، أشار السائق إلى أشلاء جثة على جانب الطريق. كانت الشمس توشك على المغيب والظلام يلف المكان. بعد خمس دقائق، توقفت الشاحنة مع صراخ السائق مشيراً إلى وجود جثث جنود، خوذهم مرمية هنا وهناك. حاول أن يتحاشى دهس الجثث ولكن لضيق الطريق كان لا بدّ أن نترجل من الشاحنة ففجعنا بمنظر مؤلم: الجثث على الطريق وجانبيه ولمسافة كبيرة. إنها جثث عسكريين عراقيين منسحبين من الكويت مع سياراتهم وآلياتهم، سلكوا هذا الطريق الضيق الذي لم يفسح مجالاً للأرتال المنسحبة بالتناوب، مما سهل مهمة قصفها بالطائرات. وفي حالة من الذهول والانفعال، دعا الضابط الذي كان يشاركني مقصورة القيادة كل المسافرين إلى الترجل ونقل الجثث من الطريق إلى جانبه للحؤول دون دهسها. فحملنا الجثث محاولين تغطيتها بأي شيء ممكن، عدا جثة سائق جرافة، كانت القمارة قد انطبقت عليها وحصرتها. وعندما حاولنا رفع القمارة اكتشفنا أن جزءاً منها انغرز بظهر الجثة وكلما رفعناها كان بعض من أحشاء الجثة يظهر معها. بعد محاولات عديدة، طالبتهم بالتوقف، فالجثة في مكانها آمنة نسبياً من الدهس.

استغرقت رحلتنا أكثر من خمس ساعات، ووصلنا حوالي الساعة التاسعة والنصف مساء إلى منطقة التنومة، التي كانت تعج بالآلاف الهاربين من البصرة. توجهت مشياً إلى شطّ العرب حيث وجدت العديد من الزوارق البخارية تنقل الناس من ضفة

العشّار إلى جهة التنومة وكان معظمهم، إن لم يكن كلهم، عسكريين.

صعدت أنا واثنان آخران زورقاً راجعاً بعد أن أفرغ حمولته من العسكريين ووصلنا إلى العشار. وبدأت مخاوفي، إذ أيقنت استحالة الذهاب إلى أم قصر والالتحاق بالسفينة. فقررت التوجه سيراً إلى بيت عمي لأكتشف أنه وعائلته تركوه إلى جهة مجهولة، وأصابتني الأبواب الموصدة بإحباط كبير. أخذت أفكر بكل الأصدقاء والأقارب لعلي أجد أحدهم باقياً كي أمضي الليلة عنده. بدأ التعب يدب في جسدي وأنا تائه في الشوارع. مع منتصف الليل، وجدت نفسي أمام منزل أهل زوجة رئيس ضباط السفينة، وشجعتني شمعة كانت ترسل نورها الخابي من نافذة غرفة الضيوف على طرق الباب. ويا لفرحتي ورئيس ضباط السفينة يفتح لي الباب. كانت دهشته توازي فرحتي. فأخبرني أنه غادر السفينة برفقة رئيس المهندسين في اليوم ذاته.

في الصباح الباكر، هيأت الصدفة لي سيارة لتقلني إلى ميناء أم قصر. وأخذنا الطريق باتجاه الزبير قريباً من طريق الموت. كانت مئات الجثث لعسكريين عراقيين ملقاة على الطريق والكلاب السائبة تنهش بعضها. وصلنا إلى ميناء أم قصر بعد جهد، وسلمت على ما تبقى من أفراد الطاقم وحمدت الله على سلامتهم وسمحت لمعظمهم بمغادرة السفينة. بقي على متنها خمسة أشخاص فقط: أنا «الكابتن» وضابط الملاحة وثلاثة بحارة. بدأنا نستقبل العسكريين المنسحبين من الكويت سالكين الطريق الساحلي المار بمدينة أم قصر وهم بحالة يرثى لها من التعب والإعياء. كنا نوفر لهم الطعام والشراب وفرصة لحمام ساخن، وبعد الراحة كنا ندلهم على

الطريق إلى البصرة ونودعهم سالمين.

في ١٩٩١/٣/٣ عرفنا أن انتفاضة شعبية اجتاحت معظم مدن العراق الجنوبية. في اليوم نفسه وصل إلى الرصيف زورق على متنه ضابط عراقي برتبة عقيد وتسعة من الجنود كانوا قد أرسلوا في مهمة إلى جزيرة، فحوصروا بها. ولجهلهم قرار الانسحاب، ظلوا في تلك الجزيرة تائهين إلى أن وجدوا زورقاً مهشماً استغلوه بصعوبة للعبور إلى اليابسة. ظلوا يختبئون نهاراً ويبحرون ليلاً حتى وصولهم إلى أم قصر ومنها إلى سفينة ابن خلدون (سفينتي).

في منتصف شهر آذار/مارس ١٩٩١، وكانت الانتفاضة في البصرة ومعظم مدن الجنوب قد هدأت نسبياً، حصلت على فرصة للسفر إلى بغداد. يومها فقط بدأت أفكر بعائلتي، بابني الوحيد وبزوجتي التي أحب. وأيقنت أنني مشتاق لهما جداً! ربما كنت دائماً مشتاقاً، لكن الظروف جعلتني مشغولاً بمساعدة الآخرين وإنقاذهم.

غادرت السفينة وميناء أم قصر صباحاً، برفقة صديق حقق معجزة إذ تمكن من ملء خزان سيارته بالبنزين. إلا أن عبورنا شط العرب في ناحية الكرمة استغرق أكثر من ثلاث ساعات لوجود مئات السيارات تنتظر العبور. وفي الضفة الأخرى، كانت وحدات عسكرية تفتش المنازل وتفتح النيران بين فينة وأخرى فيما الأهالي يتراكضون في كل الاتجاهات. انتابني الحزن إذ لم أكن أتوقع أن يسقط العراقيون بنيران عراقية بعد سقوطهم بنيران غربية!

على طول الطريق إلى بغداد التي وصلناها مساءً كان الدمار مؤلماً والجو في العاصمة مشحوناً ورهيباً. وصلت إلى بيت أهل زوجتي

آملا أن أجدها وابني قد عادا من النجف. فتحت والدتها الباب وقبل أن تسلم علي قرأت دهشة عينيها لأنني جئتها وحيداً. وبصعوبة وقلق سألتني عنهما وأخبرتها بأن لا علم لي بهما منذ أكثر من ١٨ يوماً. أُغمي عليها حين عرفت بأني غادرت النجف قبل الانتفاضة بأيام، ثم أجهشت بالبكاء لخوفها على مصير ابنتها وحفيدها ذي السنتين فقط.

فما كان علي إلا الذهاب إلى النجف بحثاً عنهما. مبكراً في اليوم التالي، الذي صادف أول يوم من شهر رمضان المبارك وكنت صائماً، توجهت إلى مرأب العلاوي. حاولت أن أسأل السائقين عن موقع سيارات النجف، فلاحظت ملامح الخوف على وجوههم وهم يسمعون اسم النجف ويتهربون مني. وأخبرني سائق لم يخف من التحدث معي أنهم يمتنعون من الذهاب إلى النجف بسبب سوء الأوضاع الأمنية واستمرار العمليات العسكرية ونصحني بالتوجه إليها عبر الحلّة. مررنا بنقاط تفتيش كثيرة، وعند مدخل الحلة تم إيقاف السيارة من سيطرة (مجموعة تابعة) للجيش وقاموا بإنزال الركاب وأخذ السيارة «في واجب»، كما قيل لنا. فسرنا على الأقدام حتى مشارف المدينة، حيث شاهدنا آثار الدمار التي خلفتها الاشتباكات. كانت الشوارع خالية إلا من الجنود والجثث. وشاءت الصدفة أن التقيت فلاحاً نقلني بشاحنته الصغيرة فوصلت عصراً إلى مدخل النجف من جهة كربلاء حيث كانت عمليات المداهمة والتفتيش مستمرة، فيما مجاميع من النساء والأطفال والمسنين يغادرون المدينة مشياً بعد أن أسقطت مناشير تحذيرية وشبه مهددة.

بقيت محاولاً إقناع مسؤولي «السيطرة» بالسماح لي بدخول النجف بحثاً عن عائلتي. وبعد موافقتهم، ساعدوني بالإيعاز إلى

شاحنة عسكرية مرت بنا لإيصال الأرزاق للجنود المتواجدين داخل المدينة. وحين عرف السائق قصتي، عطف علي ونقلني إلى الحيّ الذي أقطنه. الدمار في كل مكان: في الأسواق المركزية والمحال التجارية والبيوت؛ أسرّة المستشفى خارج المبنى ورجل يجلس على سرير وسط الشارع العام الذي يربط النجف بالكوفة! كان عدد من العسكريين واقفاً على جانبي الطريق قرب آليتهم فاستفسرنا منهم إن كان المرور سالكاً وآمناً. ردّوا ملوحين بإشارة غامضة، توحي على الأرجح بـ«لا». لم نعرف إذا كانوا يقصدون أن لا نذهب أو نذهب! ولحاجتي إلى التصديق، تصديق نفسي أولاً، واصلت السير إلى بيتي وطرقت الباب الخارجي مراراً من غير أن يتحرك ساكن. وما إن حاولت فتح الباب الخارجي، حتى سقطت قذيفة هاون على بعد أقل من خمسين متراً من الشاحنة فأسرع السائق إلى تحريكها. تركت الباب مفتوحاً ولحقت به مهرولاً دون أن أعرف مصير عائلتي.

لم يبق أمامي سوى العودة إلى بغداد. وصلتها متعباً، محبطاً، عاجزاً، جاهلاً مصير عائلتي. لأسبوع كامل، كان القلق يربكني وأحاول أن أُبعد فكرة أنني لن أرى زوجتي وابني مرة أخرى. كنت أستغفر الله كلما فكرت بأن مكروهاً ما حصل لهما، وأحياناً أمسح دموعي مؤكداً لنفسي أن ما حصل مع عائلتي همّ مشترك أصاب الجميع.

عاودت محاولتي للذهاب إلى النجف. وبعد أسبوع تقريباً، تمكنت من السفر على ظهر شاحنة مدنية. طمأنتني المياه المنسابة من حديقة البيت إلى أنه مسكون، ولوهلة ترددت في طرق الباب مخافة سماع خبر مفجع، ففتحته بهدوء. توجهت مباشرة نحو

ابني زيد، ورأيت دموعاً في عيني زوجتي لم أجرؤ أن أسألها إن كانت دموع فرح أو عتاب. لكن من لهفتي وأنا أحتضن ابني، عرفَت كم كنت قلقاً عليهما. وعلمت بأنهما كانا قد غادرا المنطقة مع الآخرين بعد إسقاط المناشير.

هدأت الأوضاع وبات الألم يسكن القلوب بعد أن بدأت تتعالى الهمسات بعدد القتلى من أفراد الجيش والمنتفضين. وما لبثت أن غادرت إلى البصرة مرة أخرى لألتحق بالسفينة. لكن قبل أن أصعد إليها، ذهبت إلى ذلك الشهيد المجهول المدفون على الشاطىء وقرأت عليه سورة الفاتحة.

بعد شهر تقريباً ذهبت لأتسلّم رواتب الطاقم من مصرف الرشيد في البصرة، حيث قابلت موظف الذاتية الذي يسهل لي عادة مهمتي الشهرية. في ذلك اليوم، شعرته حزيناً ورأيت الدموع الصامتة في عينيه. أخبرني بأن ابنه البكر عبد الرزاق، جندي الاحتياط في أحد زوارق قيادة القوة البحرية، فُقد أثناء القصف الجوي على ميناء أم قصر وتحديداً قرب الأرصفة العشرة، تاركا زوجة شابة وطفلاً وأماً تبكيه كل لحظة. وأخرج صورة من حافظته لشاب أسمر اللون، جميل المحيا، لطيف القسمات وعلى وجهه ابتسامة عذبة. وبدأ الحاج يتكلم عن طباعه الطيبة وأخلاقه الحميدة ومحبة كل من يعرفه له فيما الدموع تنهمر على وجنتيه وهو يرتجف حاملاً صورة ذلك الابن الذي ذهب وأخذ معه الأمل والفرح.

شرعت أقارن بين ما أستذكره من ملامح الجثة ووصف الحاج لابنه. عندما أخبرته عن قصة الجثة التي عثرنا عليها وأعدت عليه

تفاصيلها كما بدت في حينها، محاولاً بكل جهد أن أكون شديد الدقة في وصفها ووصف الملابس، كان الأب المثكول يؤكد وصفي ويؤكد أن الجثة لا بد أن تكون لولده، خاصة وأن جثث زملائه سلمت إلى ذويهم. سألني مستعطفاً أن آخذه لزيارة القبر.

فعلاً بعد يومين، التحق بي في ميناء أم قصر. كنت مرتبكاً وخائفاً من رد فعل الأب خصوصاً أنه كبير السن وضعيف البنية بالرغم من طول قامته. لدى وصولنا إلى القبر، ترجل الحاج بكل وقار وأخرج من جيب معطفه مصحفاً وبدأ يقرأ من كتاب الله ما تيسر من آيات الذكر الحكيم، ودموعه تتساقط مدراراً على وجه أكل التعب والحزن منه الكثير.

بعد عدة أيام، اتصل بي الحاج طالباً مني استخراج الجثة ونقلها إلى البصرة لكي تدفن هناك. صعقني الطلب. فأنا أذكر مدى تشوه الجثة وانتابني الخوف على حياة الحاج إن اكتشف حقيقتها. وبعد جهد شديد استطعت أن أقنعه بأن يترك فلذة كبده راقدة قرب مياه البحر الذي أحبه. اقتنع لكنه طلب بالمقابل أن أرتب زيارة ثانية إلى القبر، هذه المرة برفقة زوجته، والدة عبد الرزاق.

وجاءت الأم. ليتني أجد الكلمات المناسبة لأصف منظرها عندما شاهدت قبر ابنها وارتمت عليه تحضنه وتقبل الأحجار والتراب التي تغطي ذلك الجسد الذي نما في بطنها وربته صغيراً وسهرت عليه الليالي ورعته وحلمت بأن يصون شيبها ويواريها في الثرى بيديه الحنونتين. لكن الحرب سرقته منها وها هي تحضن ثراه وتسقيه بدموعها الساكبة.

بقي القبر محله. وبعد سنتين، قامت الدولة باستدعاء شركة عالمية لاستخراج حطام الزوارق الغارقة في ذلك المكان. وفي إحداها، تم العثور على جثث كانت محصورة وسط الحطام. كم كانت صدمتي كبيرة حين علمت بأن إحداها تعود لعبد الرزاق. انتابتني مشاعر متناقضة: الخشية على الأبوين من تجدد حزنهما، والفرحة لأنه غدا من الممكن نقل الرفات إلى قبر في البصرة ييسر زيارة الأهل له كلما اشتاقوا اليه.

أردت أن أخبر الحاج إلا أنني أُبلغت رسمياً بعدم القيام بذلك حتى يتم إخراج كافة الجثث والتعرف إليها ودفنها في قبر جماعي في الزبير ومن ثمّ يبلغ الأهل رسمياً.

ومن سخريات القدر أنه بعد مضي أكثر من ١٠ سنوات، تم استدعائي من قائد القوة البحرية مستفسراً عن صحة وجود قبر لشهيد تم دفنه على الأرصفة العشرة. وكان القائد يفور غضباً لقيامي بذلك الفعل وعدم إخبار الجهات المختصة. ولم تفلح كل محاولاتي لشرح الموقف حينها وكيف كان الوقود مفقوداً والتيار الكهربائي منقطعاً والمستشفى يرفض استقبال الجثة والعمليات العسكرية قائمة ووو... كان مصراً على أنني اقترفت ذنباً كبيراً يجب أن أعاقب عليه. وفعلاً قام بتأليف مجلس تحقيقي لغرض إحالتي إلى المحكمة. ولم ينقذني إلا قيام مدير ميناء أم قصر، وكان صديقاً لي، بزيارة قائد القوة البحرية وعرض عليه أن يقوم ببناء صرح صغير فوق ذلك القبر، تخليداً لكل الذين سقطوا في ذلك المكان. فقبل القائد المقترح ونجوت أنا من العقوبة!

لا أدري إن كان ذلك الصرح الصغير ما يزال في مكانه لحد الآن

بعد كل ما حدث في العراق. هل ما يزال ذلك الشهيد المجهول يرقد قرب بحر أحبه وإن كانت والدته تنتظر أن يعود إليها؟

ستبقى هذه الأحداث ملازمة لي مدى العمر ولا بد لي أن أذكرها كلما سئلت عن حرب ١٩٩١. تلك الحرب المدمرة والتي كانت من ضمن الحروب المفروضة على العراقيين، حيث لم يكن أمامهم أي خيار سوى القتال أو الموت أو لملمة ذكريات أليمة. بدوري، ألملم أوراقي وأنظر إلى البحر وكأنني أرى البصرة على الساحل البعيد. ويتساءل قلبي إن كانت الحرب الأخيرة، والتي شهدت خلالها أم قصر أشرس معاركها، قد تركت ذلك القبر شاهداً على الألم العراقي، أم أنه بيع في المزاد كما بيع العلم العراقي الذي كان مرفوعاً على قائمقامية أم قصر في ٢٠٠٣؟

بطاقة شخصية

* من مواليد البصرة عام ١٩٥٨.
* خريج الأكاديمية البحرية العراقية.
* عمل رباناً لسفينة «ابن خلدون» التجارية ودرّس لسنوات طلاب الأكاديمية البحرية.
* يعمل الآن في شركة بحرية.

محنة البقاء في بلد الظلال

لطفية الدليمي

كانون الثاني/يناير ٢٠٠٦

الوحوش الخفية تعيش في الظلال الكثيفة، وأنا امرأة ضد لحظة الخرس، أحاول قول الحياة في لحظة افتتان. لا أتوقف عند مغامرة العيش وحدها. أضيء الظلال الكثيفة لأعري الوحش الخفي المتربص بنا. لا شيء أشد توحشاً من الوحدة. الوحدة غير العزلة، إنما هي أن لا ترى أحداً إلا صورتك تتكرر في المرايا وتنعكس في السماء فلا تعود عندها قادراً على رؤية وجه الآخر أو سماع صوته. هكذا نحن في بغداد ، ننكفئ على وحوشنا الشخصية ونرسل الآخر إلى الجحيم.

أغامر بالعيش وسط حدائق الموت المزدهرة بجثث مجهولة ورؤوس مقطوعة. مغامرة شاقة وعبثية بالنسبة لكاتبة تحيا وحيدة وسط

المجزرة. أتمادى في وحدتي وأنا محاطة بمكائد ومغلولة إلى أحلام بطل سحرها، وأكدح في نهارات الموت من أجل قطرة نفط.

ترافقني شخصيات روايتي غير المكتملة وطعنات الأصدقاء العاقين ورعب الموت قتلاً على الهوية، مثلما توازي زمني مواسم الزهور في حديقتي، تتعاقب تباعاً في الزمن الآخر. أصداء الموسيقى تشكل خلفية الحياة البيتية لوحدتي ولو لم أكن كاتبة لصرت موسيقية أدوّن الحياة بأنغامي.

أغادر التراب ويوميات الدم إلى مقامات وترانيم حب وتراتيل لأسلافنا الذين اقترفتا خيانة حضارتهم.

أنا لست واحدة في وحدتي، ففي جلدي تتوالد نساء عديدات من أول النهار حتى الغسق. أكابد أوجاعهن وأتحمل تبعات عيشهن وأحزان قلوبهن، بينما المدينة المتهاوية تصاعد عويلها مع الريح ويحتشد الرماد في عباءتها الحريرية.

نسائي الوحيدات يلاحقن أحزاني وأنا أتغذى بنغمة موسيقى من عازف مجهول لم أقابله بعد. أحلم أن ندوّن الحياة معاً في قالب شعري ونغمي يؤرخ للمستقبل. نسائي الوحيدات يغادرن كتابي إلى مجالس العزاء المقامة لتأبين القتلى بين بيت وبيت، وبنات قصصي الجميلات العاشقات يتعثرن بالموت والعبوات الناسفة وترتسم في أحداقهن وجوه عشاقهن الذين التهمهم الغياب. يرتعشن توقاً للمسة يد بشرية تطفىء ظمأ الجسد الفتي المأسور في التحريم والتجريم.

الساعة الواحدة بعد انتصاف الليل

أفيق من نومة مربكة تفتقر إلى متعة الهجوع الآمن. أقوم من سفح مثلج بين صحو قلق ونوم هجين تقاطعه أصوات إطلاقات ومواجهات أمام بيتي وتتبعها ضجة هليوكوبترات. غير هذه وتلك، أسمع أصوات خطى غريبة في الحديقة الخلفية . أسمع حركة بين أشجار التين والكُمَثرى. أحكم إسدال الستائر وأتشبث بوسائدي وأخفي وجهي في شذى يهدئ مخاوف القلب يفوح من وسادة صغيرة محشوة بزهور الخزامى المجففة وأروح في غياب رؤيا عن حياة رخية في بغداد غير هذه وزمن غير هذا.

أنهض هلعة على أصوات انفجارات. ولا أعود إلى النوم بل أترقب وصول حصة الليل: ساعة من الكهرباء تحول ليلي إلى نهار كدح مضطرب، أشغل سخان الماء وغسالة الملابس والمدافيء الزيتية في الغرف لتحتفظ ببعض دفء للصباح. أستحم وأجفف شعري وأعدو بين غرف البيت لانجز أعمالاً تتطلب وجود الكهرباء وما هي إلا برهة حتى ينهمر الظلام مرة أخرى.

أشعل شمعة وأخرج إلى الحديقة لأقوم بتشغيل مولد الكهرباء وأنا أرتجف رعباً من وجود لص أو قاتل متربص بين كثافة الأشجار. وعندما أنجح في تشغيل المولد، تكون الساعة قد بلغت الثالثة، ويكون النوم قد غادر إلى جهات أخرى وتركني ليقظة لم يحن أوانها.

أجلس إلى مكتبي وأعيد صوغ فقرات من روايتي. أكتب بضع صفحات ويعاودني النعاس، أنام على الأريكة الكبيرة في غرفة مكتبتي وأحرص على أن أزحزح الأريكة إلى أبعد ما يمكن عن

النافذة المواجهة للشارع لئلا أكون في مرمى نيران المواجهات المتوقعة.

أضع موسيقى تعصمني من الإنصات للهمهمات والأصوات المريبة وعصف الريح بين الشجر.

أغفو على حلم بحياة أقل سوءاً وأبتسم لحلمي وتتجمد ابتسامتي على وجهي بين مسارب الدموع.

الساعة الخامسة والنصف صباحاً

يا لوحشة الروح حين تصحو على صحراء الوقت. كل أبنائي تحت نجم في أرض البشر. أحدهم في سويسرا والآخر في ألمانيا والثالثة في الأردن وأنا رهينة إصراري على البقاء بين احتمالات الفناء ومواجهة الخراب. أرد على التساؤلات بأني أشهد على ما يجري للإنسان، فيضحكون من مبرراتي ويقولون: بقاؤك بين الأحياء هو محض مصادفة وقد يكون موتك خبراً صغيراً في نهاية نشرة أخبار مسائية وتكونين ضحية لا يعتد بشهادتها.

أقوم ببعض تمارين اليوغا وأستعيد شيئاً من توازن الروح والجسد لأبدأ رحلة نهار آخر في مجازفة البقاء بين الظلال الحية التي تتخفى في الصمت وتمويه الأسماء. أفتح المزاليج وأقفال الأبواب التي حصّنتها بمشبكات حديدية، أتحرى المشهد الخارجي للحديقة والشارع والسماء، وأخرج إلى حديقتي قبيل الشروق، أروي الزهور وأقطف الأقحوان الأصفر وزهور اللاتينيا لمزهرياتي وأغدق رذاذ الماء على أشجار النارنج والمتسلقات وعريشة الياسمين ونخلة السايكاس شبيهتي في وحشة التصدي للفناء.

ألتقط من الحديقة والمماشي ثمار النارنج لأصنع أشربة بنكهات شرقية مع الزنجبيل وماء الورد ورحيق اللوز، وأجمع الرصاص من حجوم مختلفة تساقط هنا في مواجهات الليل، أشمّ رائحة الموت من أصابعي التي لامست الرصاص المتناثر في ممرات بيتي.

أطارد قطة حاولت التسلل إلى داخل البيت من إحدى النوافذ التي تحطم زجاجها مساء أمس، ونسيت أن أضع ألواح الفلين عليها. ثلاث نوافذ واسعة انهمر زجاجها بصوت مروع لدى انفجار سيارة مفخخة عند التقاطع الذي يبعد نحو مائة وخمسين متراً عن بيتي. أجمع ما تبقى من حطام الزجاج والشظايا وأطعم القطة وصغارها حليباً.

الساعة السادسة والنصف

أهيئ فطوري وأحمله إلى الحديقة الخلفية في مكاني الأثير قبالة شجرتي الليمون والعنب وأشجار الأكاسيا بعناقيد زهورها الذهبية. أشغل النافورة الصغيرة التي يتوسطها تمثال امرأة وأنتشي بخرير المياه في الحوض وأشذاء العشب المستفيق والزنابق مع الرشفة الثانية من قدح الشاي. تجتاح صباحي طائرات الأباتشي تتفرج على حياتنا ويقظتنا وتنخفض حتى لتكاد ترتطم بقمم النخل وتفزع الحمائم والعصافير المائة التي تقيم في أشجاري فتهب الطيور المرتعبة وتتنقل من شجرة إلى أخرى أو تدور في هلع دون أن تتوقف عن الضجيج.

أعود إلى مكتبتي بعد أن أفسدت الطائرات لحظة متعتي الوحيدة، أفتح الإنترنيت وأتفحص بريدي وأرد على بعض الرسائل، وأتصفح الملاحق الثقافية لصحف (النهار) و(السفير) و(الحياة).

أضع الخطوط الأولى لافتتاحية العدد الجديد من مجلة (هلا) الثقافية التي أرأس تحريرها وأحرر بعض موضوعات المجلة الواردة إلى بريدي.

أسمع أصوات انفجارات قد تكون في منطقة البياع أو حي المأمون أو حي الجامعة. بعد قليل سيعلن عنها في التلفزة لأعرف أي الطرق أسلك حين ذهابي إلى مقر المجلة حيث تغلق الطرق المؤدية إلى مواقع الانفجارات وتوصد المنافذ إلى المناطق المجاورة.

الساعة الثامنة

نتفقد بعضنا في متاهة العنف والموت. كل منا يهاتف الآخر لنهدئ بعض مخاوف القلب من احتمالات الخطف أو القتل. في الساعة الثامنة موعد مكالمتي اليومية مع الصديقة الفنانة التشكيلية هناء فقد اتفقنا على مواعيد معينة لنتأكد من بقائنا على قيد الحياة كل صباح ومساء. ردت هناء على المكالمة، إذاً كلانا لدينا يوم آخر للحياة وعلينا أن نشغله قدر ما نستطيع بإنجاز ما. هناء التي تحيا وحدتها المختارة مثلي تسألني:

ـ ما بال صوتك؟ لأول وهلة لم أميز نبرتك.

ـ منذ أمس ما نطقت بكلمة، صوتي عاطل من الاستعمال.

تخبرني أنها ستذهب إلى أكاديمية الفنون. وهذا أمر تعودناه، أي أن نخبر بعضنا بتحركاتنا خشية التعرض للحوادث والميتات العشوائية. تقترح هناء أن نلتقي في معرض فني يقام في قاعة (اثر)

قرب الأكاديمية. أخبرها أن لديّ ارتباطات عمل في المجلة والجمعية العراقية لدعم الثقافة وأشياء أخرى.

أعاود الكتابة في الرواية.

الساعة العاشرة

أطفئ مولد الكهرباء فقد نفد الوقود. يأتي البستاني أبو أحمد على دراجته حاملاً معه شتلات زهور الزينيا والمرجان وأبصال الشقائق ونعمل معاً لزراعة وعود للربيع والصيف القادمين.

أهاتف سائق سيارة أجرة أعرفه ــ صرنا لا نأمن استخدام سيارات الأجرة التي نجهل أصحابها. أطلب إليه أن يوصلني إلى بائع الزجاج. أسلمه قياسات زجاج النوافذ الثلاث ليهيئه ويأتي لتركيبه في الغد. يرحب الرجل بي فقد أصبحت زبونة دائمة إذ تحطم زجاج نوافذي ثلاث مرات خلال هذا الشهر وتكبدت مبالغ طائلة لإصلاحه.

أتجه إلى السيارة فيواجهني رجل بلحية كثة وثوب قصير ويزعق في وجهي رافعاً ذراعه كأنه يتأهب لصفعي:

ــ تستري يا امرأة وغطي عورة شعرك وإلا سترنا عار أمثالك بالموت...

أبهت أمام المباغتة. أستعيد أنفاسي وأقول له:

ــ أنا أقبل بوجود أمثالك في الحياة. وعليك أن تقبل أمثالي. فلا

إكراه في الدين...

ـ لا مكان لأمثالكم... حرمة لا حياء لديها... الحياة محرمة عليكم...

يهمس السائق: ست، أسرعي فهؤلاء لا يعرفون الرحمة. أسرعي أرجوك ولنذهب من هنا.

ينطلق بالسيارة مسرعاً، ويقول: لا تتورطي معهم بجدال، كان عليك أن تتركيه...

نتوقف لدى باعة البنزين في السوق السوداء ثم أقف نصف ساعة في الصف تحت المطر لأحصل على بضعة ليترات من النفط للمدفأة. أتبضع احتياجات يومي وأعود بحصيلة من روح تعرضت للتهديد وملابس مبلولة وغضب وحنق وبضعة ليترات من الوقود.

الساعة الحادية عشرة والنصف

أستبدل الثياب المطورة وأرتعش غيظاً مما حصل. أتصل بسائق سيارة المجلة فيخبرني أن الطريق مغلق بين حي الحارثية وحي المأمون وكذلك طريق المطار، وعليه أن يمضي أكثر من ساعة للوصول إلي عن طريق بديل. أتصل بسائق آخر فيخبرني أنه على موعد مع رجل يشتغل بالوشم ويوضح لي أن أبناء الحي من الشباب عمدوا إلى وشم أسمائهم وأرقام هواتف ذويهم على أجسادهم ليتعرفوا إلى جثثهم في حالة القتل فلا يعاملون باعتبارهم جثثاً مجهولة الهوية ويلقون على أكداس القمامة أو يدفنون في مقابر الغرباء.

أتذكر أنني لم أحمل معي هويتي وجواز سفري إذ أحرص على حملهما كلما خرجت ليتعرفوا على جثتي إذا قتلت في انفجار. ولكن ماذا سينفعني ذلك لو احترق جسدي ومعه كل شيء؟ قد يجمع العابرون أشلائي في كيس من البلاستك ويدفنونها على جانب إحدى الطرق إذا كنت محظوظة أو تترك بقايا جثتي نهباً للغربان والكلاب.

يصل السائق بعد انتظار ويخبرني أنه تعرض لإطلاق نار مساء أمس في طريقه إلى المطبعة مع إحدى الموظفات، عندما أوقفوه لدى مرور رتل أميركي وأمره الشرطي بالانطلاق. لكن جندياً عراقياً أطلق عليه نيران رشاشه واخترقت الرصاصة قبة قميصه خلف عنقه ونجا بأعجوبة فيما أغمي على الفتاة وأخذها إلى المستشفى. رفضوا إسعافها لأن سيارته هوجمت من الجنود وهذا يعني أنه مشتبه فيه!

أوقفتنا مفارز التفتيش أربع مرات ومررنا بطرق ملتهبة فيها تبادل إطلاق نار قرب تمثال أبي جعفر المنصور الذي حطمه متطرفون. اجتزنا أزقة موحلة وطرقاً ترزح تحت كتل كونكريت وأسلاك جارحة حتى بلغنا شارع الكندي حيث موقع المجلة، فوجدنا الزقاق موصداً من جانبيه ثم سمعنا انفجاراً زلزل السيارة وزلزلنا. لقد جرى تفجير عبوة ناسفة مزروعة على الرصيف قرب مبنى المجلة وكان يمكن أن نكون ضحاياها بفارق دقيقتين اثنتين.

الساعة الواحدة

نلتقي الزملاء ونتداول آخر مستجدات عملنا ونعدّ مخطط العدد الجديد، يصل ضيوفنا من أسرة تحرير مجلتَي (جدل) و(مسارات)

حيث دعوناهم لحفل شاي احتفاء بصدور العدد الأول من (جدل). يحضر أصدقاء كتاب وأكاديميون للتداول في شأن التعاون بين مجلاتنا لتخطي المعوقات الفنية والطباعية والمالية. نقدم لرئيسي تحرير المجلتين باقتين من الزهور. ويتخذ الحوار طابعاً استفهامياً نبحث عن إجابات له: كم من المعضلات سنواجه لنواصل إصدار مجلات ثقافية في وضع متفجر وخطير كوضعنا؟

الساعة الثالثة

علينا أن نغادر لنحضر اجتماعاً، نحن أعضاء الهيئة التأسيسية للجمعية العراقية لدعم الثقافة، في المقر الواقع على نهر دجلة، جوار (المندى) معبد الصابئة المندائيين، أعرق وأقدم سكان وادي الرافدين.

نضع اللمسات النهائية على مشروع ندوة الثقافات العراقية لإجراء حوار معرفي بين ثقافات الأعراق والقوميات العراقية والأديان وتحديد الخصائص والمشتركات التي أسهمت في إغناء ثقافة البلاد ونمائها وتنوعها.

الساعة الخامسة

عودة إلى مقر المجلة في الحارثية. خدمة الإنترنيت متوقفة وعليّ أن أغادر إلى البيت لإنجاز بعض أعمال المجلة. أصل إلى البيت عن طريق المطار الدولي نظراً لإغلاق الطرق كلها.

أشغل مولد الكهرباء وأتحرى عن آثار أقدام مريبة في الممرات

ومماشي البيت الخلفية. أترنح لفرط الإرهاق. ألقي بنفسي على الأريكة مغمضة العينين.

من يمنحني وطناً لا يغص بالموتى والقتلة؟ من يأخذني إلى أمسية بلا هلع أعانق فيها الموسيقى وأغفو على سرير الموج؟ متى يصمت الجنون لأغفو؟ متى تغادرني الظلمات لأفيق من ليل البلاد؟ متى يموت الموت لأحيا؟ من سيطرق الباب على وحشتي ويسمعني موّالات الحنين العتيقة؟ لا أحد... لا أحد...

أترنح لفرط الويل. فمن يدس شمساً وأغنية في نخاعي؟ من يفرط حب الرمان ويطعمني الأمان حبة حبة؟ من لي بكائن حنون يربت أحزاني ويمسد صوتي من العبرات؟ لا أحد .. لا أحد.

إذن سأهجر النهار إلى الليل الشقي بحروبه العمياء، وأهيئ الوجبة الوحيدة التي أتناولها يومياً وأمزجها بالأسى ورحيق زهور الخشخاش التي أزرعها بوفرة في ألواح الحديقة وأجمع بذورها للحلوى ورحيقها تحسباً لليالي الأرق.

الساعة الثامنة

أتربص باحتمالات الموت، فما عدت أرهبه لطول ما ألفتُ حضوره بيننا ولفرط ما رأيت من موتى في الطرقات وأمام بيتي وعلى الجسور ورأيتهم يطفون في مياه دجلة كزهور متحللة.

أنتظر بزوغ نجم يضيء أفقي، وجسدي يتلظى في احتمالات الأمل. الهاتف. هناء تؤكد لي بقاءها وتطمئن على بقائي. تقول:

سأرسل لك صورة آخر لوحة نسجت عناصرها من اللافتات السود وأغلفة الرصاص. أهديها نصاً من عبارة واحدة هي صورة لما يجري: قطرة دم بحجم الحضارات كلها.

الساعة العاشرة

أكتب وأكتب وأحاول تجاهل رعبي. أسمع صرخة هلع ونداءات جزع. أسمع أم فراس تصرخ: قتلوك يا فراس!

أترك كل شيء وأعدو إلى الشارع: شابان يحملان جثة فراس وثقب رصاصة في جبهته. تخبرني إحدى النساء: وجدوه مع ثلاث جثث في حي الجامعة. إحداها جثة فتاة عارية اقتلعوا عينيها وثبتوا حدقتيها في راحتي يديها بالبراغي وشوهوا جسدها بالحروق.

أبكي وأبكي وأتناول حبة مهدئة وأتضرع للزمن أن يتحرك ويمضي قدماً. لكن الزمن يسخر من ضراعتي، وأنا في بلاد ما عادت سوى ظل لبلاد عتيقة اندثرت في هجمة ملايين الظلال أشباح غريبة تداخلت مع بعضها وأوقفت الزمن عند برزخ الجنون. هل سأعبر البرزخ إلى زمن يمضي قدماً ولا يستجيب لغواية الظلال؟ ربما أنا التي عليها أن تمضي ولا تلتفت أبداً إلى الوراء.

بطاقة شخصية:

* آداب في اللغة عربية.
* عملت فى التدريس في مدرسة الموسيقى والباليه لسنوات.
* عملت محررة للقصة فى مجلة «الطليعة» الأدبية. عملت مديرة تحرير مجلة «الثقافة الأجنبية».
* أصدرت ٢٢ كتاباً إضافة إلى عدد من الأعمال الدرامية.
* كتبت على مدى سنوات أعمدة فى الصفحات الثقافية للصحف العراقية.
* نشرت قصصها ومقالاتها فى معظم الصحف والمجلات الثقافية العراقية والعربية.
* أسست سنة ١٩٩٢ مع عدد من المثقفات العراقيات «منتدى المرأة الثقافي في بغداد.
* ترجمت قصصها إلى الإنكليزية والبولونية والرومانية والإسبانية وترجمت رواية «عالم النساء الوحيدات» إلى اللغة الصينية.
* عضو مؤسس في المنبر الثقافي العراقي وعضو مؤسس في الجمعية العراقية لدعم الثقافة.
* أسست في بغداد سنة ٢٠٠٣ مركز «شبعاد لدراسات حرية المرأة».
* ترأس حالياً تحرير مجلة «هلا» الثقافية التي تصدر في بغداد.

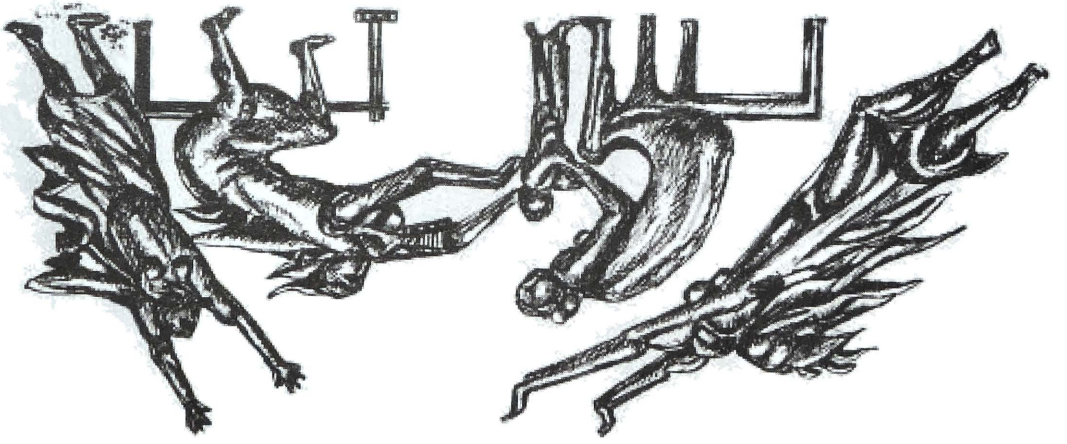

متاهة الجندي:
داخل الشاشة... خارج الشاشة!

محمد سهيل أحمد

«ما أجمل هذا العالم... ما أسهل تحطمه!»

* قال الراوي:

بحثت عن يوسف طويلاً من دون جدوى. وقررت بعد طول بحث أن أجرب آخر المخابئ التي يمكن أن أتوقع أن أجده فيها: دار سينما غرناطة. فيما كنت أدلف لدار السينما، كدت أن أصطدم بعسكري انضباط كان يقتاد فتى من قفاه. بدا لقصر قامته أشبه بفيلم من أفلام العيد المقصقصة، مؤرجحاً جامعة يد منطبقة على رسغين شديدي النحول شادّاً إياهما بعنف. اجتزت

كشك التذاكر ماضياً صوب غرفة صاحب السينما. توقفت عند المدخل. كان مسؤول الدار منهمكاً بتناول وجبة من الرز بالفاصولياء المجففة من على صينية موضوعة على طرف طاولة تكومت عليها بكرات أفلام، بوسترات دعائية، مصباح يدوي ودفتر بطاقات دخول. ما إن أبصرني حتى نهض باسطاً كفه نحوي مرحباً، فبادرته معلناً:

ــ قدمت من أجل أن ألقاه... ككل مرة...

ــ ومن في مقدوره أن يمسك هدهداً؟!

ــ هل سألوا عنه؟

ــ عنه بالذات؟ لا. أحياناً يقومون بحملات مداهمة، أو يعهدون بالمهمة للانضباط العسكري.

استغرقت في تأمل ملصقات توزعت على جدران الغرفة: الناصر صلاح الدين، جان كلود فاندام، «كلوز أب» لوجه أميتاب طبعت عليه أحرف هندية، سعاد حسني، ستيف ماكوين، بريجيت باردو في فيلم (وخلق الله المرأة).

قام إلى خزنة من حديد متقشرة الجوانب. أرتج بابها وهو يشدّه إليه بقوة. ناولني مغلفاً مصفراً مبقعاً بلطخات حبر باهتة:

ــ حاذر، به كراس ورسائل حب.

ــ يبدو أنك اطلعت عليها.. أعني الرسائل.

ــ على بعضها، جذبتني روائح العطور. إنه فتى صغير السن لكنه يبدو ذكياً خلافاً لأقرانه.

ــ إنه قارئ كتب نهم.

ــ عموماً فتيان الحروب يشيبون قبل الأوان!

نهضت طاوياً المغلف، داساً إياه في الجيب الخلفي لبنطالي:

ــ سأبحث عنه في الصالة.

ــ لعلك لا تجده. هل تريدني أن أخبره بشيء؟

ــ الواقع أنني جئت هذه المرة كي أحذره.

ــ تعني أن اسمه مدرج في الـ..

ــ أحياناً القريب آخر مَن يعلم. لكن شعوراً غامضاً يخامرني، هناك مداهمات ومن واجبي أن..

فيما هوت قدماي إلى عتمة صالة العرض استقبلتني لفحة هواء بارد لم تكن تخلو من وخامة. تلمست في الظلام طريقي للمصاطب الأمامية حيث اعتدت أن أجلس في كل مرة وحيث الاحتمال الأقرب للقياه هناك. لمحت في منتصف المسافة موشور الضوء ــ حبل الأحلام الملونة السري ــ منقذفاً من أقصى الخلف حيث آلة العرض إلى شاشة السينما. فيما كانت طبلتا السماعتين الرابضتين يمين الشاشة ويسارها ــ وهما تنقلان حوار أبطال الفيلم ــ تحدثان أزيزاً رعدياً متقطعاً. شيئاً فشيئاً، أخذتْ كائنات الشاشة، داخلها وخارجها، بالاتضاح بعد أن تآلفت عيناي رويداً رويداً مع المكان، فاستأنفت بحثي. حانت فترة عرض مقدمات الأفلام التي انتظرت انتهاءها كي أتعرف عليه، إن كان موجوداً حقاً. ارتطمت قدماي بهيكل بشري منطرح على أرض الصالة فبدرت منه آهة سرعان ما تلاشت. تكدست رئتاي بروائح يبدو أنها قلصت من درجة برودة الداخل: تبغ، جوارب، حقائب يد،

أفرشة، قمصان ينبعث منها عرق أجساد لم تعرف سبيلاً للاغتسال منذ أمد بعيد. وطأت جرذاً انفلت مزمجراً. واصلت سيري متفادياً وطء هياكل متراخية الأطراف استلقت على مصاطب متكأكئة وهي تصر بعضها على بعض، بينما تكدست هياكل أخرى في أرض الممرات، تهذي، تتثاءب، أو تتقلب على جنوبها. في تلك اللحظة أضيئت الصالة بمصابيح نيون ذابلة متخافقة تراكمت عليها أغبرة متخثرة بشكل عجائن كالحة. ارتفعت نداءات باعة المرطبات ثم تصاعدت رائحة خيار طازج أو مخلل. اندلقت من سماعتي العرض أغنية (أنساك) لأم كلثوم سرعان ما تلاشت لتحل محلها موسيقى بلا طعم ولا لون. اضطررت لرفع صوتي منادياً وأنا أطل على وجوه معتمة، مرتابة، تعبة أو خائفة:

ــ يوسف، أأنت هنا؟

لم يأتني أي رد. اطفئتْ أضوية الصالة من جديد. كان الفيلم المعروض هندياً.

غادرت الصالة متيقناً من أنه يجب علي أن أبحث عنه في أي مكان إلا هنا. جربت آخر الاحتمالات: ارتقيت سلالم متكسرة إلى غرفة آلة العرض حيث عمل يوسف لحين من الزمن، فلم يجبني سوى أزيز بكرة الفيلم الهندي!

غادرت شتاء السينما إلى قيظ المدينة ثانية!

أصبحت مهمتي في البحث عن يوسف محفوفة بمخاطر شتى فهو إضافة لحالات فراره المتكرر من الجيش، أصبح لديه ملف لدى

دوائر الأمن. من جهتي لم أوقف عملية البحث لكنني ازددت احتراساً وأنا أبحث عنه في غرف الفنادق الشعبية وأسطحها وتكايا الدراويش وبيوتات الشناشيل المهجور منها والمأهول والحمامات الشعبية والبارات وزوارق الصيادين ومهربي البضائع وصالات دور السينما لاسيما سينما غرناطة، دون جدوى!

هكذا إذاً ابتكر متاهته الخاصة به. ما من أحد سواه يبصر ما خفي من خيوطها العنكبوتية. ما من أحد عداه على دراية بممراتها السرية، ممراً ممراً وقبواً تلو قبو يلجها أنّى رغب ويغادرها متسللاً متى ما رغب في الخروج. هي حيلة الحرباء: التضليل مقابل المصيدة! كثيراً ما راودني شعور بأنه قريب مني أو أنني قريب منه يستشعر كل منا جيشان أنفاس الآخر، غير أني شعرت، بعد طول تجوال، بنوع من اليأس والإرهاق. جعلت إثر كل جولة بحث غير مجدية ألوذ بتخت منزوٍ بمقهى صغير من مقاهي العشار أقتل الوقت بقراءة كراسة يوميات ابن خالي يوسف وأطّلع على رسائله التي فقدت بعض أجزائها وتهرأ بعضها الآخر.

* * *

قرأت:

الثلاثاء

أكره الحروب. من قال إنني لم أضع قدماً على بوصة من ساحة قتال؟! أنا رُميت رمياً إلى أحضان حربين طاحنتين، مثلي وغيري.

لم يكن حليب أمهاتهم قد جف من على شفاههم لحظة رميهم

لحتوفهم، كما لو أنهم ما ولدوا وما شبّوا وما اخضرّت لهم أعواد. أجل ودعني قسم منهم وودعت الكثيرين منهم. كانوا يرحلون مترفي الأكتاف، ملتمعي العيون، يحملون أصداء أغنيات وأحلاماً ورسائل وتوصيات وأدعية وتمائم من أمهات وحبيبات، وحلوى ليعودوا بأكتاف متهدلة وعيون منطفئة أو أنهم لا يعودون على الإطلاق! خضت، مثلي مثل آلاف الجنود، أكثر من معركة. ذات يوم أصاب صاروخ دبابتنا. لم أكن بداخل الدبابة لحسن الحظ. أو ربما لسوء الحظ. إذ كنت في ظل نخلة أقضي حاجة. ويا لها من أسباب تافهة للهلاك ويا لها من أسباب سخيفة للنجاة! عدت للمدينة على متن (إيفا) كانت تحمل جرحى إلى مستشفى المدينة العام. قضيت بضعة أيام في البيت فنحرت أمي أضحية بمناسبة نجاتي ناسية أو متناسية أنني لا ريب مغادر المقلاة إلى النار! أبصرت جنوداً يفقدون عقولهم وآخرين يبادون بأيد لا ترحم. أما الناجون، فكانوا أندر من مطر الصيف!

الخميس ـ أواخر شباط/فبراير:

في السينما عرفت شاباً من أولئك الذين يحرصون على الاحتفاظ بأناقتهم حتى في شارع زلق موحل تحت سماء ممطرة. ربما لأنه كان حلاقاً! لم تكن الابتسامة تفارق وجهه على الرغم من شعور مكبوت بمرارة الواقع. حين استدعي للخدمة، كانت معارك الحدود في أوج عنفوانها. كان الذهاب إلى الجبهة يعني السباحة في نهر بلا عودة. لم يجد أمامه سوى استخدام ذكائه من أجل إصدار عفو عنه. انكب على قراءة عشرين كتاباً سايكولوجياً يعالج موضوع الفصام. كان يقف أمام المرآة كل يوم متقمصاً الحالة حتى صدق هو نفسه أنه مريض إلى أن حلّ موعد اللجنة الطبية التي

أجرت عليه ــ في بادئ الأمرــ أكثر من اختبار انطلاقاً من اعتقادها بأنه كان يكذب. برع في التقمص حتى صدّق أعضاء اللجنة أنفسهم بأنه مريض، بمن فيهم أقلهم تصديقاً من الأعضاء. وهكذا تم تأجيله ثم أعفي نهائياً فيما بعد. تسلل عبر الحدود لمغادرة العراق إلى الأردن ومن ثم نال حق اللجوء في الولايات المتحدة الأميركية. كما سمعت عن فتى قروي، لقطته أذرع الخدمة العسكرية حين اندلعت الحرب قاذفة به إلى أتون المواقع الأمامية. سرعان ما أدرك أنها حرب عقيمة وأدرك أنها هوة ما لها قرار. في أول إجازة سُنحت له شيّد لنفسه سرداباً أسفل البيت ودفن نفسه فيه لا يخرج إلا نادراً وفي ظروف استثنائية، مطلاً على أهل قريته من خلال ثقب صغير. سنوات وهو في مكمنه لا يعرف بسره إلا والدته، مزْجياً الوقت بالقراءة وتسجيل اليوميات بانتظار انتهاء حروب ما لها انتهاء!

الاثنين

عزيزتي صابرين،

هل تذكرين ملابسات لقائنا الأول في باص الأجرة الذي اعتاد أن يقلّ كلاً منا، نحن الإثنين، إلى مدرسته؟ كنت فتاة وادعة الملامح مسبلة العينين تجلسين في أغلب المرات في المقعد المجاور لإحدى صاحباتك. هل تذكرين الصدفة التي قادتك إلى أن تجلسي في المقعد المجاور لمقعدي؟ لهوت بتأمل كفيك وهما تحطان على كتبك الدراسية. للمرة الأولى أكتشف أن أكفّ البنات تشبه أطياراً: كفّ ترتعش مثل أنثى كناري في يوم شتائي قرير، كف مغزلية تبدو أشبه بحمامة سلام تفرد جناحين أبيضين، كف مثل صدر طائر(تمّ)

يوشك أن يطلق أغنيته الأخيرة قبل أن يهوي صريعاً، كف ممتلئة كطائر سمان وأخرى هزيلة كفرخ عصفور دوري يغادر للتو بيضته. كانت كفك قمحية اللون كلون وجهك مترأرئاً كينبوع، بأقل ما يمكن من العروق، وأصابع صيغت نطقت عبر صمتها بأبلغ لغة. وهكذا أحببتك يا صابرين... ليس من النظرة الأولى بل من الكف الأولى!

هل نلتقي يوماً؟

يوسف

الأحد

لا جدوى من وراء البحث عني. لست شجاعاً. لست جباناً بالتأكيد. أنا إنسان.

أنا الآن بقية إنسان. خضت مرغماً معارك عقيمة ذقت فيها طعم الموت. ليس للموت مذاق واحد. هي حقيقة تعلمتها من خلال الميتات الألف التي ذقت طعمها.

تحت ظلال المدفعية البعيدة المدى والطائرات المغيرة وحقول الألغام المترامية الأطراف، هربت عشرات المرات وحكم علي أكثر من مرة، سجنت مرتين وكدت أن أُعدم في الثانية. كان آخر ما دفعت إليه من ساحات قتال يقع على حافات الصحراء حيث فوج المشاة الذي كنت واحداً من أفراده. حين صدرت الأوامر بالانسحاب، انسحابنا، لم تكن أوامر مبكرة في واقع الحال. ربما كانت كذلك لبعض الجنرالات. أمّا نحن الجنود والعرفاء فكنا مثلنا مثل الأزواج: آخر من يعلم! لم نكن جنوداً متخاذلين، ولو كان

الأمر في أيدينا لما خضنا أية حرب على الإطلاق. كنا ندرك تمام الإدراك أننا مجرد قفازات حيكت وألبست في أصابع أرغمت على ليّ أذرع المستحيل. وهكذا أصبحنا نحن الذين تأخرنا في عملية الانسحاب أشبه بلقيمات سائغة في مصيدة الهجوم. كانت معركة غير متكافئة بطبيعة الحال. لكل منا موته الخاص كذكرى. عثرت على نفسي شبه مغمى عليه وقد اجتزت جسراً تعرض هو بدوره للقصف الجوي، ثم تدبرت لنفسي تسللاً من الخطوط الأمامية إلى الخلفية ومن ثم إلى المدينة. اكتشفت أنني استحلت إلى هيكل واهن القوى متعفر برمل وأطيان وأقماع شائكة وأشواك صبار وعاقول. استحالت فردتا بسطالي إلى كرتين ملتهبتين وقضيت ساعات باذلاً المستحيل كي تنتزع الفردتان من قدمي بيدَي عامل الفندق.

٢٠ ـ ٣ (لا أذكر اليوم):

كنت غاضباً ومحبطاً ونصف ميت. لم أكن أبحث عن أي انتصار. ليس ثمة منتصر في الحرب! بعد أن أوصلتني شاحنة من شاحنات (السكس ويل) إلى مدخل المدينة قطعت بقية المسافة سيراً على الأقدام. رقدت على مصطبة مقهى مقفلة. حينما استيقظت، اكتشفت أنني كنت بلا خوذة وبلا بندقية. رحت أقرع يائساً باب فندق في وقت تعدى منتصف الليل. كنت على وشك أن أصاب بالإعياء. حين فتحت عيني عثرت على جسدي المتقطع الأوصال منضغطاً في سرير مقوس النوابض. لحظتئذ شعرت بآلام لا تطاق. غفوت ليومين من دون طعام أو شراب. كنت أستيقظ بين الفينة والفينة فتصم أذنيّ أصوات قصف المدينة. لم أكن متأكداً. في اليوم الثالث سحبت جسدي الواهن وأخذت دشّاً ثم

سألت عامل الفندق أن يحضر لي قطعة كعك وشاياً فاعتذر لدهشتي مقترحاً:

ــ لا يستحسن أن تخرج إلى أي مكان، قد يقبضون عليك بتهمة التخاذل، ويعدمونك!
ــ لكنني أتضور جوعاً، ثلاثة أيام وأنا...
ــ سأطهو لك بعض العدس وأعمل لك شاياً.

نفحته مبلغاً بسيطاً. أعاده إليّ في برود:
ــ استبقِهِ معك. أنت أحوج إليه. أأنت من هنا؟

هززت رأسي أن «نعم»: ــ لكن أهلي في مدينة أخرى...

ــ لماذا؟
ــ نزحوا من جراء قصف المدن.
ــ كيف؟

هززت رأسي: ــ بيتنا تعرض للقصف. ومن حسن الحظ أن أهلي لم يكونوا بداخله. نزحوا إلى إحدى المحافظات.

ــ أية محافظة؟
ــ لا أعرف بالضبط. أضاع كلانا عنوان الآخر!

الأربعاء ٢ ــ ٧

منذ ذلك الحين عزمت على أمر ما زلت ــ حتى الآن ــ لا أحيد

عنه: أن أبتكر لي متاهتي الخاصة بي. من يومها اتخذت من دور السينما ملاذاً لي.

ولما تنبه صاحب السينما لأمري طردني أكثر من مرة، لأصر على العودة إلى صندوق أحلامي متذكراً صباحات أعياد الطفولة والصبا حيث كنا نتفرج على أفلام شارلي شابلن وسعاد حسني وإسماعيل ياسين وطرزان، إلى متاهتي التي لم أدع أحداً يستشف خيوطها العنكبوتية، حريصاً على تغيير أماكن إقامتي من وقت لآخر! ثم ما لبث أن وثق بي صاحب الدار فأوكل لي مهمة تشغيل الأفلام المعروضة. وبهذا أمكنني أن أتفادى حملات المداهمة داخل الصالة وأختار أحياناً ما يناسبني من أفلام من أجل عرضها للجمهور ولو للمرة العاشرة.

كان وما زال (الهروب الكبير) فيلمي الأثير إلى قلبي وكان من بطولة ستيف ماكوين، يروي حكاية مجموعة من السجناء في معتقل نازي يحفرون نفقاً إلى الحرية، بيد أن معظمهم يقتل عند الحدود السويسرية أو في محطة قطارات ألمانية أو يعاد إلى المعتقل.

أواخر حزيران/يونيو:

لا تسلني عن أحوال دور السينما في أيامنا هذه. لقد انحدرت بها الحال من التألق إلى الاندثار. ما يؤسفني أنني قضيت وما زلت أقضي ساعات وأياماً في صالة أخذت نوعية روادها بالتبدل، تسللت إليها أصناف من المتفرجين لم تكن معهودة فيما مضى: غلمان منحرفون وحشاشون ومحتالون ونشالون وقتلة فارون من مشاكل قبلية ورجال مخابرات وعرفاء انضباط بملابس مدنية. لكن كان يفد إليها أيضاً جنود خام، بعضهم من الريف، جنود سفعتهم

نيران الحروب وموجات حرّ لاهبة جافة أو رطبة ليفروا من ذلك كله إلى أوهام ملونة وهواء حبيس بارد. ثمة من يأتي من محافظات بعيدة لتتبقى لديه سويعات يقضيها في صندوق مثلج ويتفرج على فيلم يمنحه خداعاً مؤقتاً، قبل أن يُقحم في جحيم معارك طاحنة على طول جبهات القتال. هنالك من يجيء لتذكر جسد امرأة أنسته أهوال القتال شكلها، أسرار جاذبيتها أو الطعم المتخيّل لشفتيها.

(رسالة من صابرين):

الخميس ٢٧ ـ ٤

عزيزي يوسف

كثيراً ما تساءلت: هل كان ما جرى بيننا حقيقة أم وهماً من الأوهام؟

أجل. كلانا أحب الآخر. لكننا ومنذ اليوم الأول للقائنا توقفنا عن أن نلتقي. التقينا مرتين أو ثلاث مرات. كان لقاؤنا الأخير في الحقيقة وداعاً. قدمت للمتنزه وأنت ترتدي، على غير عادتك، بذلة الجندي وتحمل حقيبة باليد وورقة الاستدعاء للجيش باليد الأخرى. منذ ذلك اليوم لم يعد أحدنا يرى الآخر إلا في صورة فوتوغرافية أو حلم. تلاشيت كضوء بعيد. انتظرتك شهوراً والشهور استحالت إلى سنين... لكنك لم تأتِ! بقيت صامدة أمام كل من تقدم لي خاطباً. كان الأهل يتساءلون مذهولين عن سر رفضي لهم. ثم استيقظت ذات ليلة لأكتشف أن الغضون قد غزت وجهي وبياض شعري قد هزم سواده هزيمة منكرة. ليتك جئتني ولو مرة! كنت

سأنتظرك حتى آخر العمر، غير أنك كنت حاضراً وغير حاضر. تتنقل من متاهة إلى متاهة. أرغمت ــ بعد طول انتظار ــ على القبول بفكرة تزويجي إلى ابن عمي. لم أعد أنتظر منك حباً بل إن ما أتوقعه منك هو الفهم. لا أعرف من قال إن الفهم أفضل من الحب وإن لم يكن بمثل مذاقه. وقال أيضاً: الفهم قد يقود إلى الحب لكن الحب لا يفعل! لا أشك أنك تفهم حقائق الحياة المريرة ومنها حقيقة حبنا المضاع!

وداعاً يا يوسف

صابرين

* * *

طويت دفتر يوميات ابن خالي يوسف لكنني لم أطو ذكراه على الإطلاق.

هكذا إذن جرت الأمور. وهذا هو ما تصنعه الحروب بنا. الحروب مثل الأمطار. إنها تسقط على الجميع! من الغريب أن المرة الأخيرة التي بحثت فيها عنه ــ دونما جدوى كالمعتاد ــ كانت داخل صالة سينما غرناطة. كان الفيلم المعروض يحمل عنوان (الهروب الكبير). وفيما كنت منهمكاً بمشاهدة الفيلم خيل إليّ أن كائناً بشرياً قد تسلل مارقاً من داخل صالة السينما عبر فجوة في الشاشة دون أن تنبس شفتاه بكلمة وداع أو يلتفت مغادراً الشاشة إلى خارجها حيث أقصى ركن من أركان الدنيا!

بطاقة شخصية:

* من مواليد ١٩٤٧ في البصرة.
* خريج قسم اللغة الإنكليزية ـ كلية التربية ـ جامعة البصرة ١٩٦٩.
* مارس التدريس في كل من العراق، الكويت، الأردن، ليبيا.
* عمل في الصحافة الثقافية بصحف الكويت (الثمانينيات) والعراق (منذ سنة ٢٠٠٣).
* له مجموعتان قصصيتان: (العين والشباك) و(الآن.. أو بعد سنين).
* ترجم عدداً من الكتب والنصوص الأدبية والمسرحيات العالمية.
* عضو اتحاد الأدباء والكتّاب العراقيين.

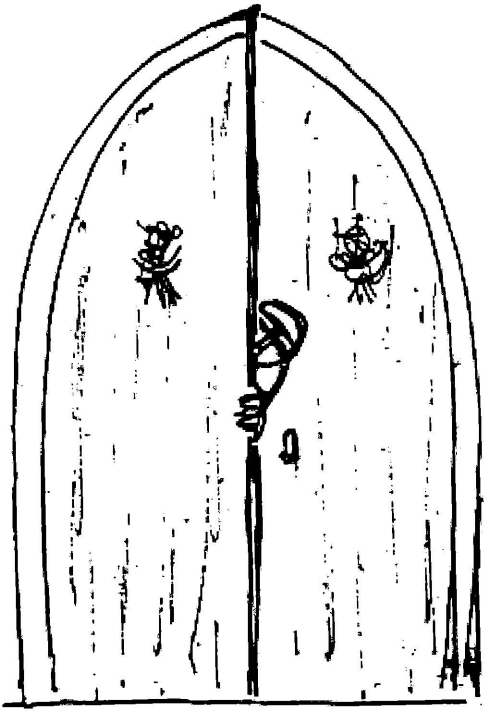

وللألم لون وطعم ورائحة...

نرمين المفتي

١٩٩١

«مهما طال غيابي، انتظريني سأعود مع أول قطرة مطر».

كان يمازحها كلما غادر البيت، لكنه بدا جاداً في المرة الأخيرة. وجعها قلبها وهو يقبلها عند الباب مؤكداً لها أن تنتظره مع أول قطرة مطر. وغادر البيت. ترك قدح الشاي الصغير قرب التلفزيون. كانت لا تملك غيره، فهي تعودت شرب الشاي في كوب كبير بينما كان يحب أن يشربه بالطريقة العراقية، بالاستكان. ولأجل أن يشرب الشاي الذي يحب بمتعة اشترت استكاناً واحداً له. لا تدري إن كان وجع قلبها أو هاجس ما منعها من رفع القدح الصغير لغسله، حتى لا تلمسه مخافة أن تفقد طبع شفتيه على حافته.

انتظرت عودته في ذلك اليوم من أيار/مايو ١٩٩١، لكنه لم يعد.

مساءً، اتصل بها صديق مشترك، معتذراً عن تأخره في إبلاغها، فقد كان يبحث عن كلمات مناسبة ليخفف عنها وقع الصدمة. ووجعها قلبها مرة أخرى وسألته «ما الخبر؟» وشرح لها كيف تم اختطافه. مسكت قلبها لتقدر على السؤال الثاني «من خطفه ولماذا؟». لم يكن الصديق يملك جواباً واكتفى بالردّ أن الخاطفين مجهولون وأن السبب قد يكون في جرأته الصحافية. وقبل أن ينهي مكالمته، عرض أن تتصل به كلما كانت بحاجة إلى خدمة ما.

أعادت سماعة الهاتف إلى مكانها وشعرت بدموعها تنهال بصمت. نظرت إلى القدح الصغير وشعرت ببعض الراحة لمحافظتها على شفتيه وتذكرت أنها ترتدي قميصه. صباحاً، وهي تودعه، كان قميصه الأقرب إليها فارتدته على عجل. لفّت نفسها بذراعيها وشعرت بحرارة جسده التي ما زالت عالقة بالقميص. استعجلت بنزعه ووضعه في خزانة ملابسها. ها هي تحتفظ بحرارة جسده وطبع شفتيه. وستنتظر أول قطرة مطر. لكن من الصعب أن تنزل قطرة مطر في بغداد بعد أيار/مايو، فالصيف لا يعرف المطر وقسوة حرارته تجعل الغيم يتبخر.

أخذتها الأيام وهي تسأل وتبحث عنه. اكتشفت أن الجميع، حتى المقرّبين، يخافون من التحدث إليها والصديق الذي وعد أن يساعدها كان يتجنب الردّ على اتصالاتها الهاتفية. فكانت زوجته تردّ وترحب بها معتذرة بأنه «ليس في البيت وسيخابر فور رجوعه». دائماً كان لا يخابر. وحين يئست من معرفة مصيره، عادت لتنتظر أول قطرة المطر.

كان يتأخر أحياناً بالمجيء في الموعد المحدد لكنه كان يأتي ويمازحها: «الفرنسيون يقولون: أن تأتي متأخراً أفضل من ألا تأتي أبداً. إنهم

اخترعوا بريجيت باردو وهذه الحكمة لتسامحيني». لم تكن تملك سوى أن تسامحه. وهذه المرة، وبالرغم من غيابه لأشهر، فهي متأكدة أنه ما إن يدق الباب ثلاث دقات بحاملة مفاتيحه حتى تسامحه قبل أن تفتح الباب.

كانت تجلس في شرفة شقتها وهي تعيد، للمرة العاشرة إن لم يكن أكثر، قراءة ديوان يوسف الصائغ (سيدة التفاحات الأربع). وتوقفت، للمرة العاشرة أيضاً، عند كلامه «أنا لا أنظر من ثقب الباب إلى وطني/ إنما أنظر من قلب مثقوب». رنت بنظرها نحو دجلة وعلى الطرف الآخر من النهر حيث الدمار مفجع. فقد قصفت الطائرات الأميركية مجمّع وزارة الدفاع، وهو في الأصل مبنى عثماني أثري ملاصق لما تبقى من سور بغداد العباسي، شهد تنصيب الملك فيصل الأول ملكاً على العراق واعتقال عبد الكريم قاسم صبيحة يوم ٨ شباط/فبراير ١٩٦٣ ومن ثمّ تمت إضافة مبان حديثة ليكمل المجمّع. شعرت بأن رماد الدمار يملأ عينيها، لكن حركة عمال البناء وهم يعيدون ترميم المبنى مستخدمين الرماد جعلتها تبتسم بمرارة. لا تاريخ للرماد سوى في العراق... تذكرت تلك الأسطورة القادمة من «أور»، حوالي الألف الرابع قبل الميلاد، والتي تقول بأن «الأعداء حرقوا اوروك للمرة الثالثة. وفيما كانت تبكي الملكة الأم جاءها ابنها الملك وقبّل يديها مؤكداً لها أنهم، على غرار المرتين السابقتين، سيعيدون بناء أوروك من الرماد هذه المرة أيضاً».

كان الوقت عصراً خريفياً في أواخر تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١. تكاثفت الغيوم واستمرت جالسة في الشرفة تنتظر أول قطرة مطر بعد غيابه. أعادت قراءة يوسف الصائغ وتخيّلت قلبه المثقوب

والوطن الذي بدأ الحصار والدمار يشكلان حاضره. نزلت أول قطرة، سقطت تماماً فوق كلمة الوطن، طوت الديوان كي لا تهرب قطرتها التي ستأتي به وانتظرت أن يدق الباب. على عجل خبأت علبة سجائرها، فهو لا يحبها مدخنة بالرغم من أن السيجارة كانت لا تفارق يده. لم تغادر البيت لحظة لثلاثة أيام خشية أن يأتي في غيابها.

لم يأت. القدح الصغير بقي قرب التلفزيون كما تركه ولاحظت أن غباراً كثيفاً غطى جوانبه وذرات تراكمت في داخله. ولتطفئ شوقها ومخافة ألا يأتي ارتدت قميصه وقررت أن تنتظر أول قطرة في العام القادم وأن تسجل له أهم ما تراه في الشارع كي لا يشعر بالاستغراب حين يعود.

١٩٩٢

شيرين، طفلة صغيرة وجميلة جداً، جاء أهلها منذ سنوات من خانقين للسكن في بغداد. والدها كسول فدفع بابنته إلى الشارع دون أن يخاف عليها منه. اكتشفت شيرين أن العديد من الصحافيين الأجانب الذين يرتادون مبنى وزارة الإعلام يتعاطفون مع أطفال الشوارع. وفي غضون أسابيع تصادقت مع الجميع وأصبحت تجلب شقيقها وشقيقتها الصغرى وهي أكثر جمالاً منها. حين تحدثتُ معها أدركتُ أنها تعرف مصيرها إذا استمرت في الشارع، لكن والدها بات يصر على أن تتسول. بمرور الأيام بدأت شيرين الجميلة تفقد براءتها. بعض الصحافيين الأجانب خصصوا لها رواتب أسبوعية شرط أن تعود إلى المدرسة. كانت تعدهم بذلك وتذهب للتسول في شارع آخر، ثم تقول إن والدها يريد المزيد من المال. اللافت أن ما كانت تجمعه شهرياً يفوق راتب موظف حكومي، وسرعان ما تناقل أطفال الشوارع ما «تكسبه» شيرين وبدأوا

يتجمعون عند إشارات المرور قرب الوزارة. كان عددهم يزداد يومياً، وهم يتراكضون كلما شاهدوا أجنبياً يغادر بوابة الوزارة. ترى ماذا سيكون مستقبل بلد يغادر صغاره المدارس إلى الشارع؟

في هذه السنة، ارتفع سعر الدولار في السوق ليوازي ٢٢ ديناراً فيما تصريفه الرسمي بقي كما هو: الدولار بأقل من ثلث دينار! ومعه ارتفعت الأسعار وبات تأثير الحصار واضحاً في الشارع، لكن في الوقت نفسه استمرت حملة الإعمار. كان العراقي يبني غير مبال بالأجور، وإن كان يضع في حسبانه أن ما يبنيه قد يدمّر في أية لحظة بتقرير من فرق التفتيش.

تأخر المطر. كان الذين يعمرون سعداء بتأخره واستمرار الحر. أما هي فباتت تنتظر قطرته الأولى، متمنية أن يحقق وعده ويأتي. جاءت تلك القطرة مع نهاية السنة لكنه أخلف في وعده مرة أخرى.

كانت كلما هدّها التعب والحيرة تذهب إلى المتحف العراقي وبالتحديد إلى القاعة التي تضم قطعاً نادرة من العصر الحجري القديم. كان منظر القلائد المصنوعة من العظام والتي ترجع إلى أكثر من ٦٠٠٠ سنة يدهشها وتتساءل مع نفسها: أي عاشق كبير كان ذلك العراقي الذي اخترع أول قلادة ليزين بها جيد امرأة أحبها؟ لكن، في هذه السنة، بقي المتحف مغلقاً واستمرت التحف النادرة محفوظة في صناديق مخافة حرب أخرى. ولم يكتف تجار الآثار بالقطع المنهوبة من حرب ١٩٩١ بل بدأوا يدفعون أموالاً طائلة لتخريب المواقع الأثرية غير آبهين بتدمير الذاكرة العراقية.

١٩٩٣

ارتفع سعر الدولار بجنون ليساوي ١٥٠٠ دينار وغدا الغلاء وحشاً

ينتهش الفقراء، واتضح أن الطبقة الوسطى التي بنت العراق الحديث في طريقها إلى التلاشي. وبدأ ميزان القيم ينقلب ليصيح المهربون والمرتشون الأبرز اجتماعياً.

أصبح للسوق، أي سوق، رائحة واحدة، رائحة لزجة مقززة تأتي من الملابس المستعملة والقادمة من الخارج. أصبحت تجارة «البالات» مربحة مع ارتفاع أسعار الملابس الجديدة. في سوق باب المعظم الشعبي شاهدت أماً لازمتها صورتها لفترة طويلة وقررت مع نفسها أن تطلب منه، حين يعود، أن يبحثا معاً عنها علّهما يفعلان شيئاً لأجلها. كانت الأم شابة في أوائل الثلاثينيات تتقدم نحو صاحب الدكان الذي يعرض عشرات الطبقات من البيض، سعر الطبقة الواحدة ٤٥٠٠ دينار أي ٣ دولارات. لكن راتب الأم المعلمة لا يتجاوز ١٥٠٠ دينار شهرياً وابنها مصاب بسوء تغذية أوصاها الطبيب بأن تطعمه بيضة يومياً. وقفت أمام صاحب المحل وسألته إن كان يقبل بأن يبادل قلبها بطبقة بيض! لم تكن تملك في جيبها سوى ثمن خمس بيضات اشترتها للأم التي شكرتها بدموع.

جاءت قطرة المطر تلك السنة متأخرة أيضاً... قررت أن تترك القطرة الأولى حرة وألا تخبئها بين صفحات كتاب كان يقرأه دائماً (زوربا). طاردت تلك القطرة وهي تنزلق من نافذتها إلى الشرفة وإلى الشارع. كان الوقت بعد المغرب وكانت القطرة أسرع منها في الوصول إلى الشارع. أسرعت إلى سيارتها وأقسمت أنها تعرف القطرة الأولى من بين آلاف القطرات التي تتراقص أمام أضوية السيارات. في الشارع فجعها منظر أطفال الشوارع وهم يحتمون بالجدران من المطر. بدا الجدار أكثر حناناً من شارع تغيرت قيمه.

بقيت ملازمة لقطرة المطر الأولى طيلة الشتاء القصير ولاحظت أن

الغبار غطى تماماً قدح الشاي الصغير المايزال في مكانه. حاولت أن تقنع نفسها بأنه لن يعود، لكنها لم تتقبل هذه الفكرة.

١٩٩٤

بدأ أصحاب الشهادات والكفاءات يهاجرون العراق، في الوقت الذي أصبح فيه السفر إلى الخارج من المستحيلات وغالبية المغادرين باعوا كل ما يملكونه للسفر. بدأت تثقل وطأة غيابه مع هجرة الأصدقاء. كتبت له بأن صعوبة الحصار ليست في قلة الدواء والغذاء بقدر ما هي في الشعور بالوحدة والعزلة.

كتّاب وشعراء وأساتذة جامعيون أصبحوا، في كل يوم جمعة، يعرضون كتبهم الخاصة للبيع عسى أن يساعدهم ذلك على إدامة حياة أسرهم. اخترعوا ثقافة الحصار الذي منع عنهم الكتب الحديثة الصادرة في الخارج. كان الكتاب القادم عبر صديق مهاجر أو مسافر يُستنسخ في شارع المتنبي وتتم مناقشته في مقهى الشابندر. ساد الإحباط المثقفين لكنه لم يتحوّل إلى يأس.

في هذه السنة، بدأت الجنازات الجماعية للصغار في السن ظاهرة مقيتة وكأنها تستجدي دمعة من عالم قاس اعتبر موت الأطفال ثمناً مقبولاً للقضاء على النظام! وبإصرار، كان البعض يسحبون الشارع إلى «قيم» غريبة على المجتمع العراقي، والمثال الصارخ كان المسرح العريق الذي تحول إلى مهزلة سموها «كوميديا» لإمتاع الأثرياء الجدد.

أين أنت الآن؟ هل ترى ما يجري في بلدنا؟

١٩٩٥

مع بداية السنة تفاقم تدهور العملة ولجأت المؤسسات الرسمية إلى

وسائل عديدة لمساعدة الموظفين وأصبح للرشوة اسم جديد: «مساعدة المحتاج». أصبح مشهد الأشجار المزروعة على جانبي الطرق والمتنزهات العامة مؤلماً إذ بدت أوراقها متهدلة واخضرارها شاحباً على غرار الوجوه المكفهرة.

كتبت له بأنها أسست مع أصدقاء موسرين جمعية غير رسمية وبلا اسم أو عنوان، فقط رقم هاتف، لمساعدة الأكثر حاجة. احتفظت له بصورة رفيف، الشاب الذي كان طالباً بمعهد الفنون الجميلة ويحلم بأن يكون فناناً يشار إليه بالبنان، لكن اليورانيوم المنضب الذي جلب للعراقيين سرطانات مختلفة خنق حلمه. أصيب بسرطان شرس في العظام، وحين بدأت تساعده بشراء الدواء، اكتشفت أنه مشرف على الموت. كانت أسرته الفقيرة تسكن في شقة صغيرة متواضعة في حي بغداد الجديدة. قال لها بأنه يريد أن يرى العالم من خلال وردة. فقامت مع صديق من الجمعية البلا اسم بحجز غرفة له في فندق عشتار (شيراتون) واتفقت مع مضيفات الفندق على أن يرافقنه إلى الحديقة صباح كل يوم. ذهبت لمنزله لاصطحابه إلى الفندق. لكن ما إن وصلت الدار حتى سمعت صراخاً على السلالم. لقد توفي رفيف دون أن يرى العالم عبر وردة وترك لها صورته موقعة «أحبك».

لم تنتظر قطرة المطر في هذه السنة، تمنت أن يفاجئها. كان يوجعها شوقها إليه، لكن الوجع العام كان أكبر وكانت تخجل أمام وجع مثل رفيف.

١٩٩٦

توقفت عن مراسلة أصدقائها وصديقاتها الذين هاجروا. كانت لا تملك ما تخبرهم سوى الألم فتركتهم يكملون حياتهم الجديدة

بعيداً عن الذكريات.

في هذه السنة، بدأ العمل بمذكرة التفاهم والتحقت بالجامعة لتحضير الماجستير. شعرت بشيء من الارتياح وتنبهت إلى أن عدد الطالبات يفوق عدد الطلاب وإلى أنه، بالرغم من تأثير الحصار على النظام التعليمي، بقي الإصرار على التفوق والاجتهاد واضحاً.

مرة أخرى، لم تنتظر أول قطرة مطر وقررت ألا تسامحه لتركها وحيدة. كانت قد بدأت تشير بقلب أحمر إلى أرقام هواتف من يغادرها من الأصدقاء، موتاً أو سفراً أو صمتاً، لكنها احتفظت برقم هاتف مكتبه.

١٩٩٧

قررت أن تبدأ لعبة مطاولة مع الحصار لتعيش. فبدأت تخترع أحلاماً صغيرة وابتسامات تتمسك بها لينتهي يوم وتبدأ من جديد في اليوم التالي. أصبح الموت أسهل من الحلم في العراق وأصبح كل أمس أفضل من الغد. فقد رحل الأمس بكل فجائعه وكان غد الحصار دائماً يأتي بمآس غير متوقعة.

بدأت في كتابة أطروحتها وشعرت بالحاجة إلى أن يفرح بها لتستمر. لمست تغييراً في مكتبة الجامعة: لا كتب جديدة والمراجع الهامة ممزقة. شرع بعض طلبة الدراسات الأولية والعليا يمزقون صفحات الكتب لأخذ ما يحتاجون له بحجة ارتفاع أجور الاستنساخ. هكذا تسللت «قيم» الحصار الأنانية إلى الحرم الجامعي. طلبت من صديقتها في لندن أن ترسل لها بعض المصادر الحديثة، لكن بعد ثلاثة أسابيع

تسلّمت رسالة تتضمن ردّ البريد البريطاني لصديقتها: «نعتذر عن إرسال الكتب إلى بغداد لأن العراق تحت عقوبات دولية». مرة أخرى، شعرت بأن الحصار يجعلها وحيدة، وحيدة.

تناست انتظار قطرتها الأولى وكاد اليأس من عودته يسيطر عليها. ولم يأت.

١٩٩٨

توفي والدها في أول أزمة قلبية تصيبه، إذ كان قسم الطوارئ في المستشفى يفتقر إلى دواء ينعشه. فاجأها رد وزارة الصحة بعد أن فاتحتهم في كتاب عن حادث الوفاة، إذ أكد الرد ــ الذي تم نشره في جريدة الجمهورية ــ بأن الوزارة أصدرت توجيهاً بوجوب توفير الدواء المعني في المستشفيات كلها...

أصبح الموت اعتيادياً جداً. ولم تقض مذكرة التفاهم على المشاكل الحياتية ولا الاجتماعية التي نتجت من الحصار.

كتبت له بأن الحصار حقق هدفه: قلب ميزان القيم العراقي.

١٩٩٩

مع الرحيل المفاجئ للكاتب مصطفى المختار في الشهر الأول من هذا العام، بلغ عدد الصحافيين والموظفين العاملين في جريدة «الجمهورية» والذين توفوا منذ الحصار ٢٠.

ارتفعت نسبة الذين يعيشون تحت خط الفقر، وازداد عدد النساء المعيلات لأسرهن، وانتظمت المئات من النساء الفقيرات في

المدارس المسائية التي تم افتتاحها لمنحهن فرصة حياتية أفضل، والتحق الآلاف بالدراسة الجامعية المسائية.

رجته أن يعود بسرعة. فمشاطرة الألم تخفف من لوعته.

٢٠٠٠

عقد مؤتمر دولي لعلماء الآثار في بغداد، شارك فيه عشرات العلماء الأوروبيين والأميركيين من الذين سبق وعملوا في المواقع الأثرية العراقية الغنية. أكّد أحد المشاركين أن بعض الآثار ستتلف لعدم توفر المواد الكيمياوية الحافظة وكانت التوصية أن يتم إخراجها من صناديقها وعرضها من جديد. وأعلنت دائرة الآثار استعادة مئات القطع المهمة من التي سرقت وهرّبت إلى الخارج، لكن تخريب المواقع الأثرية تواصل.

الاستكان ما زال في مكانه، لكنها لم تعد تتنبه إلى وجوده إلا من حين إلى آخر. لا تمسه، تختنق الدموع في حلقها وتعود مسرعة إلى مشاغلها اليومية.

٢٠٠١

قرن جديد استقبله العالم كله بالغناء والفرح والأمل بأن يكون أكثر تقدماً وراحة للإنسان والقضاء على الفقر والحاجة. لم يأبه العراقيون بالحدث إذ لم يتوقعوا سوى سنة جديدة من الألم والحرمان. تغير المجتمع العراقي تماماً. كل شيء بدا كأنه يصر على التخلف والتراجع.

ارتفعت نسبة الأمية في البلد الذي حاز في ١٩٨٤ جائزة اليونسكو في القضاء عليها. دخلت خدمة البريد الإلكتروني إلى البلد في هذا العام وساد جو من الكوميديا السوداء. إذ شرع روّاد الإنترنيت يتناقلون نكات يحاولون الدفاع فيها عما تبقى من قيمهم وحياتهم السابقة ويعمدون عبرها إلى التواصل مع العالم الخارجي.

هل يا ترى كان ليشارك أصدقاءه في استحداث النكات؟

٢٠٠٢

في نيسان/أبريل من هذه السنة أعيد افتتاح المتحف العراقي. عادت إلى قاعتها التي تحب، وكما في السابق، بدأت الجولة في المتحف بتحية ذلك الإنسان العراقي الذي عاش قبل آلاف السنين. كانت الجمجمة تحتفظ بشبح ابتسامة أبت أن تتلاشى. وقفت أمام القلائد وتذكرته ولامت نفسها لأنها توقفت عن انتظار قطرة المطر الأولى.

لاحت حرب أخرى في الأفق. وفي تشرين الأول/أكتوبر صدر قرار بالعفو العام عن جميع السجناء وعاد البعض ممن كان أهلهم يحسبونهم في عداد المفقودين. لكنه لم يعد. وكأنهم أرادوا أن يؤكدوا لها أنه لن يعود أبداً.

٢٠٠٣

مع تيقنها بأن الحرب على العراق باتت حتمية، ذهبت إلى المتحف وسألت مديرته إن كانوا سيخبئون الآثار في أماكن أمينة. كان الجواب بالنفي لعدم توفر المواد اللازمة للحفظ. وسألت: وماذا سيحدث لو استهدفت الحرب المتحف؟ كان الجواب بالدموع!

مع اقتراب الحرب غادرت بيتها إلى بيت أهلها. لم تأخذ شيئاً معها كما فعلت في الحربين السابقتين. تركت كل شيء كما هو، وعرفت أن كل من غادر بيته تصرف مثلها مع الإحساس بأن هذه الحرب قد تكون الأخيرة لكنها ستدمر كل شيء في طريقها.

في الدقائق الأولى، قصفت الطائرات والصواريخ بغداد. انتهت الحرب بسرعة غير متوقعة. لم تعد تشعر بأنها تنتمي إلى أرض كان اسمها العراق. كانت تتوقع أن تموت ما إن تخدش الصواريخ وجه بغداد مرة أخرى. لكنها، في الواقع، رسّخت انتماءها إلى بلدها وتعلمت من النخلة أن تقف على الجرح وعادت إلى بيتها.

للوهلة الأولى، بدا البيت حزيناً. الغبار في كل مكان، وسخام الحرائق على النوافذ والدمار شاخص للعيان. تحول قلبها إلى دمعة وقررت أن تنظف البيت، لكن من أين تبدأ والدمار يصر على الاستمرار وتأبى الدمعة أن تغادر القلب؟ تذكرت نصيحة والدتها التي كانت تقول إن الحلم يبدأ من نقطة. والحروب جعلتها تكتشف أن حروف كلمة الحلم بلا نقطة. هل تعثر على نقطة الحلم في الدمار؟

توقفت عن الكتابة له. فقد اكتشفت وهي تقرأ يومياتها قبل اختطافه وبعده فرقاً شاسعاً بين الفتاة التي كانت تحب وتحلم.. والامرأة التي جعلتها المآسي واقعية كالألم الذي أصبح له لون وطعم ورائحة في العراق. وإذا عاد فسيعرف أنها أصبحت تخاف المطر وتخاف لو مدّت يدها لتحبس قطرته الأولى لانفجر كفها من شدة الوجع المتراكم.

بطاقة شخصية

* من مواليد كركوك، عام ١٩٥٩.
* خريجة كلية آداب المستنصرية ـ قسم الترجمة.
* دبلوم في الصحافة من معهد الصحافة العالمي في بودابست.
* عملت في مجال الصحافة بمجلة «ألف باء» الأسبوعية (١٩٨٠ ـ ١٩٨٨).
* معدّة ومقدّمة برامج تلفزيونية وإذاعية في تلفزيون العراق وإذاعة بغداد، وعضو في هيئة تحرير جريدة «الجمهورية» (١٩٩٣ ـ ٢٠٠٠)
* منتجة برامج في شبكة تلفزيون «سي.ان.ان» الأميركية في بغداد (٢٠٠١ ـ ٢٠٠٥).
* كاتبة في جريدة «الأهرام الأسبوعي» باللغة الإنكليزية (من ٢٠٠٠ لغاية اليوم). ورئيسة مجلس إدارة ورئيسة تحرير جريدة «القلعة» الأسبوعية التي تصدر في بغداد (من ٢٠٠٥ لغاية اليوم).
* حازت جائزة أفضل صحافي في العراق ١٩٨٥ ـ ١٩٨٦ ـ ١٩٨٩، جائزة تصوير من الجمعية العراقية للمصورين الفوتوغرافيين في ١٩٨٦ و١٩٩٤.
* نالت الجائزة الأولى لبرنامج جماهيري من اتحاد الإذاعات العربية لبرنامجها الإذاعي الأسبوعي «حديث الناس» في عام ١٩٨٩.
* أصدرت ثلاثة كتب للأطفال (١٩٨٥ ـ ١٩٨٦ ـ ١٩٨٧) ومجموعة قصصية باسم «يوميات رجل يموت» (٢٠٠٠).

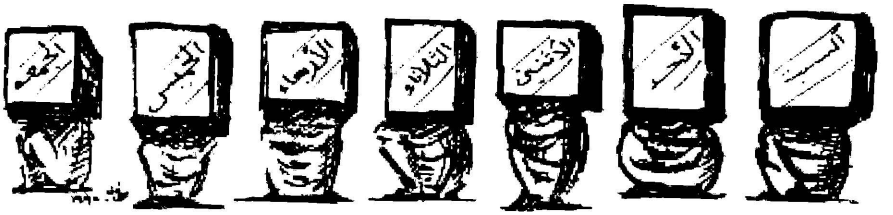
الجمعة
الخميس
الأربعاء
الثلاثاء
الاثنين
الأحد
السبت

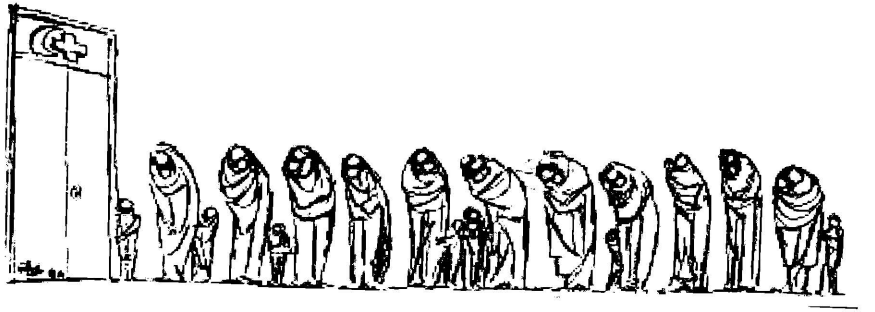

وهربت الألوان..

هناء حسن غائب

مقدمة لا بد منها:

ليس سهلاً أن أكتب عن حياتي: فالذكريات كثيرة، تدفعني إلى الألم غالباً وإلى الابتسامة أحياناً. عليّ الاعتراف بأني لست كاتبة. كنت وما أزال معلمة مدرسة ابتدائية وأماً حاولت أن تدفع تلاميذها وبناتها دائماً إلى النجاح بالرغم من الظروف التي مر بها البلد وما يزال، والتي كثيراً ما شعرت بالعجز أمامها.

* * *

في مساء حزين من عام ١٩٩٣، قرر سالم أن يمضي. لم تبق لديه طاقة لاحتمال الألم بعد أن عجز العلاج عن إسكاته. كنت أعرف أن المرض اللعين قد أنهكه بعد انتشاره في كل جسمه وأنه سيمضي آجلا أم عاجلاً. طالما أبعدت هذه الفكرة عني وعن بناتي مكابرة

لأواصل العيش والعمل، بينما بدأ الحصار المفروض على العراق يدخل في تفاصيل حياتي. في ذلك المساء مضى ورأسه بين يدي، والبنات حول سريره. وأيقنت لحظتها بأن حياتي قد تغيرت إلى الأبد وأن عليّ أن أواجه الدنيا والحصار وحيدة، الحصار الذي جعل علاج سالم عسيراً ومكلفاً.

لا أذكر متى بدأت أحبه. إنما أدري بأنني كنت دائماً معجبة به وبفنه وبلوحاته التي طالما أخذتني بعيدة عن بعقوبة، مدينتي التي ولدت فيها وعشت صباي في ربوعها، رغماً من قيود العائلة والمجتمع التي فرضت علي التحرك بين المدرسة والبيت فقط. أصبح سالم ملاذي للتحليق في عالم فيه الحرية والتحرك والحلم، إذ كان يعدني بتحقيق كل ما هو ممكن.

نشأت في أسرة متزمتة وميسورة ومعزولة عن المجتمع الكبير خوفاً على بناتها الأربع وحرصاً على تزويجهن بمن يليق. كنت الثانية بينهن، متعطشة لتعلم الحياة بمعانيها العميقة. وكان سالم ابن عمي، وبالتالي ممن يُسمح لهم بزيارتنا. لاحظت والدتي، رحمها الله، حبي له من خلال لهفتي على الحديث معه وانتظاري لزياراته. أما تأنيبها المستمر فقد جعلني أتيقن من حبي له. وحاول سالم أن يعبر بدوره عن إعجابه من خلال دواوين حب يطلب مني قراءتها وروايات يشير إلى سطور معينة بها، باتت متعتي الوحيدة بعد أن تخرجت من معهد المعلمات وأصبحت جليسة البيت. تزوجت أخواتي وبقيت أهتم بصحة والدي المشلول وأصبح سالم يلازمنا ليلاً ونهاراً حتى وفاة والدي.

بعد سنة جاء سالم مع والديه لخطبتي. واضطرت أمي إلى الرضوخ أمام إصراري على الارتباط به غير أنها قاطعتني سبع سنوات!

كان العراق آنذاك مستقراً اقتصادياً، تسود الحميمية والدفء العلاقات الاجتماعية. رحلنا إلى بريطانيا رغبة في إكمال الدراسة والاستقرار نهائياً هناك. حصل سالم على مقعد دراسي في جامعة «إكستر» وحصلت على عمل مع وعد بالدراسة. بالحب كان يبدأ يومنا وبه ينتهي. وبالرغم من الغربة والدراسة والعمل، كان يرسم الجمال ويجعلني أكتشفه حتى في أقبح الأشياء وأتجاوز العقبات بتفهم عميق ورغبة صادقة في الاستمرار. لكني لم أكن سعيدة. لم أشعر بالانتماء إلى المجتمع الأوروبي، فقررنا العودة إلى العراق. وفي بغداد بدأنا رحلة تأسيس بيت جديد بعد أن صرفنا كل ما لدينا في السفر وأجور الدراسة.

عينتُ معلمة في مدرسة ابتدائية فيما شرع سالم يدرّس في أكاديمية الفنون الجميلة. وجاءت البنت الكبرى (ريم)، لتصبح محور حياتنا. وما لبث أن جرى ترشيحه لزمالة في بريطانيا لدراسة الدكتوراه فوافقت على أن أرافقه لكي يحقق أمنية طالما حلم بها. كانت الحرب قد بدأت مع إيران وسافرنا مرة أخرى مع وعده لي بالعودة. كاد القلق على الأهل والبلد يقتلني كلما اشتدت الحرب. وفي السنة التالية، جاءت الابنة الثانية (طيب) وهي تعاني مشاكل صحية عديدة. وبدأ معها كفاحنا ضد الألم.

انتهت فترة الدراسة، وقررنا العودة مرة ثانية. «البلد يحتاج لنا» قال واحدنا للآخر. عدنا والحرب مستعرة لأبدأ صراعاً جديداً مع الحياة، لتربية طيب تربية سوية في مجتمع يعتبر العاهة موضوعاً للتفكه والضحك. وبدأ سالم يكد ليلاً ونهاراً ليوفر المال لعلاجها وإنقاذ بصرها الذي كان من أصعب عاهاتها. وجاءت الابنة الثالثة وسميناها (فرح) آملين في أن يعود إلينا والى العراق ولكن هيهات...

ما لبثت أن بدأت حرب أخرى قاسية تلاها حصار أقسى.

بلغت (طيب) عشر سنوات وحاولنا السفر لعلاجها في الخارج، لكن دون جدوى بسبب منع أساتذة الجامعة من السفر. وفيما نحن قلقون على (طيب)، بدأت صحة سالم تتدهور وأكد التشخيص إصابته بالسرطان.

تقرر إجراء العملية بأسرع ما يمكن، ولكم أن تتخيلوا صعوبة إجراء عملية في بلد محاصر يفتقد شتى الأدوية، لا سيما المتخصصة منها. كنا أكبر من الألم وكنا نحن الأربعة، حتى الصغيرة (فرح)، كالسوار الذي يحيط بالمعصم، نكتم السر عنه ونلبي طلباته. عاد سالم كالطفل الصغير لا حول له ولا قوة، لا يسعه إلا المعاناة فيما الحياة مستمرة رغم كل شيء. مرت الأشهر ونحن نستجدي العلاج بكل أنواعه للظروف القاسية التي كان يمر بها البلد.

بعد ثلاث عمليات جراحية متتالية، مات سالم وماتت معه كل الأمنيات وساد صمت حزين بيتنا وتساؤل لا يفارق العيون: كيف نحيا بعد رحيله؟ أنا التي كان الأهل والأصدقاء يصفونني بأنني «كلي قلب»، قررت أن أصبح صخرة أمام الحياة واستطعت أن أتقن الدور أمام بناتي وتلاميذي الصغار.

ازدادت نسبة التسرب من المدرسة وخصوصاً أن غالبية تلاميذ مدرستي كانوا من الطبقة الفقيرة أو المتوسطة التي باتت تتلاشى يومياً إلى أن أصبح المجتمع من طبقتين: غنية لحد التخمة، وفقيرة لحد الجوع. استناداً إلى مصادر رسمية عراقية، نحو نصف تلاميذ المرحلة الابتدائية تركوا الدراسة أو لم يلتحقوا بالمدرسة أساساً، في بلد كان قانون التعليم الإلزامي فيه يقضي بسجن الوالد الذي يمنع أبناءه عن

الدراسة التي كانت مجانية في كل مراحلها الدنيا والعليا. أصبحت هذه الحدة واضحة بين تلميذ ينام في الدرس من الجوع وآخر يخرج من حقيبته الفواكه والشوكولاته، بين تلميذة ترتجف برداً في الشتاء وأخرى ترتدي أحدث الموديلات. وصار الفرق الطبقي مؤلماً حين نجتمع بالأمهات.

أذكر تلك الأم الموظفة في دائرة حكومية والتي كانت قد فقدت زوجها بمرض لم يتوفر له العلاج المناسب في العراق. ولداها كانا في مدرستي. أخبرتني أنها طلبت من الابن الأكبر (عمّار) ترك الدراسة والعمل لمساعدتها، لكنه رفض مصراً على الاستمرار. جاءت تطلب مساعدتي لأقنعه بترك الدراسة. كان الولد في السادس الابتدائي، مجتهداً ويحلم بنيل شهادة جامعية. شرحت لي ظروفها الصعبة ومسؤولية ستة صغار. دمعت عيناها وبكيت معها. وبالرغم من ذلك، اعتذرت عن مساعدتها بإقناع ابنها أن يترك الدراسة.

بعد أيام جاءني (عمّار) وشكر لي موقفي وطلب بدوره مساعدتي. لقد قررت والدته أن تخبز في البيت لمن يريد على أن يساعدها في جلب الطحين وتوزيعه خبزاً إلى المنازل. ووعد والدته بأن يبيع الخبز في العطلة وأيام الإجازات. وإن كان الله سبحانه قد مكنني من مساعدة (عمّار) فإن العشرات من تلاميذي غادروا المدرسة إلى العمل. في البال لحد الآن (حسن) الذي كان يكد في الدراسة ويتفوق بالرغم من فقر عائلته، بعينين تعبّران عن فرح وحزن متلازمين. انقطع عن الدراسة بعد وفاة شقيقته الصغيرة بسرطان الدم. وفي يوم وأنا أتسوق قرب المدرسة شاهدته يعمل. يتراكض نحو المتسوقين ليساعدهم على حمل أغراضهم مقابل أجور قليلة. حين رآني هرول نحوي خجلاً وأصرّ على أن يساعدني بحمل ما

اشتريته دون مقابل. خبأت دموعي وأنا أنصحه أن يأتي ليتسجل لامتحان خارجي. شكرني واعتذر، إذ إن حمل الأغراض للمتسوقين ينهكه، وأقسم، بالمقابل، أنه لن يقبل أن يترك إخوته الصغار المدرسة. نظرت إليه وأيقنت أن العمل صيره رجلاً، وتساءلت: لكن أي رجل سيصبح وقد فقد أحلامه مبكراً؟

غدت مناظر المتسولين في الشارع مؤلمة، والأكثر ألماً أولئك الصغر الذين تركوا حلم المدرسة إلى مهنة بيع المناديل الورقية والسجائر قرب إشارات المرور. وطالما أخذني التفكير بمستقبل بلد يتكاثر فيه أطفال الشوارع. غير أن إصرار التلاميذ الصغار على التفوق كان يمنحني بعض الأمل.

لم يؤثر الحصار على الحالة المعيشية فقط للتلاميذ والكادر التعليمي، إنما أثر على العملية التربوية كلها. لم يعد التلاميذ يقتنون كتباً جديدة بل قديمة، بعضها ممزق وبعضها الآخر ممتلىء بكتابات وشروح. كانت الكتب الجديدة، التي موّلتها منظمات إنسانية وأخرى التي تم طبعها وفقاً لـ«مذكرة التفاهم»، تتسرب إلى الأسواق المحلية لتباع بأسعار مرتفعة.

وترك الحصار آثاره العميقة في نفسية المعلمين والمدرسين الذين لم تتجاوز رواتبهم في أحسن الأحوال الخمسة آلاف ديناراً، أي ما يعادل حينها دولارين أو ثلاثة دولارات في الشهر!! وطاول التسرب الكادر التعليمي، لكن الغالبية من الذين استمروا ظلوا محافظين على القسَم الذي رددوه حين التخرج وبقوا «تلك الشمعة التي تحترق».

في البيت، كنت أغمر بناتي بالحب محاولة إبعاد الحزن وألم الحصار وإن كانت كل واحدة منهن تعود يومياً بقصص «حصارية» عن

زميلاتها في المدرسة. كنا نقضي أمورنا اليومية بتدبر وأنا أخفي عنهن حزني وهمّي الأكبر: فقد أوشكت نقودي أن تنفد بعدما بعت كل ما أملك من مصاغ ذهبي وتحف. أصابني الأرق وبتّ أمضي الليل متوسلة الله أن يرشدني إلى وسيلة أكفي بها بيتي وبناتي من الحاجة، في زمن أصبح به راتبي الشهري وراتب سالم التقاعدي لا يكفيان لأسبوع.

جاءتني الفكرة حين طلبت مني جارتي أن أدرّس ابنها مادة الرياضيات في البيت لقاء أجر. شعرت بأنها تريد أن تساعدني فطلبت أجراً زهيداً. وحين أصبح ابنها متميزاً وحقق درجة عالية في الرياضيات في الامتحان الشهري فاجأتني تدفق صديقاتها يرجون أن أعطي بناتهن وأبناءهن دروساً خصوصية في البيت. وكان قراري أن أعمل ليل نهار، فحولت بيتي إلى مدرسة صغيرة أدرّس فيها المتميز والبليد، المرفّه والفقير ليصبح المنزل بوتقة انصهرت فيها كل المعادن.

تجاوزت الحاجة المادية فيما تعوّدت البنات أسلوب الحياة الجديد. كنت أستيقظ مبكرة جداً لأهيئ الفطور والغداء وأغادر البيت إلى المدرسة وهن معي. ثم نعود لأبدأ «الدوام» في بيتي. باب «مدرستي» يبقى مفتوحاً لغاية التاسعة مساءً. أصبحت بناتي خير مساعدات لي. الكبرى مسؤولة عن أعمال البيت، (طيب) تراقب التلاميذ أثناء صلاتي أو اضطراري للرد على الهاتف، والصغيرة اكتفت بتعليم نفسها والتميز في دراستها. بعد انتهاء اليوم، كنا نقوم بتنظيف غرفة الدراسة وتهيئتها ليوم ثان ومن ثمّ تذهب كل واحدة لإنجاز ما تبقى لديها من واجبات.

لم يمر يوم واحد بل ساعة واحدة من دون أن نذكر «بابا» رحمه الله. كان معنا في كل لحظة وصوره ولوحاته تملأ البيت وعاش معنا

حقيقة وحلماً. كنت وما أزال أشتاق إليه، شوقاً أبكاني في البداية ثم جعلني أبتسم وأنا أتذكره وأستذكر أيامنا معاً. غالباً ما عاتبته لأنه قرر الرحيل ونحن بأمس الحاجة إليه. فلو بقي معي لخفّف من ألم الحصار وألمي كأم لم تجد علاجاً لابنتها التي أصرت على إكمال الدراسة. كان يتعين إجراء عملية لعينها قبل بلوغها العاشرة. فات الأوان وفقدت البصر فيها. وكان قلبي ينفطر وهي تكمل واجباتها المنزلية ويكاد الكتاب أو الدفتر يلتصق بخدها الأيسر حيث العين التي تبصر.

في المدرسة، كنت أنسى البيت لأتفرغ لمهمتي التي كنت وما أزال أراها مقدسة. جعلنا الحصار نفقد تلاميذنا سنة بعد أخرى. وفقدت العلاقات الاجتماعية حميميتها. أصبحت كل معلمة في المدرسة مشغولة بمشاكلها خصوصاً أن الوضع المادي أثر على العلاقات العائلية. وبسبب تكاليف النقل، طلبت معلمات كنت قد بدأت العمل معهن، نقلهن إلى مدارس قريبة من محل سكناهن. أصبحت الإدارة تطالب أولياء أمور التلاميذ بتوفير ما تحتاج له المدرسة. مع بداية كل سنة دراسية كان أولياء التلاميذ الموظفون والذين أطلقت عليهم الصحافة لقب «أصحاب الدخل المحدود» يأتون ويتوسلون الإدارة أن تخفف من طلباتها. وافقت الإدارة أحياناً ورفضت في أخرى. وبسبب قسوة بعض الإدارات وإلحاحها في الطلبات، ترك الكثير من التلاميذ الدراسة. واللافت أنه مع استمرار الحصار، أصبح الحجاب ظاهرة رائجة بين المعلمات والتلميذات. تحجب بعضهن إيمانا وأخريات بسبب غلاء الملابس الجديدة. وكان حجاب الرأس والجبة النسائية وسيلة اقتصادية.

غدا الحصار أسلوب حياة. تعلّمنا أن نخبز في البيت، أن نعمل على

ضوء الفانوس، أن نودع ميّتاً بصمت وإن كان زملاؤه الصغار يبكون لأيام ثم يعودون إلى الدرس واللعب. مع تكرار حالات الوفيات والتسرب من المدارس، بدأ الصغار يشعرون بألم الفراق وانعكس ذلك في رسومهم إذ هربت الألوان منها وأصبحت قاتمة فيها الكثير من الدموع والتلويح لرفيق الصف الذي مضى. وبالرغم من كل هذا الأسى، كان العشرات من التلاميذ، خاصة من أبناء أصحاب الدخل المحدود، يحققون معدلات نجاح عالية، مانحين الأمل للكادر التعليمي بأن الغد سيكون مشرقاً.

دفعني تفوق الصغار إلى الالتحاق بكلية التربية المفتوحة لدراسة اللغة الإنكليزية. أعطتني العودة إلى مقاعد الدراسة لوناً فقدته وخففت من اكتئابي. تخرجت ابنتي الكبرى من كلية الهندسة وبدأت أولى خطواتها لتكون معمارية يشار إليها بالبنان، كما تحلم. أما الصغيرة فهي تدرس جادة متمنية أن تحقق درجات عالية لتدخل كلية الطب. أما (طيب) فقد أنهت دراستها الثانوية وتعلمت الحياكة وأعمال التطريز وفكرنا أنا وهي بأن تعمل معلمة في مدرسة للمكفوفين. ما تزال (طيب) تترقب معجزة بإجراء عملية في عينها وأخرى للتجميل في وجهها. وباعتراف الجميع غدت مثلا يُحتذى به لإصرارها على الدراسة وثقتها بنفسها على الرغم من عوقها.

لم أجد نفسي وحيدة قط. كان الله سبحانه دائماً معي وما زلت أؤكد لبناتي أن السعادة قد تكون لأيام أو ساعات أو دقائق غير أننا نعيش لأجلها عمراً بأكمله.

بطاقة شخصية

* من مواليد بعقوبة.
* خريجة دار المعلمات الابتدائية في بعقوبة.
* خريجة كلية التربية المفتوحة ـ قسم اللغة الانكليزية.
* معلمة في الصفوف الابتدائية منذ ثلاثين عاماً.

النحات محمد غني حكمت

* ولد في بغداد عام ١٩٢٩.

* تخرج من معهد الفنون الجميلة فرع النحت ـ بغداد عام ١٩٥٣ و من ثم من أكاديمية الفنون الجميلة في روما عام ١٩٥٨.

* شارك في تأسيس «جماعة بغداد للفن الحديث».

* شارك كمساعد لجواد سليم في تنفيذ نصب الحرية في ساحة الحرية في بغداد.

* أقيم جناح خاص لأعماله الدائمة (حوالي ١٥٠) من البرونز والخشب والجبس في مركز صدام للفنون. وقد تعرضت كلها للسرقة والكسر والتدمير في نيسان ٢٠٠٣.

* أنجز حوالي ثلاثين عملاً نحتياً من النصب التذكارية والتماثيل والنافورات والجداريات في الهواء الطلق، بعضها في أوروبا والعالم العربي، لكن أغلبيتها الساحقة في العراق وبالتحديد في بغداد.

* من أهم أعماله في بغداد: تمثال برونز لأبو جعفر المنصور، تمثال برونز للملك حمورابي، تمثالي برونزيين لشهريار وشهرزاد، تمثالة «كهرمانة» المعروفة أيضاً بـ«علي بابا و الأربعون لصاً»، تمثال من المرمر للآلهة عشتار، تمثال برونز للشاعر المتنبي، نافورة من البرونز «الجنية والصياد»، نافورة من البرونز «بساط الريح».

جروح في شجر النخيل

قصص من واقع العراق

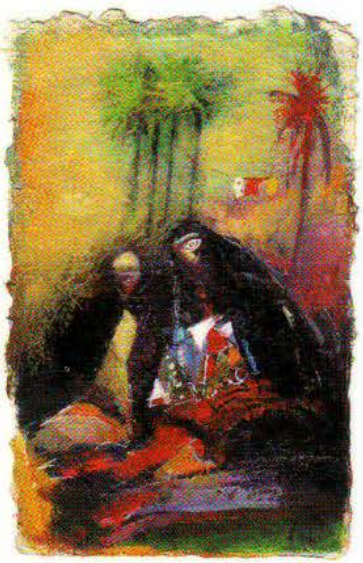

شارك في تأليف هذا الكتاب عدد من الكتاب والفنانين العراقيين من مختلف المذاهب والأعراق جمعت بينهم محنة الوطن. كلّ عبّر بأسلوبه عما عاشه وعاناه وشاهده. فهذا شاب انتزع من بين يدي والدته إلى حيث لا أحد يدري. وتلك امرأة ما زالت في انتظار رجلها الذي خرج إلى عمله و... وولد غادر مدرسته وامتهن التسوّل ليعيل من بقي من عائلته. واللائحة لا تنتهي.

اللافت في شهادات الكتاب أنها لا تتصل بالسياسة. فقط تحكي عن حفلة مجون وجنون تضرب هذا البلد وشعبه من عقود ولا تزال. قصة عائلة في نزوح لا ينتهي، وشعب باتت أحلامه كوابيس، وطفل أو عجوز أو ذات حمل هاربة من رصاصة طائشة أو حاجز أرعن أو صاروخ «ذكي».. إذا نجوا.

هذا الكتاب ليس هدفه التشويق والإثارة وتزجية الوقت. وقصصه ليست مشاهد عابرة أو حكايات مثيرة. الأمل كل الأمل أن يحرك ساكناً.

«الناشر»

ISBN 9953-21-292-9

9 789953 212920

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

COMITE INTERNATIONAL GENEVE
ICRC

3021